

الفكر النازحي عند الأمازيغ

تأليف
أرنولد توينبى

مراجعة

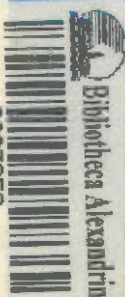
ترجمة

لمعنى المطيبي

دكتور محمد صقر خفاجة



0003958



الفكر النازحي عند الإغريق

تأليف
أرنولد توبينجى

مراجعة
دكتور محمد صقر خفاجة

ترجمة
لمعنى المطييعى



المدينة المنورة - مكتبات

١٩٩٠

هذه ترجمة كتاب

Greek Historical Thought

تأليف :

Arnold Toynbee

● الطبعة الثانية

● بمناسبة الذكرى المئوية لارنولد توينبي .

تعريف

ولد المؤرخ المعاصر « أرنولد توينبي » في لندن - ١٤ أبريل عام ١٨٨٩ . ودرس الأديين اليوناني واللاتيني في جامعة أكسفورد . وفي عام ١٩١٩ عين أستاذاً للأدب البيزنطي بجامعة لندن . وبدأ يشرف على المعهد الملكي للشئون الدولية منذ عام ١٩٢٥ ، كما عين أستاذاً للتاريخ العام في جامعة لندن . وفي عام ١٩٢٢ بدأ يضع المخطوط الأولى لمؤلفه الضخم (دراسة التاريخ) وصدرت منه المجلدات الثلاثة الأولى عام ١٩٣٤ .

وإذا كان المؤرخ « أرنولد توينبي » قد شهر بين المهتمين بالدراسات التاريخية بفضل هذه المجلدات ، فإن الكتاب الذي تقدمه لقراء العربية لأول مرة ، يعتبر الدخيل الحقيقي لدراسة التاريخ .

ويمكن تلخيص نظرة توينبي إلى الحضارة والتاريخ في عبارة صدر الناشر بها هذا الكتاب وهي : عالم واحد - ماض وحاضر ومستقبل .

وكتابتنا هذا ليس مجرد سرد تاريخي لتراث الإغريق ، وإنما هو يعبر عن تحليل لفلسفة التاريخ وفن كتابته عند المؤرخين الإغريق ، ويكشف في الوقت ذاته عن مدى إيمان « توينبي » بأثر الحضارة الإغريقية في الحضارة الحديثة .

الترجم

مقدمة الطبعة العربية الثانية

آرنولد توينبى والفكر التاريخي

١٨٨٩ — ١٩٧٥ م

لمى الطيمى

في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات ، عندما كان زمانى فى شبابه ، وضعت ضمن مشروعات حياتى الثقافية أن أجعل المؤرخ العلمى « آرنولد توينبى » ينطق باللغة العربية ، أى أن أترجم أكبر قدر من أعماله إلى اللغة العربية . ولكن ظروف الحياة صرفتنى عن هذه الأمانة ، وكل ما تبقى لى من هذا الرائد العظيم ترجمة عربية لكتاب (الفكر التاريخى عند الاغريق) نشرته ضمن المشروع الأول للألف كتاب وراجعته « الدكتور محمد صقر خفاجه » ، وترجمة لكتاب (مستقبل الغرب) الذى صدر بعنوان (مستقبل الحضارة) عام ١٩٦١ م للمفكر الهولندى « ج . دى بويس » وهو كتاب يجمع آراء عدد من المؤرخين — ومنهم توينبى — حول مستقبل الحضارة الغربية ، وكتاب آخر يحتوى على (نماذج مختارة) وعرض ودراسة ، ثم كتاب صغير بعنوان كبير هو (آرنولد توينبى — المؤرخ الفيلسوف) صدر فى ديسمبر من عام ١٩٦١ . هذا إلى جانب عدد من المقالات عن هذا المؤرخ العظيم .

توينبى فى مصر

وفى ديسمبر من عام ١٩٦١ ، كان المؤرخ الكبير فى القاهرة .. واحتشد أساتذة الجامعات والمفكرون والكتاب والمثقفون فى الجمعية الجغرافية يستمعون اليه وهو يتحدث عن وحدة العرب ولماذا تأخرت .. والدوافع السياسية

والاقتصادية للاتحاد الاقليمي .. وتاريخ الضغوط الأجنبية على العرب ،
ويتحدث عن العرب والغرب .. واحتضت الأوساط العلمية والجامعية
والرسمية بآرنولد توينبي . وبالنسبة لى شخصياً كانت لحظة من لحظات العمر
المضيئة حين قدمنى اليه مرافقه الصديق (الدكتور محمد انيس) وقدمت
للمؤرخ الكبير كتاباً لى عنه وعن أفكاره فى التاريخ . وحرصت (الدار القومية
للطباعة والنشر) على أن يصدر الكتاب يوم وصول المؤرخ الكبير الى القاهرة فى
أوائل ديسمبر ١٩٦١ . وبإستامة التواضع الجليل تقبل المؤرخ الكبير هذا
العمل البسيط وعرض غلاف الكتاب على السيدة زوجته ليذكرها بصورة له
اختارها مصمم الغلاف .. وكانت الصورة للمؤرخ وهو فى بيته بانجلترا .

الاعلام الاسرائيلى

وقد اهتم الاعلام المصرى بزيارة (توينبي) لمصر ، واهتمت الدوائر
الرسمية المصرية وقت ذاك بتلك الزيارة ، وذلك لأن المؤرخ العالمى تعرض
لحملة شرسة من الاعلام الاسرائيل ومن الدوائر الصهيونية وخاصة فى كندا
والولايات المتحدة على اثر مناظرة تمت فى ٣١ يناير عام ١٩٦١ م بين
(توينبي) وبين (ياكوف هيرزوخ) سفير اسرائيل فى كندا . وقد امتلأت قاعة
جامعة (ماكجيل) بالأساتذة والطلاب اليهود وممثلو قنصلية اسرائيل فى
(مونتريال) ، وحضر المناظرة أحد سكرتيرى السفارة المصرية .

كان المؤرخ شجاعاً وقال فى مواجهة اليهود : — ان الجزء الأكبر من الأرض
فى اسرائيل اليوم هو شرعاً ملك لأولئك العرب الذين طردوا من ديارهم . وأن
الجزء الذى يخص اليهود شرعاً هو الجزء الذى اشتروه ودفعوا ثمنه .

ومضى توينبي يقول : انكم تطلبون بحق اليهود فى العودة الى فلسطين على
الرغم من أنه لم يكن فى فلسطين عام ١٩٣٥ م سكان من اليهود لهم كيان .
ومنذ عام ٦٤ قبل الميلاد لم تكن هناك دولة يهودية فى فلسطين ، لقد طالبتم
بقيام دولة لليهود ، وفى الوقت ذاته أنكروتم على العرب الذين طردوا من
فلسطين نفس الطلب . ()

وكان « توينبى » قد صرح فى أسبوع سابق على هذه المناظرة لمستعميه من الطلبة اليهود فى جامعة ماكجيل بقوله : إن معاملة اليهود للعرب فى فلسطين عام ١٩٤٧ مشابهة من الناحية الأخلاقية لمعاملة النازى لليهود أثناء الحرب العالمية الثانية . إن القتل هو القتل سواء كانت الضحايا عربياً واحداً أم ستة ملايين من اليهود . وموقف « توينبى » هذا هو امتداد لرؤية تاريخية له فى المسألة .

اليهود والغرب الحديث

فى المجلد الثامن من عمله الشهير (دراسة التاريخ) وتحت عنوان (اليهود والغرب الحديث) تعرض « توينبى » للمظالم التى أوقعها الصهيونيون بالعرب وقررواها أشد وأفظع من تلك التى أوقعها النازيون باليهود . وعلى اثر نشر المجلد المذكور فى النصف الثانى من عام ١٩٥٤ ثار اليهود فى أنحاء كثيرة من الدنيا وخاصة فى الولايات الأمريكية ، وحلوا على المؤرخ المحايد حملات قاسية حاولوا فيها تبرئه أنفسهم . وفى مجلة لهم تصدر فى أمريكا هى (جويش فرونيتر) نشرت صحيفة يهودية حملة ضد « آرنولد توينبى » وقام استاذ جامعى بتثبيته « المؤرخ توينبى » إلى هذه الحملة . فيكتب « توينبى » رداً على مقال للصحفية اليهودية وهذه هى ترجمته :—

إلى محرر مجلة جويش فرونيتر

سيدى ..

لقد بعث إلى « البروفيسور إرنست سمبول » من جامعة « نورث وسترن » بنسخة من المقال الذى كتبته « مس سيركن » بعنوان « البروفيسور توينبى واليهود » . ولا أجد نفسى مقتنعاً بنقلها للفصل المعنون (اليهود والغرب الحديث) المنشور فى المجلد الثامن من عمل (دراسة التاريخ) وبحلولى أن أوضح باختصار لماذا أفكر على هذا النحو . . . إن « مس سيركن » مخطئة فى ظنها أن نشاط « مستر توينبى » فى وزارة الخارجية البريطانية كان مشوباً بالميل

إلى العرب . وخلال الحربين العالميتين الأولى والثانية ، خدمت كموظف في وزارة الخارجية ولم أكن قط في موقف موال للعرب . ولم تشر « مس سيركن » إلى الفصل المعلن (مسئولية بريطانيا) الذي أكدت فيه على أن بريطانيا تتحمل أكبر قدر من المسئولية في النزاع بين العرب واليهود . . . لقد كانت بريطانيا الدولة المحتلة أولاً ، والدولة المنتدبة بعد ذلك . وقد أدت شئون فلسطين من عام ١٩١٧ — ١٩٤٨ ، وخلال هذه السنين الحرجة كان موقف الحكومة البريطانية جدير بالادانة . إن الحكومة البريطانية سمحت للأقلية اليهودية بأن تصبح كبيرة — في عددها . وبذلك لم يبق هناك أمل بأن يرضى اليهود بالمشاركة في حكومة ثنائية قومية ، أو أمل في قيام مثل هذه الحكومة . وباعتباري بريطانياً ، ولست عربياً ولا يهودياً ، فليس لي أية مصلحة شخصية في أن أحاي أو أحمل على أى من الفريقين .

وفيما يتعلق بالمشكلة القائمة بين الفلسطينيين العرب والصهيونيين ، فإنني اعتقد ان الفلسطينيين العرب على صواب ، وأن الصهيونيين على خطأ . ورأى في هذه المسألة كراى مس سيركن عرضة للاعتراض عليه ، إلا أن رأيي تمحىء قيمته من أنه يقوم على وقائع أراها بنفسى . . . إنه لمحزن حقاً أن تكون مجرمات بالتعصب أو أن تكون ضحية للتعصب . وقد كان اليهود على التعاقب مجرمين بالتعصب وضحايا له منذ القرن الثالث قبل الميلاد . وما يدعو إلى السخرية أن اليهود كانوا أول ضحايا النيران التي بدأوا بإشعالها .

وكتب « البروفيسور توينى » — توينى هو الذى يتحدث — في المجلد الذى سبقت الإشارة اليه بمناسبة مولد اسرائيل كدولة : — ان اسرائيل الصهيونية الجديدة في فلسطين طبعه ثانية من الدول الغربية العنصرية الحديثة . . وأشعر بأن مأساة جرائم اسرائيل والصهيونية أعظم شأنًا من مأساة جرائم ألمانيا النازية . ان مقياس المأساة ليس احصائياً ، بل روحياً . إن مستقبل اسرائيل السياسى مرتبط بمستقبل اللاجئين العرب الفلسطينيين .

دراسة التاريخ

ومجلدات (دراسة التاريخ) التي أشرنا إليها في الفقرات السابقة هي أشهر أعمال «آرنولد توينبي» وقد بدأ يضع الخطوط الأولى لها عام ١٩٢٢ ، وصدرت المجلدات الثلاثة الأولى منها عام ١٩٣٤ م . . وهناك أعمال أخرى له مثل : (العالم والغرب ، الحضارة في الميزان ، الحضارة الهلينية . . تاريخ حضارة ، الفكر التاريخي عند الاغريق ، وهناك) مختصر التاريخ وهو مختصر لأعماله الشهيرة (دراسة التاريخ) .

وتوينبي يضمن هذه (الدراسة) جميع الحضارات المعروفة . وهو يميز من بينها ثلاثين حضارة ، ومن هذه الحضارات الثلاثين إحدى وعشرون حضارة أتمت نموها ، وخمس حضارات يطلق عليها اسم (حضارات متجملة) ، أى حضارات وصل نموها إلى نقطة ما وتوقف قبل أن تبلغ مرحلة النضوج ، أما الأربع حضارات الباقية فقد ولدت ميتة ويطلق عليها (حضارات مجهضة) .

وتوجد من بين الحضارات الواحدة والعشرين التي اكتمل نموها ، ست حضارات لم تزال قائمة كمجتمعات حية وهي : الحضارة الهندية ، والحضارة الاسلامية ، وحضارة الشرق الأقصى ، والحضارة البيزنطية ، والفرع الرومى من هذه الحضارة ، والحضارة الغربية .

ويرى «توينبي» أن مولد الحضارة لا يرجع بالضرورة إلى تفوق جنس بشرى معين ، أو إلى ظروف ملائمة بشكل غير عادى . . وإنما يعزى مولد الحضارة إلى (ظروف قاسية بشكل غير عادى) . هذه الظروف القاسية الشاذة ، تشكل ما يسميه توينبي (التحدى) . والمجتمع الذى يواجه التحدى ، يجمع قواه ليرد على هذا التحدى ؛ فإذا ما نجح فى مواجهة التحدى وتغلب عليه تحسن قواه الداخلية ، وقدراته الخلاقة الى درجة تؤدى الى مولد (الحضارة) .

ويؤيد «تويني» دعواه بأن الحضارة الصينية مثلاً لم تنشأ في وادي (يانجتسي) الخصب وإنما نشأت في وادي النهر الأصفر الملىء بالمستنقعات والفيضانات ؛ أي أن الحضارة تولدت طاقاتها في مقاومة المجتمع للتحدي . وهذه العملية يعبر عنها ب (حركة التحدي والرد على التحدي) وهناك عملية أخرى هي (الانسحاب والعودة) وهو يقول بأن الفرد أو المجتمع قد ينسحب في ظروف معينة ويختفى ليعود أكثر قوة بعد أن يمر بعملية تنقية أو تطور داخلي .

وقد يحدث أن يستنزف المجتمع طاقاته في عملية الرد على التحدي ، وهنا (تتجمد) الحضارة بعد مولدها . وربما تتم (حركة الانسحاب والعودة) فإذا ما استطاع المجتمع أن يأخذ فترة نقاهة أو تنقيه يعود من جديد .

فأينما مثلاً ، لم تلعب دوراً فيما بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد ، وعادت بعد ذلك وقامت بدور الزعامة في مجموعة الدولة الهلينية . وإيطاليا . . برزت من المجتمع الاقطاعي فيما بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر حيث أتمت الانتقال من المجتمع الزراعي إلى المجتمع المدني التجاري والصناعي . وانجلترا إبان فترة عزلتها عن أوروبا ، أي فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر قد أرست قواعد الديمقراطية البرلمانية والمجتمع الصناعي الحديث .

وعملية تدهور المجتمع ليست عملية حتمية عند توينبي ، وجوهر التدهور عنده هو فشل القوى الداخلية في الرد على التحدي الداخلي أو الخارجي وتكون هذه القوى الداخلية قد فقدت قدراتها الخلاقة . ويقول أن القيادة إذا ما فقدت القدرة على إيجاد قوة خلاقة تكفي لمواجهة التحدي فإنها تفقد جاذبيتها وسحرها على تحريك الجماهير . ومن ثم فإنها تضطر إلى استخدام القوة ، وتتحول إلى أقلية قاهرة وتكف الجماهير عن الخضوع لها . فتحدث ثغرة في الوضع السياسي وفي الوحدة الاجتماعية وتدخل (الحضارة) في مرحلة التحلل . وليس من المحتم أيضاً أن تدخل الحضارة مرحلة التحلل النهائي

عندما تصل الى مرحلة التدهور ، فقد يستطيع المجتمع أن يضم صفوفه ويتوقف التحلل وهنا إما أن تتجمد الحضارة أو تمضي من جديد .

دانييلفسكى الرائد الروحي لتوينى

والدراسة الموضوعية لمؤرخ مفكر مثل « آرنولد توينى » لا تكون كاملة إلا اذا عرفنا ابرز المفكرين الذين تأثر بهم أو الذين اختلف معهم .. وفى هذا المقام يبرز مفكران على المسرح .. الأول إلتقى معه « توينى » فى فكرته الرئيسية حول الحضارة واختلف معه فى كثير من التفاصيل وهو « نيقولاى دانييلفسكى » . والثانى اختلف معه فى الفكره الجوهريه عن الحضارة ، والتقى معه فى فى كثير من الجزئيات وهو « إزوالد شينجلر »

ونيقولاى دانييلفسكى كان موظفاً ناهياً فى الحكومة الروسية ، وأحد عام ١٨٦٩ م دراسات حول موضوعات متشعبة . ونشر فى مجلة (زاريا) سلسلة من المقالات بعنوان (روسيا وأوربا) ونشرت لها ترجمة بالفرنسيه عام ١٨٩٠ م وترجمة بالالمانيه عام ١٩٢٠ م . ويمكن أن نعتبر « دانييلفسكى » رائداً روحياً لآرنولد توينى . والمبدأ الهام لمقالات دانييلفسكى هو المبدأ الذى يقول (الحضاره هى الوحده الحقيقيه للدراسة التاريخيه) وبعد ٧٥ عاماً أخذ « توينى » هذا المبدأ عن موظف الحكومه الروسيه « نيقولاى دانييلفسكى » وقال توينى : (إن الأمة ليست هى الوحده البسيطة للدراسه التاريخيه) . وإن يكن « توينى » قد اتفق مع « دانييلفسكى » فى منهج دراسة التاريخ الا أنها اختلفا منذ البدايات الأولى .. إذ أن « دانييلفسكى » كان يهدف منذ ابحاثه الأولى الى فصل (الحضاره الروسيه) من نطاق (الحضارة الأوروبية) ووضع الحضارة الروسية فى تعارض مع الحضارة الأوروبية وقال بصراحة : (ليست الحضارة الأوربيه هى الحضارة العالميه بلهى وجه من الوجوه .. وقد

نشأت حضارات كثيرة خارج أوروبا ، وهذا ما فعله الروس لأن روسيا لا تتبع أوروبا فهي ليست جزءاً ولا فرعاً من الحضارة الأوروبية) .

وقال « دانييلفسكى » بأن تدهور الحضارة الأوروبية بدأ مع بداية القرن التاسع عشر ، وأن الصدام بين الحضارة السلافية والحضارة الأوروبية واقع لا محالة ، وسوف تخرج الحضارة السلافية منتصرة على الحضارة الأوروبية . أما « توينبى » فإنه يتحدث عن روسيا كجزء من الغرب ، وأن حضارتها جزء من الحضارة الغربية . والطريف أن الشيوعيين الروس بعد أن استولوا على السلطة عام ١٩١٧ هاجموا « دانييلفسكى » وأهملوا أعماله ، ولكن بعد أن هدأت الأمور وقرأوا أفكاره وخاصة تلك التى تقول بانتصار الحضارة السلافية على الحضارة الأوروبية نشروا أعماله على نطاق واسع .

توينبى

فى مواجهة شبنجلر

كان أوزوالد شبنجلر شخصية فذة ، ففى رأسه غريب التكوين الشبيه بالبيضة أو كرة البلياردو ، تكونت نظرية عن حياة الحضارات وموتها كان لها تأثير كبير جداً على الفكر الحديث . ولقد أحدث عمل شبنجلر « انهيار الغرب » الذى نبتت فكرته فى رأسه قبل الحرب العالمية الأولى وكتبه ونشره بعد الحرب ، أحدث تأثيراً عميقاً على أوروبا التى كانت تتنفض من الانهك .

لقد كان « شبنجلر » يمثل (الحانوق) الذى جاء يتلو مراسم تأيين الحضارة الأوروبية وهى فى الطريق إلى القبر . أما توينبى « فهو بمثابة الطبيب الذى يذل قصارى جهده لعلاج المريض الذى يرقد على فراش الموت ..

رأى « توينبى » أن الحضارة الأوروبية تحتضر ، ورأى « شبنجلر » أنها ماتت وشيعت موتاً . والحضارة عند شبنجلر كائن حى .. يولد وينمو ويموت .. وإذا ماتت فلا بعث لها من الموت . وقد عرفنا من قبل أن « توينبى » يرى أن الحضارة

إذا تغلبت على التحدى يمكن أن تمضى فى الطريق من جديد ، ويمكن أن تنسحب وتعود مرة ثانية ، أو يمكن أن تتجمد إلى أن يشاء الله لها بالحياة أو السكون أو الموت . . ولكن الموت ليس حتمياً . . ليس حتمية عضوية فالإنسان له دور كبير .

كان « شبنجلر » بمثابة الابن الروحى للفيلسوف الألمانى « جوته » وبمثابة الأب الروحى للزعيم النازى « هتلر » . أما « توينبى » ابن انجلترا لا يجب جوته ويكره هتلر . توينبى هو ابن الديمقراطية الانجليزية أما شبنجلر فقد عرف بأفكاره غير الديمقراطية عن المجتمع ، وعرف بعدم الايمان بحرية الصحافة ، وتقديره للعمل على الفكر . ويبلغ فى استخدام التهازل بين الحضارات ، ويبلغ فى استخدام اصطلاح (الحياة العضوية) . أما « توينبى » فقد قال بقدره (الانسان) فى الرد على (التحدى) ومن ثم رأى امكانية قيام الحضارة وعودتها بعد انسحابها أى أن (الحضارات لا تولد تماماً ولا تموت تماماً) .

لقد استطاعت تحليلات « توينبى » المتضائلة أن تخلق جيلاً من المفكرين والقاده يؤمن بأن القارة العجوز (أوروبا) تملك القوة الخلاقة التى تكفى لأنهاض الحضارة . . ويرى هؤلاء أن القوى الخلاقة متوفرة فى السياسة الأوربية ، وفى الاقتصاد الأوربى ، وفى الفنون كالمرح والسينما والموسيقى ، والتقدم الأمريكى وفى التوجهات الديمقراطية والتطلع إلى السلام .

بطاقة تعارف

ومهما يكن من أمر فإن هذا المؤرخ العالمى العظيم ، كان مؤرخاً شجاعاً يتصف بوضوح الرأى ونزاهة القصد واحترام الوقائع الموضوعية .

— ولد آرنولد توينبى فى مدينة لندن ، فى ١٤ أبريل عام ١٨٨٩ م . وكان للبيئة البريطانية أثر كبير على أفكاره .

— نشأ بين والدين على درجة من التعليم والثقافة والاهتمام بالشئون الاجتماعية .

— اهتم توينبى بالدراسات الاقتصادية إلى جانب الدراسات التاريخية .

— درس في اكسفورد الأدب الكلاسيكى اليونانى واللاتينى .

— اهتم بالحضارة الهلينية وسافر مرات عديدة إلى اليونان يتفقد معالمها وآثارها .

— عمل بوزارة الخارجية أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية .

— كان عضواً فى الوفد البريطانى فى مؤتمرات السلام عقب الحربين العالميتين .

— بدأ عام ١٩٢٢ يضع الخطوط الأولى لعمله الأشهر (دراسة التاريخ) وصدرت المجلدات الأولى منها عام ١٩٣٤ وهى اثنا عشر جزءاً .

— منذ عام ١٩٢٥ أشرف على المعهد الملكى للشئون الدولية .

— صدرت له أعمال كثيرة منها : دراسة التاريخ — الحضارة فى الميزان — الفكر التاريخى عند الاغريق — مختصر التاريخ — العالم والغرب — الاسلام والغرب .

— يعد توينبى حجة فى الأديين البيزنطى واليونانى .

— فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٥ م انتهت أيامه على الأرض .

مقدمة الطبعة الإنجليزية الأولى

بدأ الفكر التاريخي القديم عند الإغريق أو الهيلينيين وقت أن تشكلت الأصول الأولى لشعر « هومر » في عقولهم . وانتهى حينها سلم « هومر » بأولوية الإنجيل باعتباره الكتاب المقدس لدى المثقفين الناطقين باليونانية والكاتين بها . وقد ظهرت النزعة الأخيرة في تسلسل مؤلفي التاريخ المتأخرين ، فيما بين التواريخ التي أخرج فيها كل من . ثيوفيلاكثوس سيموكاتا Theophylactus Simocatta و « جورج اليسيدي » George of Pisidia مؤلفاتهما المتأخرة ؛ ولما كان كلاهما يكتب إبان حكم « هرقل » Heraclius ، فقد وضع اسم ذلك الإمبراطور على غلاف هذا الكتاب بقصد توضيح أبعاده^(١) . وأما كان الأمر ، فإن العملية التاريخية قلما تحدث طفرة ، وإن الانتقال من الحضارة الهلينية إلى الحضارة البيزنطية (والتي كانت هذه الثورة الأدبية إحدى ملامحها العديدة) قد استغرق فترة ثلاثة قرون كاملة من بدايتها إلى نهايتها ، ويتضح هذا بمجرد أن ندخل في نطاق نظرنا بعض الأوجه الأخرى للحياة . فإن « باولوس » Paulus مثلاً ، الذي كان في خدمة البيت الإمبراطوري ، وواحداً من مدرسة « أجاثياس » Agathias المؤرخ المعاصر له في فن قرض الشعر البسيط ، كان لا يزال ، في القرن السادس بعد المسيح ، قادراً على أن ينظم دون مشقة بلغة « ميمرموس » Mimnermus وأوزانه ،

(١) حكم هرقل من عام ٦١٠ — ٦٤٠ م وهو البطل في قصيدة جورج التاريخية . بينما كان بطريرك سرجيوس Sergius ساعده الأيمن نصير ثيوفيلاكثوس . وأى ترى . لم باليونانية ما عليه إلا أن يلق نظرة على الابتالات في قصيدة جورج (نشرها عام ١٨٣٦ « بيتشر » J. Becher في بون — Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae) ليذكر لنا استجدما المؤلف من هذا الكتاب باعتبارها غريبة على التراث الهليني . ومن جهة أخرى ، أوردت مقدمة ماركوس الشمس Meracus the Peacock حياة « بورفيريوس الغزي » Porphyrius of Gaza باعتبارها من أول الأمثلة الهامة للفكر الجديد التي كان خرو (الهلينية) فعلاً .

وإن كان موضوع أطول قصائده وأكثرها شهرة هو (كنيسة آيا صوفيا) Hagia Sofia ، تلك التحفة المعمارية التي تباين كل التباين ، أو تكاد ، مع مظهر أى أثر هلىنى وى (كولوفون) Colophon أو (إفسوس) Ephesus أو (أثينا) Athena . وى نفس الوقت يظهر هذا التباين فى مجال الدين . فالاعتقاد الذى قوامه الكبرياء والقدر المحتوم والنقمة عند الأرباب ؛ هذا الاعتقاد البدائى العميق ، إنما يمر عن خصائص الهلىنية فى نظرتها إلى الحياة . ويبدو هذا الاعتقاد جلياً فى أقدم أشعار هوميروس ، ونحن نورده مصحوباً بالاعتقاد التهكمى القديم فى آخر جملة من القطوعة الأخيرة مترجمة فى كتابنا هذا . وتتضح روح هذا الدين الهلىنى القسح ، فى كل جوانب الأدب الذى تشيع فيه ، إلا أن فخص القطوعة التى تحمل عنوان (اللامردية) والتى ترجمت عن « أجاثياس » السلف المباشر لـ « بروكوبيوس » Procopius ، إنما يفصح عن حقيقة مؤداها أنه فى منتصف القرن السادس بعد المسيح انقرضت الديانة الهلىنية - حتى فى قلوب الرجال الذين تلقوا التراث الأدبى الهلىنى والذين ما فتئوا يسبحون بأرباب الهلىنيين . وى حذقة تذكرنا بأسلوب هيرودوت ، يتمتع « بروكوبيوس » عن مناقشة (أسرار) الجدول المسيحى المعاصر على أساس أن الموضوعات محل النزاع القائم ، إنما هى بطبيعتها مما لا يدركه العقل الإنسانى ، ويمرض ، دون أن يعمد إلى ذلك ، ما يمتد أنه الحقائق البدئية المجردة التى تتصل بذات الله . إلا أن أى شخص يمكنه أن يقف من خلال هذه الصفحات ، بالأحرى ، من مؤلف « ف . م . كورنقورد » Cornford - على النظرة الهلىنية الحقيقية إلى الدين ، سوف يدرك على الفور أن بديهيات « بروكوبيوس » لابد وأن تكون قد بدت « لهرودوت » Herodotus أو « ثوكوديديس » Thucydides أو « بولوبيوس » على أنها من أسباب الخير والشر الرئيسية . مسكين بروكوبيوس ! ألا ما أعمق فخته لو أنه استطاع أن يتحقق من أن عجرفته العقلية ، ما كانت لتجديه فتيلاً ، بأية سورة من الصور ، إزاء تقدير نماذجه الأدبية الكلاسيكية ، بل من شأنها أن تضمه

بلا وازع من ضمير في مصاف «هيپاتيوس» Hypatius و«ديمترىوس» Demetrius
المبجلين ، بل كذلك مع صاحب الجلالة المقدس الملك جستنيان Gustinian
ذاته ، بصفته طرازاً مؤقتاً يصور عصره لين المريكة .

لقد كانت نقمة الأرباب أمراً خطيراً بالنسبة للميلينيين ، إذ أنهم آثروا أن
يدخروا كنوزهم حيث تأكلها النشة ، ويفسدها الصدأ ، ويتسلل اللصوص
فيسرقونها . لقد كانت مملكتهم ، يقيناً ؛ مملكة من هذه الدنيا . وقد يصح
« بركليس » Pericles مواطنيه أن يدعوا عظمة أثينا تستقر في أفهامهم ، لا أن
يمروا عليها بشكل عابر ؛ (فالتخلص) الذي كان موضوع النقاش في (ميلوس)
Melos كلن يعني أن ينجو البدن وحده من القتل أو العبودية ولم يكن يعني
أن تملأ النفس من قيود الإثم أو الضياع^(١) ؛ (فالتخلص) بالمعنى الصحيح في
عرف اليوناني ، هو « بطليموس » Ptolemy بن « لاجوس » Lagus ،
الذى انتزع لنفسه بنجاح هذا اللقب من « زيوس » Zeus إلى أن نزل عنه
لصعوك من سلالة رعاياه الشرقيين . أما الخطيئة التى أبى « بولوبيوس » إلا أن
يسدل الستار عليها ، فقد كانت حماقة سياسية تمكن بها « ديايوس » Diaeus
ورفاقه من تدمير الوحدة الآخية Achaean . وبعبارة أخرى ، كان العالم الهليني
(وهنا تكن أهميته الفائقة بالنسبة إلينا) أقرب مايكون إلى العالم الذى نعيش
فيه الآن ، وذلك في مقابل السماح للسيحى الذى يتوسط بيننا من الناحية الزمنية ،
أو في مقابل تلك الديانة التى لم توجد بعد ، والتي من شأنها ، دون شك ، أن تدخر
صكراً جديداً في سماء جديدة حينما تأخذ دنيانا في الزوال ، لتستقر في النهاية هي
الأخرى كما بقاتها في (خضم لا قرار له حيث لا تناسب بين جميع الأشياء .)

ولا يتسع المقام في حدود هذه المقدمة إلى أن نعرض أى حاشية للتراجع ، مها

كانت مختصرة ، تناول مؤلفي التاريخ ممن ورد ذكر أعمالهم في متن الكتاب^(١) ، وإن كانت ملاحظة عامة أو ملاحظتان قد تساعدان على إيضاح الأمر . وبإحدى فئتيه ، لم يكن المؤرخون الهلينيون (خاصة أعظم هؤلاء المؤرخين) من أصل هيليني خالص . فقد جاء « هيرودوت » من مجتمع (هاليكارناسي) الذي يتحدث باللغتين الهلينية والكاريّة Carian ، و « ثوكوديدس » رغم أنه أثيني المولد وظل مواطناً أثينياً (حتى وقت تقيمه) ، فقد جرت في عروقه^(٢) دماء تراقية Thracian ؛ وكان « يوسف » Josephus يهودياً و « بروكوبيوس » فلسطينياً . وقد تجرت العادة منذ عصر الإسكندر وما تلاه على عدم الإشارة إلى أن المؤرخين الهلنيين قد وفدوا من سائر الشعوب التي ذاعت بينها بشارة الهلينية تدريجياً . وبهذه الصورة ، فإن الدراسة التاريخية الهلينية لم تقصر نفسها على اللغة اليونانية ، وكان يمكن توضيح ذلك في هذا الكتاب لو اتسع المجال ، بتضمينه ترجمات من اللغة اللاتينية^(٣) . ولقد مكنت رقعة روما السياسية التسعة المؤرخين الرومانيين بشكل لا مثيل له ، من أن يجمعوا شئون العالم ويربطوا مصيرها بمصير دولتهم ،

(١) بالنسبة إلى هذا أحيل القارئ إلى مؤلف « بيوري » Bury (المؤرخون الإغريق القدامى The Ancient Greek Historians وإلى المواشي الرائعة الموجزة الشاملة الخاصة بالأسانيذ في نسخة جيبون Gibbon .

(٢) حسب ما يعرفنا هو نفسه فقد حصل على امتيازات ملكية في مناطق التعدين التراقية في (بانجيم) Pangaeum ، ومن المحتمل أن يكون قد عكف هناك على كتابة تاريخه بعد الكارثة المبرية التي أدت إلى تقيمه من أثينا .

(٣) إن المؤرخين الرومانيين الأول (مثل سلفهم الأول كاثوس اليدي Xanthus The Lydean في القرن الخامس ق . م) قد وجدوا من الطبيعي جداً أن يعلرسوا ما كان يعرف بالفن الأدبي الهليني باللغة اليونانية — رغم أن بنور الهلينية قد سقطت في بعض الأحيان على أرض صخرية ؛ لكنهم أظهروا أصالة أعظم من الأناضوليين والسوريين المصطنعين بالصيغة الهلينية ، كما أنهم بشروا ترجمة للأدب الهليني في لغتهم الوطنية . وفي نفس الوقت فإن حق الأدب علينا أكثر أهمية من الأصالة القوية ، ويستر التراث الروماني متغولاً عن الهلينية كما كانت الإمبراطورية الرومانية بمثابة الطور الأخير في المجال السياسي للجمع الهليني . وعلى العكس ، فهناك أعمال تاريخية في اللغة اليونانية القديمة (كتبها الأدباء اليسوعيون الأول أو البيزطيون الأواسط) وهي تاج حضارات ليست هلينية .

ولهذا ، فإنهم قد زعوا ، كما بين « ديونوسيوس » Dionysius الهاليكارناسي ، إلى خلق نوع جديد من الأدب التاريخي الهليني تمثل في التاريخ المحلي . ومن هذه الزاوية ، قدم لنا المؤرخون الرومانيون على نحو ما فعل زملاؤهم الأدباء الذين عالجوا الكوميديا الأخلاقية الأثينية ، قدموا لنا المادة الوحيدة تقريباً لإعادة بناء فرع فقدناه من الأدب الهليني ، وذلك حتى أعاد لنا الاكتشاف الحديث لكتاب « أرسطو » (دستور أثينا) ، للتاريخ المحلي لأهم عواصم (هيلاس) Hellas نفسها في صورة موجزة .

وهكذا ظل تأثير الهلينية في مجال التاريخ وفي غيره من المجالات ، يشع في نطاق أوسع من اللغة اليونانية ومن الجنس اليوناني ؛ وهذه إحدى البينات الكبرى على عظمتها . وفي نفس الوقت ، فإنه من الصحيح أيضاً أن بعض صور إبداع الفكر التاريخي الهليني العميقة الرائعة ، إنما كانت بتأثير الاتصال بمجتمعات غير هلينية وقد فتحت بصيرة « هيرودوت » بفضل دراسته للحضارة الإيرانية السورية التي انطوت عليها دولة الآخمينيين المالكية ، والتي حاولت في عصره أن تشمل العالم الهليني ، ولكنها أخفقت في ذلك . وكذلك تنبه « بولوبيوس » بفضل إهام إيطاليا الرومانية (التي جعلت رقعتها تسع إلى الغرب) في وقت أحرزت فيه روما ، عسكرياً ، ما أخفقت في إحرازه فارس ، وكان الظافر في كل قطاع آخر من الحياة يقع أسير الهلينية^(١) وكان « بولوبيوس » الذي أتى من (ميجالوبوليس) Megalopolis في أعماق (أركاديا) Arcadia ، هو الوحيد من بين العبقريات التاريخية الثلاث للهلينية ، الذي كان هلينياً حقاً ، مقارنة بالمعنى الحيواني للكلمة والذي لا أهمية له ؛ إلا أن الحضارة في أي وقت معين من وجودها ، لا تكون بأية حال نتاج تحول فيزيائي أو نتاج بيئة محلية ، إنها خليط من القديسين (ومن

(١) خضع الرومان ، في كل شيء ، ما عدا الفتح العسكري ، للهلينية بشكل كامل أكثر من أي شعب شرقي طوروس Taurus ، وقلوا طواعية عن الهلنيين حتى التكنيك الحربي ، كما يتضح مما كتبنا ؟ من بولوبيوس بعنوان (بنور على أرض طيبة) والذي ترجمناه في كتاب (الحضارة والسجية) ص ٩٢ — ٩٣ .

الأشبار كذلك) يحوطهم ذلك الحشد العظيم من الشهود يزدادون باطراد، والذي ضم غالبية الجنس البشرى، وعلى هذا فإن العضوية في الحضارة أمر روحى أكثر منه مجرد انشاء مادى. والذي يمكن تصويره، لأول وهلة هو أن « لاؤنيكوس خالكوكونديلس » Laoniceus Chalcocondyles المؤرخ الأثينى، الذى سجل فى القرن الخامس عشر نشوء الإمبراطورية الميثانية، بلغة يونانية كلاسيكية رائمة وبأسلوب ترسم فيه بتناية أسلوب « هيرودوت » و « ثوكوديدس »، أمكنه أن يعود بنسبه إلى « ارخيتيوس » Erechtheus أو « ديوكاليون » Deucalion من ناحية الأبوين بشكل قد يبدو أكثر صواباً مما فعله « ثوكوديدس » نفسه، وهو ما كان يمكن أن يظهر، لو أن خبيراً من خبراء الأثر بولوجيا فحص حالته، إذن لكشف عن سمة (هليلية كبيرة)، توضح منبته وملاحه. ورغم هذا كله، فإن « ثوكوديدس » سيبقى فى القمة كأعظم المؤرخين الهيلينيين دون منازع، بينما سيبقى « خالكوكونديلس » ذرة الحضارة البيزنطية — لا الحضارة الهلينية^(١). ولعله يكون لتواً من جانب (خالكوكونديلس » ومعاصريه البيزنطيين فى عصر الإحياء، أن يتمردوا على أبوة « ديوكاليون »، بينما لأننى سنة خلت، كانت ربة الإلهام قد أقامت لديوكاليون أطفالاً من بين أحجار (ترايا) Thrace و (كاريا) Caria. وثمة سمة ثانية للفكر التاريخى الهلبنى، ألا وهى أنه لم يكن بحال من خلق مؤرخين معترفين. فالشعر الذى نظم فى مختلف العصور، شأنه فى ذلك شأن فلسفة أفلاطون والأدب الطبى للمدرسة الأبو قراطية Hippocrates يدخل ضمن مادة هذا الكتاب، لأنها تعبر بصورة أكثر وضوحاً من أى عمل تاريخى بالمعنى الفنى للعبارة عن أفكار تاريخية هليلية رئيسية.

(١) يمكن أن نضيف، أننا إذا ما استعدنا أى عمل تاريخى من نتاج الحضارة المتويزة Minoan وتحتجنا فى ضيقه، فقد نجد أن هذه الأعمال (إذا ما جاءت من المستعمرات البرية فى كريت) قد كتبت فى شكل ما باليونانية. وأبما كان الأمر، فإن ذلك لن يجعل منها أعمالاً هليلية. وفى الحقيقة، سوف لا يكون باعثاً على الدهشة، إذا ما أظهرت هذه الأعمال قريباً للروح البيزنطية أكثر من الروح الهليلية.

وعلى العكس من ذلك ، فقد أسهم المؤرخون في الأدب الروائي وعلم الوراثة والأثربولوجيا والعلوم الطبيعية التي استبعدت من هذا الكتاب باعتبارها بعيدة عن موضوعه . وهناك أمر أكثر أهمية ، قصد إليه قصداً ، وهو أن الكتاب جاء غفلاً من الفقرات التي تناول تاريخ الحرب . وقد يكون أكثر من أربعة أخماس (من باب الحدس !) الكتابات التاريخية الهلينية التي وصلت إلينا ، مليئة بوقائع تفصيلية عن العمليات الحربية — وإنها لحقيقة غريبة ، إذا ما وضعنا في اعتبارنا ما كان عليه الجمهور الذي كتبت له معظم مؤلفات التاريخ الهليني من عقل وبصيرة . إن حيز هذا المجلد ونصوص الأسانيد التي توافرت له ، جعل من الضروري أن تنبذ أية محاولة تصور (من ناحية الكم) قدراً كبيراً من التاريخ الهليني خلاف ما يلقى ضوءاً على جوانب أخرى من الفكر التاريخي الهليني . فتاريخ فن الحرب في ذاته ، إنما يمكن تناوله بشكل سديد في مجلد مستقل في سلسلة المؤلفات التاريخية .

ولعل السمات التي ذكرناها لا تمت بشكل واضح إلى الكتابة التاريخية الهلينية . وثمة خواص أكثر ارتباطاً ، فإذا ما نحن ضيقنا نظرنا إلى المؤرخين أنفسهم ، وجدنا أن الغالبية العظمى منهم كانوا من الرجال الملمانيين . فتو كوديديس وكسينوفون Xenophon وبوليبيوس ويوسف (وهم أربعة من أعظم الأعلام الخمسة) ، كانوا رجال أعمال لامعين تحطم مستقبلهم ، فحولوا طاقاتهم إلى مجرى الأدب ، حينما حرمتهم نقمة الأرباب فرصة شغل مناصب الدولة ، وإدارة الأعمال العامة عن طريق الجمعيات السياسية ، أو تولى قيادة الأساطيل والجيوش في الميدان . أما العلم العظيم الخامس ، وهو هيرودوت ، فحياته الخاصة تكاد تكون غير معروفة لنا . إن عقله ذا الاتجاه الفولنتري يوحى بأنه دقيق الملاحظة ، ناقد بفطرته أكثر منه رجل يشارك بطبعه في الأعمال ؛ ومع ذلك فإن عمله النهي كان دائماً نشاطاً إنسانياً حياً ، لأنه درس التاريخ المعاصر له كما درس علم الاجتماع ، من الطبيعة ، في سلسلة من رحلات طويلة مخوفة بالمخاطر . وبعبارة أخرى ، كان يقرب بعيني «أوديسيوس» لا بعدسات « رانك » وهذه سمة تتميز بها المدرسة التاريخية الهلينية . وقد أخذ

« بولوبيوس » أيضاً ، يتوغل إلى الشمال الغربي في قلب العالم الهليني . وتتناك تونغل هيرودوت إلى الجنوب الغربي . أما « ديودورس » Diodorus الذى ينم عمله أحياناً عن الأداء المكتبي ، فلم يكن قائماً (كما يحدثنا هو نفسه) بأن يقع بين جدران المكتبات في (أجريوم) Agyrium أو حتى مكتبات روما . وفيما يتعلق بالمؤرخين الذين كان لهم حظ معاصرة عهود النمو أو فترات الاضطراب^(١) ، فإن أمر انصالحهم عن كُتب بحياة مجتمعاتهم الإيجابية لا يدعوا في واقع الأمر إلى الدهشة ، إلا إذا قورن ذلك بمظاهر الحضارات الأخرى . وأيما كان الأمر فجدير بالاعتبار ، أن هذه السمة لم تختف في أثناء الطور الثالث والأخير ، الذى كان فيه العالم الهليني يرفل في أغلال السلام الرومانى Pax Romana بشكل سلبى ما . ففي ذلك العصر ، كان من المتوقع على الأقل أن يسود أسلوب المؤرخ الأكاديمى ، إلا أنه لا يوجد من عصر الإمبراطورية الرومانية غير « ديونوسيوس » و « يونايبوس » Eunapius ؛ وهما الثالان الوحيدان غير المشكوك فيهما ، من الطراز الذى وجد طريقه إلى المجلد الحالى . وقد كان « أريان » Arrian و « ديو » Dio من العسكريين وأرباب السياسة وذوى التجارب فى الحياة العامة والمسئوليات العملية مثلما كان « كسينوفون » أو « بولوبيوس » . وأغلب الظن أن « هيروديان » Herodian كان فى سلك الخيمة المدنية . وكان « آبيان » Appian إما موظفاً مدنياً وإما عضواً بمجلس الأعيان المحلى بالإسكندرية ، والذى كان لا يزال يباشر فى عهده الإدارة المحلية . وكان « ماركوس الشماس » Marcus Diaconus من ذوى النظرة العملية (وفى بعض الأحيان كان يبدو شديداً التأثير للقاية) . أما « بريسكوس »^(٢) Priscus فقد كان محامياً ، وبالمثل كان « بروكوبيوس » و « أجاثياس » و « مينا ندر » الأعلام الثلاثة المرموقون الذين أنجبهم القرن السادس بعد المسيح . وكانت الهامة آخر مهنة

(١) يمكن تحديد هاتين الفترتين الأوليين من التاريخ الهليني تحديداً تقريباً هكذا :

من ١١٢٥ لى ٤٣١ ق . م ومن ٤٣١ لى ٣١ ق . م . على التوالى .

(٢) ومنه اقتبسنا فقرة فى كتابنا (الحضارة والمثل) س ١٣٠ - ١٣٦ .

حرة وقتت في وجه تفكك المجتمع الهليني . ومع أن « أجاثياس » كلن يشكو من أن هذا العمل لم يترك له فراغاً كثيراً لدراساته التاريخية ، فإننا لا نأسف عليه كثيراً ونحن نتأمل كيف أفاد خليفته « سيموكتا » من وقت فراغه البدد .

بعد هذا العرض الموجز للمؤرخين الهلنيين، والعالم الذي عاشوا فيه ، يجدر بنا أن ننحتم الحديث بكلمة عن مناهج الترجمة. ففي رأى الترجمة الحالي^(٢)، أن الخطأ الجسيم الذي لا يمكن علاجه ، ويجدر بالعقل الغربي الحديث بأن يتجنبه ، هو أن يسمح لنفسه ، عند تناول أى فرع من فروع الأدب الهليني ، بأن تسيطر عليه فكرة بأن هذا كله إنما قد تم حدوثه وتدوينه والإحساس به إبان ألفين أو ثلاثة آلاف سنة خلت ، وكأنما قد دخل في ذمة القدم التاريخي ، ومن ثم يكون ، والأمركذا ، ساذجاً ضلل التجربة. والحقيقة التي تقوم بيننا وبين أسلافنا الغربيين ثلاثة أو ستة أو إثني عشر قرناً خلت في صورة واعية ، إنما تكاد لا تحتمل قياساً بملاحظاتنا مع عناصر الحضارات الأخرى ، حتى ولو كان تاريخ حياة تلك الحضارات سابقاً على حضارتنا من الناحية الزمنية . وعلى الرغم من مثل هذه الأسبقية الزمنية ، قد ينطوى الماضي البعيد في الحضارات الأجنبية على ملامح قد تكون من الناحية الذاتية أقرب إلى حياة عصرنا من تلك التي يشتمل عليها الماضي القريب الذي انبثقت منه حياتنا . وبعبارة أخرى فإن الأسبقية الزمنية والتبعية الزمنية لها دلالة ذاتية ضئيلة أو ليست لها دلالة في غير محيط حضارة واحدة معينة ، بينما ، عند مضاهاة حضارات متباينة ، فإن العلاقة الزمنية المباشرة بينها عامل لعلاقة له بالموضوع في معظم الأحيان ، ومن ثم فعادة ما يكون عاملاً مضللاً . أما في المعنى الفلسفي ، فإن الحضارات كانت ومازالت وسوف تظل متعاصرة الواحدة مع الأخرى . فهي جميعاً بنت الأسرة ذاتها ، وفي الجيل ذاته ، والفروق في الأعمار بينها فروق تتناهى في الصغر إذا ما قورنت بالمهد الطويل الذي عاشت خلاله الأسرة الإنسانية التي وجدت قبل مولد أية حضارة . وعلى هذا ،

ففي محاولة الوصول إلى معادلة بين حضارتين مستقلتين (وهذا ما يعنيه في النهاية النقل من اليونانية النابرة إلى الإنجليزية الحديثة) قد يكون من المران المفيد للخيال أن نحدد بطريقة تقريبية ومتعارف عليها إلى حد ما ، نقطة بداية كل منها ، ونقيس الفترة الزمنية فيما بينها ، ثم نطرح مقدار هذه الفترة حتى يتسنى معرفة القرن في الحضارة المبكرة زمنياً ، والقرن المين الذي يقابله في الحضارة المتأخرة حسب وجهة النظر هذه . فمثلاً ، إذا أخذنا عام ١١٢٥ ق . م على أنه العام المتعارف عليه للهيلينية ، والذي أخذت فيه الحضارة الهلينية تنبثق من بين حطام العالم المينوى وأخذنا عام ٦٧٥م باعتباره العام المتفق عليه لنوع مماثل بالنسبة للغرب ، والذي أخذت فيه الحضارة الغربية تنبثق من بين بقايا الهلينية (في امتدادها الروماني) فسوف تقدر الفترة الزمنية بين التاريخ الهليني والتاريخ الغربي بحوالى ١٨٠٠ عام ، وهي فترة يلزم دائماً طرحها جانباً ، حتى يتيسر الوقوف على المقابلة في أية مرحلة بعينها ، على نحو ما يتم القياس من نقطة البدء لكل واحدة منها . ولعل من نافلة القول أن تقرر أن هذا المنهج لا يقصد به أن يكون مبدأ تاريخياً جامداً ، وإنما هو مجرد فرض للوصول إلى أسلوب دراسة مقارنة . وبالإستعانة بأداة القياس الافتراضية هذه ، يمكن لنا التحقق من أية أجيال هيلينية وأية أجيال غربية ، كأن الواحد منها يقابل الآخر ، بمعنى أنهما كانا منفصلين من نقطة بدء كل منهما بفترة زمنية متساوية ، ومن ثم يكون كل منهما قد طوى بين جنبيه قدراً متساوياً من التجربة التقليدية أو التراث الاجتماعي في شتى ميادين الاقتصاد والسياسة والأدب والفن والدين وما إليها (رغم أنه ليس من الضروري أن يكون القدر متساوياً في الكيف) وبهذه المصا السحرية في أيدينا ، يمكن لنا أن نلهي أنفسنا بنقل « بلوتارخ » نفسه (مثلاً) ، لا مجرد كتاباته وحدها ، من العالم الهليني إلى عالمنا ، فإذا ما فعلنا ذلك ، بدا وكأن « بلوتارخ » قد ولد في عام ١٨٤٦ وقد له أن يموت في عام ١٩٢٥ وذلك على اعتبار أنه آخر وأعظم من بقى من العصر الفيكتوري ! وإذا كان ثمة دلالة لهذا كله ، فإننا لا نأمل أن تقدر « بلوتارخ » طيلة مشابرتنا على قراءته في ترجمة (لانجهورن) Langhorne أو أن نميد ترجمته على نحو يطيب

لنا ، مادما نخرج ترجمتنا الحديثة بالمحسنة الإنشائية ، حتى نكون قد بلغنا إلى تركيب صنف من الترجمة يفاير في مقوماته كل قطعة من الأدب الحى فى عهدنا أو فى غيره من العهود. ونحن لا يتسنى لنا ، من باب أولى ، أن ندافع عن مثل هذا التقادم الزائف فى حالة مؤلفين ، إذا تصورنا أن نفقلمهم بأشخاصهم إلى عالمنا نحن ، فلما أن يسكونوا لم يولدوا بعد وقت ذلك ، وإما أنهم مازالوا فى المراحل الأولى من طفولتهم . فمثلاً ، قد يكون « ماركوس أوريليوس » *Marcus Aurelius* لا يزال فى الرابعة من العمر ويتطلع إلى البقاء حتى عام ١٩٨٠ . سلم الله أطفالنا الذين ولدوا فى العالم الغربى هذا عام ١٩٢١ من تقمة الآلهة حتى لا ينظروا إلى الحياة تلك النظرة القاتمة التى نظر بها « من يقابلهم » من الهيلينيين العظام .

ترى ما معنى هذه الموازنة المقترحة بالنسبة لترجمة الأدب ؟ قد يبدو لأول وهلة ، وكأنما ينبى لنا أن نترجم « ماركوس » و « بلوتارخ » إلى الأدب الإنجليزى (أو الفرنسى أو الألمانى أو الإيطالى أو أى أدب غربى خالص) الذى يكتب فى جيلنا ، ثم من سبقوهم طوراً بعد طور ، بالأسلوب الذى يقابلهم من ماضينا الأدبى - محافطين على الحقيقة ذاتها التى تمتد إلى ثمانية عشر قرناً تقريباً خلال هذه العملية . وأيا ما كان الأمر ، فما إن نحاول وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ ، حتى تمتضع العقبات . ففى المحل الأول ، نجد أن (موجات) التاريخ الغربى والهلبى غير متطابقة . ففى التاريخ الهلبى نجد أن الأدب قد وصل القمة (ولم يصل إلى مثلها بعد ذلك أبداً) خلال القرنين فيما بين أعوام ٥٢٥ و ٣٢٥ ق . م ، والتى تعاصر (حسب مشروع تياسنا الافتراضى) القرنين فيما بين ١٢٧٥ و ١٤٧٥ فى الغرب . وأيا ما كان الأمر ، فإن تلك الفترة ، فى حالة كحالتنا ، وإن بلغت أقل فى حياة إيطاليا الشمالية الوسطى ، فلها كانت بعيدة عن الذروة من تاريخ حياة سائر المجتمع .

وقد نهض الغرب برمته ، إلى درجات أعلى من التعبير الذاتى (أو على نحو ما عبر بركليس — أقام صروحاً لا تنفى تشهد على وجوده خيراً كان ذلك أو شراً)

لما بين حوالى ١٧٧٥ م إلى الحرب الأوروپية^(١) بينا فى الجانب المقابل ، نجد أن الفترة الماثلة من التاريخ الهليني وهى (٢٥ ق . م - ١١٤ م) تقع برمتها فى ظل الطور الأخير من الحياة الهلينية ، التى كان يحاول فيها العالم الذى يزرع تحت عبء أربعة قرون من الاضطرابات^(٢) ، يحاول أن يلم شعثه للمرة الأخيرة قبل الانحلال الذى لا مناص منه . ونحن الذين كنا لم نزل فى ريعان شبابنا عام ١٩٢٤ لانزعج أننا نمرف بعد ، ما إذا كان الغرب قد بدأ (فقط مجرد البدء) فى الانحدار إلى الدرك الأسفل *ad tartara leri* ، فى حين أن « بلوتارخ » فى شيخوخته قد تأكد حتماً ، فى قرلة نفسه (وإن لم يكن قد سلم به عقلاً) ، أن (هيلاس) *Heillas* قد حققت شوطاً بعيداً نحو الانحدار . ومن ثم فإننا ومن ورائنا عدد أكبر من مراحل التقدم ، وعدد آخر أقل من أطوار التأخر ، وهذا أكثر مما توافر لوعى « بلوتارخ » ، يتحتم علينا أن ننظر إلى الوداء ، إلى أسلافنا بأعين مناصرة . فالعالم الهليني الوسيط ، فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد لم يكن فى واقع الأمر على درجة من النضج والغلبة تفوق ما كان عليه العالم القرنى الوسيط فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر من عصرنا لحسب ، بل إنه لم يكن هناك مفر من أن يبالغ فى أشكاله النسبية عند جيل بلوتارخ قياساً إلى ما كان عليه أهله من تراخ ووجل . وإذا ما نظرنا بعقليتنا الحديثة ، ألفينا تقيض ذلك . فالقرنان الرابع عشر والخامس عشر (حتى إن نظرنا إليهما على أساس ما تجسم فى ممثلتهما الإيطاليين) يحملان طابع مازدرية نحن الآن ، على اعتبار أنه طابع (فج) بدائى على أحسن الفروض . وفيه عناصر ، بل عناصر كريمة ، من كل ما نحس به ونأسف لعدم وجوده لدينا ، بل لا نستطيع أن نأخذها برمتها مأخذ الجد أو أن نعامل أطفالهم ، وهم أسلافنا ، على أنهم رجال لهم مثل ما لنا من مستوى عقلى . ولا يمكننا حتى اصطناع مثل هذا بغير أن نعى ما لدينا من عدم سلامة الطوية . ويقابل هذا موقف « بلوتارخ »^(٣) و« ديونوسوس »

(١) الحرب العالمية الأولى

(٢) ١٣١ - ٣١ ق . م .

(٣) هذا ، على أية حال . سواء كان بلوتارخ أو لم يكن ، هو مؤلف (الحبث فى مؤلفات

إزاء « هيرودوت » و « ثوكوديدس » على التوالي . فهما ، من ناحية ، قد نظرا إلى أسلافهما الوسيطيين بشيء من التبجيل ، على اعتبار أنهم شراح لثقل منامية لم يمد من سبيل إلى بلوغها ، وثانياً ، فإن ما اتسم به كل مارد من هؤلاء المعلقة في مشهده الأوليبي من سحائب الجدد ، قد أعمى بصيرتهما وأغلق الأفق أمامها . « وعندما زل موسى من الجبل ، لم يكن يعرف أن بشرة وجهه تشرق وهو يتحدث إليهم . ولا رأى هارون وكل بني إسرائيل أن بشرة وجه موسى تشع ، خشوا أن يقتربوا منه » ترى هل خاف قوم موسى وأشاحوا عن النور الذي كان يدافع عنهم ؟ - إن « ديونوسيوس » و « بلوتارخ » كانا في الموقف ذاته ، غير قادرين كل القدرة على أن يخفيا الكراهية والتقوط إزاء (الشعلة التألق) في هيرودوت أو ثوكوديدس ، أما وقد كرسا جهودهما ، شأهما في ذلك شأن معاصريهما ، بنية رعاية شيخوخة هيلاس ، وإزالة التجاعيد من فوق جبينها ، وتهذئة روعها وإبعاد الهذيان عنها وتوجيه أفكارها (عندما كانت الأفكار الحيوية لا تزال تداعب عقلها) بعيداً عن المستقبل الخيف ، نحو ماض ذهبي أو شبه ذهبي ، فلهما لم يمودا بقويان على مواجهة الأقوياء المسلحين الذين أحبوا هيلاس ومرحوا معها ورأوها كما هي وعرفوا خيرها وشرها ، وهي إنسانية في كل الحالين ، في السنوات التي لا سبيل إلى إعادتها حينما كانت هيلاس وأبناؤها في ريمان الشباب . كلا . . . إن الهليين أبناء الإمبراطورية لم يستطيعوا مواجهة أبناء السنوات الخمسين^(١) من قومهم ، بما لهم من تطلع ذهبي لا يخشى منه وموهبة غريزية لا تتطلب جهداً في تفرس الحقيقة على الوجوه ، ووعينهم بالقوة الخارقة التي منحتهم قلباً يسخر ويمزج في الوقت المناسب ، وهذا ما يثير الشجن على كل ما سار إلى القدم . إن الارتباك يلو الوجوه عندما تجسر على النظر إلى أعماطها التابعة على الوجه .

وهذا يعني أن تقل كل طور من أطوار الفكر الهليني وأسلوبه إلى

(١) فيا بين الحرب القارسية الكبرى ونشوب الحرب البليونيزية (٤٨٠ -

٤٣١ ق م)

ما يماثله من طور غربي متكافئ، إنما يشكل استحالة تاريخية، حتى بالنسبة للدارس الذي حبه الطبيعة درجة أعلى من القوق اللغوى دونه ذوق الترجم الحال . كذلك فإن هذا لا يعنى ، حتى إذا ما استطعنا أن نبليغ المستحيل ، أن قيد من النتيجة تلقائياً ، لأنه بقدر ما نكون قد نجحنا في نقل ماضى الأدب الهليني إلى ماضى أدبنا ، بقدر ما نبتعد به بشكل مبتذل عن نطاق رؤيتنا الحديثة . إن تراثنا الأدبى الغربى ، فى حقيقة الأمر ، هو مجال الأدب الوحيد الذى لا سبيل إلى ترجمته بالأسلوب الغربى هذه الأيام . فى الوقت الذى نحاول فيه أن نستحدث عملاً أدبياً فنياً إنجليزياً من أعمال القرن السادس عشر أو السابع عشر ، فى نفس هذا الوقت يتلاشى سحر الإحساس والترابط وأكثر عناصر الجمال بفعل ساحر،^(١) بينما ، فى الناحية الأخرى ، أى حينما نحاول أن نترك خيالنا للأصل غير المدنس ، فإننا غالباً ما ندرك افتقارنا إلى بعض عناصر الجوهر الأخرى . وإن أخص خصائص العصر (الإليزابيثى) - كالألوان على الزجاج الرومانى - لتنتشر علينا غيمة غموض بين عقولنا والعقول التى أوجدت الحق الأسيل والجمال ، والتى قد وجدت هى بدورها من أجلها أيضاً . لقد وجدت هذه فى حاضر حى وأوجدتها أناس أحياء ولم تتطرق إليها وقت خلقها مسحة من قدم ؛ ومن هنا أصبح من المستحيل تماماً أن يتم تجاوب روحى بيننا وبينهم . ومن هنا أيضاً بدا واضحاً أنه من الخطأ كل الخطأ من وجهة النظر العملية ، أن ننقل ، حتى ولو كان ذلك متيسراً ، أثر حضارات أخرى فى صورة تستمضى على مداركنا ، بينما هى أيضاً خطأ محض من الناحية النظرية . وبعد ذلك كله ، هل يعتبر أى تاج للأدب الهليني نجاً أو بدائياً أو ساذجاً أو عتيقاً إذا ما نظر إليه كما هو دون ما تعديل أو تحريف ، وكما خرج إلى حيز الوجود منذ عدة مئات من السنين ؟ إن الفكرة البهمة بين القراء

(٢) هنا واضح بالطبع فى حالة ترجمتنا الغربية المحلية للإنجيل؛ التى هى بمثابة أسس الأدب الحديث بين الطوائف البروتستانتية. وبينما كنت أترجم ثلاث مقطوعات من العهد الجديد، كقائمة لهذا الكتاب والكتاب للمصاحب له عن الأصل اليونانى ، ووقت الترجمة الإنجليزية المعتمدة حائلاً بين وبين النصوص التى أمامى وكان أن انصرفت قاطعاً من مهمتى .

التريين الحديثين ، عن « هيرودوت » من أنه (أبو التاريخ) الساذج ، كان من شأنها أن تملأ « ديونوسوس » أو « بلودتارخ » دهشة . إذ أن لقب الشرف التقليدي هذا ، من شأنه أن يكون في حد ذاته تحذيراً كافياً في وجه كل من يعتقد بهذا الفهم ، وهو اللقب الذي اقترن عادة بهيرودوت فيما بيننا ، لأن الإبداع والخلق إنما هما من صنع عقول عارفة دقيقة لا من فعل عقول بسيطة ، وإن معرفة هيرودوت ودقته قد تمجلتا عاريتين ، ولا بد أنهما أذهلتا كثيرين من قراء الغرب المصريين ، كما أذهلتا جمهور الهلنيين في عصر الإمبراطورية . كذلك لم تكن السذاجة من خصائص نقاج « هوميروس » ^(١) . وشعر « هسيود » Hesiod في الواقع ؛ هو الجزء الوحيد من سائر الأدب الهليني الترجمة في هذا الجلد ، التي يمكن أن يوصف بحق وبشكل عام ، بأنه بدائي ، والفترة التي اختيرت من ملحمة (الأعمال والأيام) تبين أنه حتى هذا التعميم لا يخلو من استثناء ، إذا كان ولا بد أن يكون هناك رصيد محترم من التجربة الاجتماعية ، في عقل يمكن أن يحس بشكل مرهف مدى فظاعة الانحلال ^(٢) .

(١) لأن روح هومر المضلة (والتي تجلت في تناوله للأرباب بشكل لاذع) ليست الآن عمودة السيرة ، إلا أنها بالطبع ليست ظاهرة ملبية على إطلاقها . وإن الدراسات للقارنة لنوع أدب الملحم ، في سبيل اكتشاف تلك مؤخر ، أبعد من أن تكون (بدائية) ، إذ أن الملاحم في كل العصور والأماكن هي النتاج المرموق لمجتمع مثقف ويتغلغل سداها تدريجياً في العالم الفعلي الحقيقي للفولكلور (انظر Chadwick's Heroic Age, Murray's)

Rise of the Greek Epic

(٢) لأن الأدب الهليني الوسيط في ثقافته واتجاهه العقل والتأمل يبدى تشابهاً أكثر وضوحاً للأدب الإسكندنافي الرثي في الترب الوسيط أكثر من الأدب المسيحي الغربي المعاصر له . فهل ثمة سبب لهذا ؟ يرى البرونسور و. ب. كير W. P. Ker في كتابه (Epic and Romance) أن الإسكندنافيين أقادوا من عدم انشغالهم وبلبثهم من جانب تراث الماضي السرياني والهليني ، الذي سطر على مسجحة القرون الوسطى . وأوضح كيف أن الإسكندنافيين الباقرة أصبحوا مشاغلين منذ أن أسأبتهم عدوى الرومانية المسيحية الغربية واللاموت المسيحي الغربي . وإذا ما افترضنا أن هذه المسوى لم تحدث ، فليس ثمة معرفة لما هي الدرجة التي لم يستطع الأديب الإسكندنافي أن يبلتها في تطور مستقل ، وقد استمتع الهلينيون بمثل هذا التطور غير القيد على وجه التحديد لأن الهلنيين (على عكس النيبوتون) لم يتركوا أي بقايا من الحضارة النوبرية السابقة لتقطع طريقهم الناس نحو النور ولديا كيه .

لهذه الأسباب المتعددة ، فإن أسلوب الترجمة الذى انتهجناه هنا ، من شأنه أن يكسو كل مقتطف من كل مؤلف من كل عصر ومن كل طابع بعض لباس من الإنجليزية التى نكتب بها فى هذا النصف الأول من القرن العشرين بعد المسيح . وقد تركز جهد المترجم الرئيسى فى ألا يحمل القارئ يحس لأول وهلة أنه أمام شيء مترجم ، أى أمام شيء غير أصيل قد طرقته الأيدى من قبل . وهذا كما أعلم تماماً ، مثال سلبى ، وأن وصايا النهى لها مضارها المروفة . ويتمثل الخطر فى هذه الحالة بأن تكون النتيجة حديثاً دارجاً ركيكاً مما قد يضحي معه بالجمال والخلود فى غضون الجهد البذول لاستعادة واقعية الحياة . ترى هل من سبيل إلى التوفيق بين الجمال والخلود ! أو هل العلاقة بينهما موضع مساومة دأمة ؟ ولكن هذا السؤال ينأى بنا بعيداً عن مجالنا . . .

إنه ينهني لنا فقط أن نغمس بعض نقاط فى التفصيل . وبإحدى ذى بدء ، نجد اللغة اليونانية القديمة من ناحية ومجموعة لغاتنا الغربية المحلية الحديثة من ناحية أخرى ، إنما هى لغات ذات طبيعة مختلفة بشكل واضح . فالأسلوب فى اللغة اليونانية بسيط والنحو معقد . بينما الأسلوب فى لغاتنا معقد نسبياً والنحو بسيط . وما عليك إلا أن تنقل أى قطعة من اليونانية إلى أى لغة حديثة فى أسلوبها الجرد الأسيل ، حتى تجد أنك نقلت شيئاً لا هو بالإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى أو الإيطالى . فى أدبنا الغربى ، كما هو الحال فى غيره من صور التعبير الدأى عندنا ، يوجد دائماً على وجه التقريب شيء ملتبس ومعقد - لمسة من مزارب من شأنها أن تغير الاشتىراز فى قصص الملينى بشكل خطير ، غير أنه لا سبيل إلى حذفها من أى كتابة غربية دون أن نصيب الطبيعة^(١) بهزة عنيفة . ومن هنا ظالماً ما تكون الترجمة معقدة جداً حيث هى بسيطة فى مواضعها الأصلية . وعكس ذلك (وهذا عمل دراسة كلاسيكية) ، وبالطبع فن الاستحيل تماماً ، أن نعيد إنتاجاً أدبياً فى أى من

(١) هذا النصير يمكن أن ندركه بالثل فى الكوميديا الإلهية . وهاملت وفالستوبالوساء بمقارنتها بأعظم أعمال الفن الهلنى .

ثاناً ، ولا سيما في الإنجليزية ، بالبناء النحوي المقدم الذي تتميز به اللغة الإغريقية^(١) بدرجة عالية من التركيب والتأليف . إذ أن انكسار سياق الجملة دون انكسار سلسلة التفكير الذي تنطوي عليه إنما هو أمر مألوف وإن كان مشكلة خلافة على النوم ، وفي المحاولة المستمرة لحلها فإن المترجم قد أفاد من السهولة التكتيكية التي تتوافر في كتاب مطبوع بين دفتيه صفحات يقدمها على اعتبار أنها مخطوط مكتوب في مجلد . ومن المهم ، في الملف المخطوط أو « المجلد » بالمعنى الحرفي والأصيل للكلمة) أن تجنب أى انقطاع في التسلسل . ففي هذه الحالة ، ليست هنا صفحة تقدم عليها مساحة كافية للملاحظات ، وليست هناك صفحات أخيرة توضعها الحواشي . وإذا ما رُفست الملاحظات والحواشي من المتن ووضعها آخر المجلد ، ضاع وقت القارئ وقد صبره في قلب مضمّن ، وسوف تطمس الكتابة ذاتها على الملف ، وفضلاً عن ذلك فإن من يقوم بالنسخ مرة ثانية قد تسقط منه هذه الحواشي سهواً ، وهكذا ، سوف يضيع في النهاية جهد كل إنسان . وعلى هذا فننستحب ، في أى عمل يتعلق بالأدب الهليني ، أن تضم الملاحظات والحواشي إلى النص نفسه عن طريق الأقواس ، ومن حسن حظ المؤلفين الهلنيين ، أن التعقيد النحوي في اللغة اليونانية القديمة قد أعطاهم هذه الفرصة التي ليس في وسعنا تهيتها . وأياً كان الأمر ، فإن الجهد ، حتى في اللغة اليونانية ، غالباً ما كان عملاً من أعمال البطولة ، وشيئاً فشيئاً ، فإن المترجم لا يجد أنه قد أراح مهارته الثقيلة فحسب ، بل سيجد أن فكرة الأصل المتختم كذلك ، قد استراح بشكل لا مثيل له بفضل استخدام مشروعتنا الحديث^(٢) .

وكان على المترجم أن يواجه مشكلة أخرى في تحديد موقعه إزاء بعض الكلمات والأسماء الدقيقة المعينة ، فثلا هل له أن يبقى على الكلمات الإغريقية (هيلاس)

(١) حاول ذوو الطبيعة الغربية هنا في الماضي ، تحت التأثير المباشر لصور الأحياء ، ولكن لم يقدر أسلوب Lyly ولا أسلوب بلتن أن يكون المؤثر التشكيلي في الشعر الإنجليزي .

(٢) تتميز ملاحظات المؤلف والمترجم الواحدة من الأخرى بشكل دقيق .

و (الهيلينيين) أم يغيرها إلى (اليونان) و (اليونانيين) ؟ وبعد كثير من التبصر رفض اختيار بديل لأكثر الأسماء شيوعاً ، لأن البديل في الإنجليزية الحديثة له معان مزدوجة . ومبدئياً ، فإن الناس يفترضون أن (هيلاس) دولة قائمة ، وأنها أمة قائمة أكثر من أنها عالم قد اندثر ، والأخذ بالافتراض الأقوى قد يكون له أثر يشوه ذلك العالم المندثر . إذ أن (هيلاس) القديعة لم تكن دولة وإنما كانت عالماً يشتمل على مئات من (الدول) لم تكف عن الحرب فيما بينها حتى الطور الأخير من تاريخها ، ولم يكن آل (هليفيون) القداى أمة وإنما كانوا مجتمعاً من أمم يتكلم بمضما بلغات وطنية — غير إغريقية . ومن ثم فقد تركنا كلمات (هيلاس) و (هليتي) كما هي ، وينبغي أن ننطقها ومعها كل (وأكثر من كل) ما تحمل من ارتباطات عاطفية وتصورية ترادف عندنا لفظي (أوروبا) و (الأوروبيين) ^(١) . ومن جهة أخرى فإن اسم اللغة قد ترجمناه إلى (اليونانية) ما دامت كلمة (هلينية) من شأنها أن تبعث على الحيرة في هذا الصدد ، بينما ينبغي أن ينقذنا من الخلط وضع غربي مشابه . فكما يتكلم (الأوروبيون) ويكتبون بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ... هكذا ، ولم يحل هذا بينهم وبين أن يكونوا أعضاء كغيرهم في الانتماء للحضارة واحدة ، قد تكلمت غالبية الهيلينيين وكعبت دائماً باليونانية ، بينما جاء هيلينيون آخرون عبر الزمن ، يحملون الاسم من

(١) لأنها لمسألة غريبة أن يكون الاسم الذي أخذ قدسية الأموات غير دقيق من الناحية العلمية على أي وجه من الوجوه . ففي شرق القارة الأوروبية وجنوبها الشرق ، هناك أناس كثيرون مازالوا يبيدين أو اعتدوا مؤخراً فقط إلى الحضارة (الأوروبية) . بينما على القيقس في الحديث عن الحضارة (الأوروبية) فإننا لا نذهب إلى أن نخرج من حوزتها الشعوب في أمريكا والتي يرجع أصلها إلى غرب أوروبا . ومع أن اصلاحات (الترب) و (الغرين) أكثر دقة ، إلا أنها ليست شائعة . وبالمثل . هناك شعوب ناسقة باليونانية في الأجزاء الشمالية الغربية من الأراضي اليونانية التي أشار إليها ثوكوديديس على (أنها غير هلينية) . بينما كانت في وقته شعوب لاتكلم باليونانية ، كشعوب ليكيا Lycia وكاريا Caria وآروريا Etruria وحتى لاتيوم Latium وقرطاجنة Carthage كانت تطلب بأن ينظر إليها على أنها أعضاء في المجتمع الهلني أكثر من اليورتانيين Eurytanes والتسبروتين Thesproti أو الحايونيين Chaones .

الناحية الروحية إلا أنهم عبروا عن تراثهم الهليني باللغات الإروسكانية واللاتينية والليدية والفريجية واللوقانية أو الآرامية .

وثمة مشكلة ختامية حول الكلمة اليونانية (البرابرة) . . . هل ينبغي أن نتركها كما هي أم نجد مرادفا لها ؟ وهنا اختار المترجم المرادف الثاني ، لأنه (كما يبدو) لا نكاد الكلمة الأصلية تشتمل على المعنى الفرعى فى اليونانية ، كما هو موجود فى الكلمة المستعارة فى الإنجليزية . ومعناها فى اليونانية واسع ومتباين جداً . وحينما تكون الفكرة الجدرية سلبية ، فإن الترجمة الصحيحة هى بالتأكيد (غير الهلنيين) أو (اللاهلينيين) . وأما كان الأمر ، فالكلمة غالباً ما تشير إلى عناصر من حضارات مناقسة أوسامية ، بينما قد يؤدى استخدام الكلمة (برابرة) فى الإنجليزية إلى خطأ كللى إذا ما استبدلت بكلمة (الشرقيين) . وأخيراً ، ثمة حالات قليلة ، يبدو فيها أن كلمة (أناس قليلين) هى البديل الطبيعى ، ولكنها حالات نادرة . (١) .

ولفظه أخرى وهى (بوليس) Polis ، نادراً ما ترجمت إلى (مدينة) لأن تلك الكلمة إنما توحى إلى عقولنا بضخامة مجتمع مدنى على نطاق غير معروف للعالم الهليني فيما عدا بعض بقاع قليلة خلال فترة قصيرة نسبياً من تاريخه (٢) ، بينما لا توحى بالتأكيد بمعنى الدولة ذات السيادة . فإذا عدنا إلى المقارنة ، نجد أنه بينما تكون (بوليس) الهلينية دون البلدة الإنجليزية فى مستواها المادى ، فإنها تتمتع بحياة سياسية وشخصية متميزة على مستوى يختلف تماماً عن المجلس العظيم وهو

(١) ثمة أهمية تاريخية للحقيقة القائلة بأن الهلنيين استخدموا كلمة بذاتها لتعبر عن هذا النوع فى المعانى ، لأنها تكشف عن تشريحهم الذاتى وميلهم إلى إنكار ما أنجزته المجتمعات الأخرى . وقد كان هذا ضيقاً خطيراً يمزى بشكل كبير إلى انتصار سوريا الهلنستية ، فى النزاع الطويل المؤلم الذى شقته الحضارتان فى المجالات المختلفة ؛ فى الحرب والسياسة والاقتصاد والدين .

(٢) قد يصغر المراقبون الهلينيون أمام التجمعات الحضارية التى لها نطق غريب ؛ إلا أن هذا النحو والذى عندنا أكبر من حدود الهلنيين (فى زمنها للتجبر) فى مأوى الحضارتين للصربية والعراقية .

أعلى تنظيم سياسى لمدينة غربية ضخمة . وكانت (بوليس) من الناحية القانونية (دولة) ومن الناحية الفعلية (بلداً) بينما كان شعبها بشكل (أمة) سواء خرج في ألفدجل قوى أو في عدد أكبر أو أقل لتلتحم سيوفهم بسيوف جيوش بلد أصغر في التركيب وأقل درجة في الوعي الذاتى ، سواء أكانت في نظرم أقل أم ضخمة سياسياً مثل الإمبراطورية الفارسية . وقد استخدمت بالتالى كافة هذه الكلمات الإنجليزية حسباً تتفق والمناسبات ، بينما في الحالات الأقل تكراراً ، والتي يعنى فيها النص اليونانى بأن يستخدم كلمة (بوليس) بالمعنى الطبوغرافى والمادى ، فهى تترجم دائماً بـ (البلدة) .

وفي الوقت الذى تتردد فيه كلمات (يكتب) و (كاتب) و (يقرأ) و (قارى) فعلى القارى* الإنجليزي الاينسى أن ما يقوم مقامها عادة في اليونانية كانت كلمات (سرد) و (مؤلف) و (يسمع) و (سامع) . لأن النقل الشفهي كان هو الوسيلة الطبيعية لإيصال محتويات العمل الأدبى في مجتمع كانت فيه عملية إعادة نسخ المؤلفات أكثر بطئاً وأكثر تكلفة مما هى عليه الآن نسبياً في التريب عند بداية الطباعة الحديثة . ومنذ أيام هيرودوت حتى سيموكتا ، كانت التلاوة العلنية أمام مستمعين يختارهم المؤلف ذاته هى الأسلوب المألوف للنشر . ثم يأتى بعد ذلك لفظ (اللوجوس) Logos - (الكلمة) في أحد معانيها الكثيرة التى تشتمل عليها الكلمة المنطوقة . ويمكن ترجمتها بـ (رواية)^(١) أو (عمل) أو (كتابة) ، بحيث إن الحديث الذى تلقيه بثمة دبلوماسية يمكن أن يوصف بأنه (مذكرة شفوية) وأن « علم البيان » وهو من له مكان قليل في حياتنا - يمكن أن يقال عنه في بعض المناسبات (الفن الصحفى) . وأخيراً سوف يلاحظ القارى* أن الأسماء اليونانية ، سواء في ذلك أسماء الأشخاص أو الأماكن ، قد نقلناها في النص الإنجليزي بشكلها اللاتينى المعروف^(٢) . وقد قننا بهذا الهدف السلي البصت لإعفاء القارى* من سلسلة

(١) وهى كلمة تتضمن في ذاتها معنى النقل الشفهي في الأصل اللاتينى .

(٢) لأننى لم أعاد في إخفاء الأرباب الهيلينيين تحت أسماء الآلهة اللاتينية القديمة والتي كانت تطلق عليها ؟ وفي حالة السير الشائعة أو المشهورة فيما بيننا ، استخدمت الاسم الذى نطلقه نحن الآن ، (على سبيل المثال) الودريل - بدلا من (هيليسبونت Hellespont) .

متصلة من الصدمات البصرية الخفيفة التي من شأنها أن تصرف ذهنه بلا مبرر عن الفكر واللغة. وذلك بجمل القارى متيقظاً تماماً للهجاء فقط. وإن نظرت واحدة إلى قواعد الهجاء التي استخدمها « براوننج » Balaustion's Adventures Browning أو ترجمته ل (ثلاثية أيسخولوس) Trilgy of Aeschylus ، من شأنها أن توضح الأثر البصرى الذى سعى المترجم الحالى إلى تجنبه . إن قواعد الهجاء اللاتينية مألوفة لأبصارنا لأننا نستخدمها فى نقل الكلمات المركبة المستمارة أو المأخوذة حديثاً عن اليونانية فى كلماتنا العلمية النامية باستمرار . وعلى هذا فإن كلمات بهذه الحروف لاتستقيم مع الصفحة وتعود سياق الفقرة وتحرف أبصارنا وهى تنتقل بين السطور . وربما كان هذا تضحية بالدقة فى سبيل الابتعاد عن مادة ليست جوهريه ، ولكن علينا أن نكتشف أكثر مما هو معروف بخصوص نطق اليونانية القديمة قبل أن تتمكن من صيانة قواعد الهجاء اليونانية بشكل جاد ، وهى ماثونة لها قيمتها إزاء إعادة بناء الكلمة المنطوقة ، كما خرجت فى بداية الأمر من فم المؤلف لتقع على آذان معاصريه .

وأيأ كان الأمر ، فهذه أمور ليست بذات بال ، ولا يتوقف عليها نجاح هذا الكتاب أو فشله . وسوف ينجح الكتاب أو يفشل بسبب وجهة النظر التاريخية التى يقوم عليها ، وليس بسبب بعض الإيضاحات التى قدمت حالياً فى هذه المقدمة . والافتراض الرئيسى هو أنه فى السار المتتالى أو الذى يحدث فى وقت واحد من جانب المحاضرات المختلفة المعروفة — المحاضرات المصرية والعراقية والمينوية والهندية والشرق الأقصى ، والهلينية والسورية — الإيرانية ، والبيزنطية والغربية والشرق الأوسط — تكشف لنا الرؤية التاريخية عن تكرار مستمر عميق وعن دلالة عميقة للتجربة الإنسانية على نطاق بطولى . وعندما نصوغ هذه المسألة فى كلمات ، فإن هذا الافتراض قد يمر عن ظهور مبدأ مهيب بمض الشئ ، إلا أنه بلا ريب كان دائماً مبدأ كل عالم كلاسيكى . ولو لم نكن مقتنعين بأن الوعى الهليني ، حتى فى صور التعبيرات المتناثرة التى وصلتنا ، ولو فى دخيلة نفوسنا ، ملء بالحياة وزاخر

بالتجربة ، أو ببساطة أخرى على درجة من (المصرية) ، مثلنا تماماً ، لو لم نكون مقتنعين بهذا ، لما كان ينبغي أن نتجنب نحوه غير قادرين على المقاومة كما أنجذبنا إليه ، وما كان لنا أن ندعه يصيب من عملنا العقلي هذا القدر الذي أوليناه ، والذي كان حتى ذلك الحين مستحيلاً ، وهو مشاركة معاصرينا الهلنيين في الأفكار والمثاعر . وأيا كان الأمر ، فإن قراءة هذا الكتاب ، هم على الأرجح ، أناس يتكلمون الإنجليزية ، وتلقنوا دراسات أخرى غير كلاسيكية ، وعلى هذا فليس لديهم هذه الخبرة الشخصية النشطة ، التي تجعلهم يحددون ، منذ الطفولة ، ماذا تعني الدراسات الكلاسيكية في أصلها للعقل الغربي الحديث . إن الانطباع الذي يحدث عند مثل هؤلاء القراء سوف يكون تجربة أصدق من فشل الكتاب أو نجاحه ، ويعرف كل مؤرخ أن النجاح في مساهمة الإنسان السامع إنما تمنحه له معجزة فقط .

«وكانت عليّ يد الرب فأخرجني روح الرب وأترلني في وسط البقعة وهي ملائكة عظاماً . وأمرني عليها من حولها وإذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة وإذا هي يابسة جداً . فقال لي يا ابن آدم أحمي هذه العظام . (فقلت يا سيد الرب أنت تعلم .) فقال لي : (تنبأ على هذه العظام وقل لها . أيتها العظام اليابسة اسمي كلمة الرب . هكذا قال السيد الرب لهذه العظام . ها أنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون وأضع عليكم عصباً وألبسكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتسلمون أنى أنا الرب . »

فتنبأت كما أمرت وبينما أنا أنبأ كلن صوت وإذا عرش فتقاربت العظام كل عظمة إلى عظمة ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح . فقال لي : (تنبأ للروح تنبأ يا ابن آدم وقل للروح هكذا قال السيد الرب هلم ياروح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا .) فتنبأت كما أمرني فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جداً جداً .

أرنولد توينبي - لندن

مقدمة الطبعة الإنجليزية الثانية

يعتبر التفكير بالنسبة للإنسان نشاطاً شاقاً وبعيداً عن النهج الطبيعي . وهو في هذا كالسير على قدمين بالنسبة للقروء ، ونادراً ما نسرف فيه أكثر مما نحن في حاجة إليه ؛ ويتعاطف عدم ميلنا إلى التفكير بصفة عامة في الأوقات التي نحس فيها بأكبر قدر من الراحة . وإذا كان هذا الإعراض الإنساني عن العمل الفكري لا يظهر في الحياة العامة أقل من ظهوره في الشئون الخاصة ، فإن الجنس البشري لا يؤدي الكثير من تفكيره التاريخي في أزمنة يسيرة يسودها الرخاء . وفي مثل هذه الأوقات فإننا نتنع عادة بأن نعيش خلال التاريخ دون أن نتحقق من أننا نعصى في تياره ، بل وعلى الرغم من أن فترات الرخاء في شئون البشر غالباً ما كانت قصيرة في الماضي ، فإن هذه الفترات كانت طويلة بما يكفي أن تدخل في روع الناس أن التاريخ أمر لا يصادف هوى في النفس ولا سبيل له إلى اللحاق بمجملهم ، على حين أنهم يعلمون تمام العلم أن أناساً آخرين في أزمنة وأمكنة أخرى ، قد واجهوا في بعض الأحيان نكبات تاريخية .

وعندما يحين الوقت ليأتى علينا التاريخ بدورنا ، وهو أمر لابد من حدوثه إن آجلاً أو عاجلاً ، فإن تجاربنا غير المرغوب فيها ، تمحو بنا إلى التفكير ثانية في تاريخ الإنسان ومصيره ، وقد أخذت عقولنا في مجتمعتنا الغربية الحديث تعود إلى الوراء في هذا الاتجاه منذ عام ١٩١٤ ، غير أن الإنسان الغربي ، ابن القرن العشرين ، يملك أكبر ناحية مريحة في العصر الألفي السعيد من خلفه ، ليس معداً جيداً لمثل هذا العمل الفعلي الضروري وإن كان شاقاً . ونحن في تجربتنا الذاتية ، ليس وراءنا أكثر من ستة وثلاثين سنة من الخطيئة الصارخة والمناة تنير السبيل أمام مداركنا . ونحن وإن استطعنا أن نشغل هذه الحقبة الضئيلة من الزمن بهذا الحشد الضخم من التجارب المشار إليها ، إلا أن الفترة مازالت قصيرة

إلى حد لا يسمح لنا منه بأن نستعرض التاريخ الإنساني في ضوء ما كنا تفعل نحن
أنفسنا ونماني .

وهذا هو المجال الذي يمكن للفكر التاريخي عند الإغريق أن يساعدنا .
لأن فترة الحقبة في التاريخ الإغريقي والروماني ، التي تتألف فترة محنتنا ، لم تتم ستة
وثلاثين عاماً فقط ، وإنما دامت لأكثر من أحد عشر قرناً ، هذا إذا ما كان علينا
أن نؤرخ لانتهيار الحضارة الهلينية منذ أن شبت الحرب البلوبونيزية — الأثينية
في عام ٤٣١ ق . م ، وأن نرى تحللها النهائي في الطور الأخير من تفتت الإمبراطورية
الرومانية في القرن السابع من العصر المسيحي . ومن بداية هذه الحقيقة حتى نهايتها
فيما لا يقل عن أحد عشر قرناً ، كان مفكرو الإغريق يتأملون غموض الحياة
الإنسانية في ضوء خبرات الأنواع التي غدت مألوفاً لدينا أخيراً . وقد ترجمنا في
هذا المجلد ، مقطوعات خالصة من الأدب الإغريقي تشمل هذا النقاش الطويل ،
إيماناً منا بأن لها ، في هذه الآونة ، أهمية للقراء التربيين المعاصرين .

والخلاصة ، أن التجارب التاريخية التي اعتصرت هذه الأفكار من الروح
الإغريقية ، إنما تتأمل التجارب التي نجتازها نحن الآن . فهذه الأفكار الإغريقية
المنقولة هنا إلى الإنجليزية ، إنما هي تنعكس في العقول الإنسانية عن الحرب
العالمية والحروب الطبقية ، والمنازعات الثقافية داخل أما كن منقلبة بين أناس من
تراث اجتماعي متباين ، وفي نطاق التزال على البطولة ، وكافة النماذج النامضة
الأخرى ، نسجت كلها على نول من الخير والشر ، وذلك ينبه العقول البشرية إلى
تصارع المتناقضات في الطبيعة البشرية .

فلدينا في عام ١٩٥٠ ، بشكل كبير ، ما تعلمه من الفكر التاريخي عند
الإغريق أكثر مما تعلمنا في عام ١٩٢٤ .

الجزء الأول مقدمات

هيرودوت الهالكارناسى

(٤٩٥ - ٤٢٥ ق.م)

Herodotus of Halicarnassus

تاريخ الشرق والغرب

(نص أكسفورد ، تحقيق ك. هيوود C. Hude : الكتاب الأول .
الفصول ١ - ٥) .

فيما يلى ، يقدم هيرودوت الهالكارناسى نتائج أبحاثه ، وله هدفان : أحدهما
إتخاذ تاريخ الجنس البشرى من اللسيان ثم إثبات أن الأعمال الرائسة التى اضطلم
بها الهينيون والشرقيون سوف تتمتع بما هى أهل له من شهرة - خاصة تلك التى
أدت إلى صدام فيما بينهم .

ويلقى المؤرخون الفارسيون مسئولية هذا النزاع على عاتق الفينيقيين . واستناداً
إلى هذا الرأى ، فإن الفينيقيين ، الذين عاشوا على سواحل البحر الأحمر قبل أن
يهاجروا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، لم يكذبوا مستقر بهم المقام فى موطنهم
الحالى ، حتى قاموا برحلات بعيدة ، حملوا فيها سفنهم بالسلع المصرية والآشورية ،
وكان من بين الأسواق التى زاروها (أرجوس) Argos - التى كانت فى ذلك
الحين أعظم ولايات الإقليم الذى تطلق عليه الآن (هيلاس) . وعليه ، يزور
الفينيقيون (أرجوس) (وهكذا تسمى الرواية) حتى يأتوا على بضائعهم ، وفى
غضون خمسة أيام أو ستة من وصولهم ، كانوا قد باعوا كل مالىهم تقريباً ، إذ جاء
بعض النسوة إلى الشاطئ ومعهن ابنة الملك^(١) . فوقفن عند مؤخرة السفينة

(١) يرد اسمها فى كل من الروايتين الفارسية والهلينية على أنها (ليوبت أمانوس) .
المؤلف .

وانهمكن في الشراء ، خاصة شراء الطرف التي ألهمت خيالهن ، فهاج الفينيقيون واتقنوا عليهن . وكان أن أفلقت غالبية النساء وسييت « إيوا » وأخريات ، تطلعن الفينيقيون إلى ظهر السفينة قسراً ، وأبحروا بهن إلى مصر . هذه هي الرواية الفارسية عن كيفية مجيء « إيوا » إلى مصر (وهي تتعارض مع الرواية الهلينية) . ونظر الفرس إلى هذا الحادث على أنه بداية الأعمال الاستفزازية بين الفريقين . فقد أعقب هذا الاستفزاز ، في الرواية الفارسية ، غارة الهلنيين ^(١) على (صور) Tyre في فيليقيا ، حيث سبوا « يوروبا » Europa ابنة الملك . وقد نتج عن هذا وجود أحزاب يناصر كل حزب منها فريقاً بيمينه . ثم ما لبث أن حدث استفزاز جديد من جانب الهلنيين وذلك بأن بشوا بسفينة حربية إلى (أيا) Aia في (كولخس) Colchis على نهر (فاسس) Phasis ، دون أن يكتفوا بالعمل الذي ذهبوا من أجله ، بل سبوا « ميديا » Medea ابنة ملك البلاد . وبعث ملك السكولخيين برسول إلى (هيلاس) يترضى الهلنيين كي يردوا إليه ابنته . غير أن هؤلاء أجابوا بأنهم ليسوا على استعداد لأن يتقدموا بأية ترضية في حالة كهذه ، لأن الشرقيين لم يقدموا أية ترضية عن حادث خطف الأميرة الأرجينية (اليونانية) . وأيما كان الأمر ، فقد حدث بعد ذلك بجيلين أن أثارت هذه الحادثة نخوة الإسكندر ابن « بريام » Priam فزعم على أن يختطف زوجة له من (هيلاس) ، مطمئناً إلى أنه سوف لا يتقدم بأية ترضية ، ما دام الجانب الآخر قد رفض تقديم مثل هذه الترضية من قبل . وعلى هذا فقد خطف « هيلينا » Helen ، وقرر الهلينيون ، إذ ذاك أن يبادروا بإرسال مذكرة يطالبون فيها برد « هيلينا » وترضية عن الاعتداء . غير أن الفريق الآخر رد عليهم بأن آثار في وجوههم مسألة خطف « ميديا » وأوضح أن الهلنيين ، الذين يطالبون بترضية من الآخرين ، هم بأنفسهم الذين رفضوا تقديم ترضية لمثل هذه الحالة ، ورفضوا أن يعيدوا « ميديا » حينما طلب إليهم ذلك . وإلى هنا توقفت اعتداءات الخطف بين الفريقين . إلا أن الهلنيين

(١) ليس لديهم سجل بأسمائهم ، ولعلهم كانوا من كريت — المؤلف ١

قد جلبوا على أنفسهم بذلك مسئولية جسيمة حيناً بدأوا بنزول آسيا . ولم يكن الشرقيون قد قاموا بنزول أوروبا بعد . ويلقى المؤرخون الفارسيون على هذا يقولهم ، إنه بينما يعتبر سبي النساء جرعة ، إلا أنه من الحماقة الإصرار على الانتقام من أجله ، وأن المسلك الحكيم يقضى بأن ينقض النظر عن هذا العمل . إذ أنه من الواضح أن خطف النساء لم يكن ليتم ، لو لم تكن لدى النساء رغبة في ذلك . ويستطردون قائلين ، إننا ، معشر الآسيويين ، لم نتأثر باختطاف النساء ، في حين أن الهلنيين ، من أجل امرأة اسبرطية ، أعدوا أسطولا حربياً كبيراً ، وقاموا بنزول آسيا ، ودمروا دولة « بريام » . ويضيف المؤرخون الفرس . . . ومنذ ذلك الحين ونحن ننظر إلى العالم الهليني على أنه عالم معاد لنا^(١) .

وأخذاً بهذه الرواية عن تلك الوقائع فإن الفرس يردون خصومتهم الطويلة مع الهلنيين إلى سقوط (طروادة) Troy . والرواية الفارسية ، فيما يتعلق بمحادث « إيو » تعارضها الرواية الفينيقية ، التي تؤكد أن « إيو » لم تسب حيناً ذهبت معهم إلى مصر ، وإنما كانت قد أحبت قائد السفينة ، في أرجوس ، وعندما اكتشفت أنها حامل ، لم يكن في مقدورها أن تواجه والديها ، فأبحرت مع الفينيقيين بمحض اختيارها حتى تهرب من اقتضاح أمرها . ويكفي هذا القدر من روايات الفرس والفينيقيين . أما من جهتي فسوف لأزج بنفسى في هذا الخلاف بالتأييد أو بالرفض ، وحسبى أن أبدأ بتناول الشخصية التاريخية الأولى ، التي كانت حسب معلوماتي ، مسئولة عن العدوان ضد الهلنيين . وخلال روايتي سوف أولى البلدان الصغيرة اهتماماً شأنها في ذلك شأن البلدان الكبيرة ، لأن البلدان التي كانت كبيرة فيما مضى ، غالباً ما أصبحت صغيرة ، بينما تلك التي ازدهرت في عصرى كانت صغيرة من قبل . ولما كنت أدرك أن حظ الإنسان لا يدوم على حال ، فسوف لا أفرق بين هذين النوعين من البلدان .

(١) ينظر الفرس إلى قارة آسيا والأمم التي تغطيها من أملاكهم ، ولكمهم يعتبرون العالم الهليني غريباً عنهم — المؤلف .

(١) إنه كرويسس Croesus ملك ليديا (٥٦٠ — ٥٤٦ ق . م) .

ثوكوديديس الأثيني

Thucydides of Athens

(٤٦٠ - - ٣٩٥ ق م)

تاريخ الحرب البيلوبونيسية

(نص أ كسفورد ، تحقيق هـ . ستوارت - جونز H. Stuart-Jones
الكتاب الأول . الفصول ١ - ٢٣) .

كتب «ثوكوديديس» الأثيني تاريخ الحرب التي نشبت بين سكان البيلوبونيس والأثينيين . واستهل عمله هذا فور نشوب الحرب ، التي اعتقد أنها ستحجب في الأهمية كل حرب سبقتها . وحله على هذا الاعتقاد أن كلاً من الطرفين المتحاربين ، عندما بدأ بالعدوان ، كان قد أعد للحرب ما استطاع من قوة في كل سلاح ، وأن الشعوب الهيلينية قد اشتركت جميعها في هذه الحرب ، فأنحازت إلى هذا الطرف أو ذاك ، وسارع بعضها إلى هذا الانحياز ، وعقد البعض الآخر العزم على أن يحذو حذوهم . وكافت هذه الحرب ، بالفعل ، أكبر انفجار أثر في (هيلاس) وامتد أثره إلى العالم غير الهليني (ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنها أثرت على مجموعة كبيرة من الجنس البشري) . حقيقة إن مضي الزمن قد جعل البحث الدقيق في الحاضر مستحيلاً كما هو الحال في بحث الماضي البعيد ، إلا أنه في ضوء أقدم دليل اعتبره جديراً بالثقة ، فإنني لا أتصور أنه قد وجدت في الماضي حروب أو أحداث أخرى تمثل هذه الدرجة من الأهمية .

ويبدو أن سكان المكان الذي نطلق عليه الآن (هيلاس) لم يستقروا حتى زمن قريب نسبياً . وأن (هيلاس) تعرضت في الأزمنة الأولى لهجرات ، ترك فيها السكان مساكنهم بسهولة تحت ضغط بعض الدخلاء الذين يفوقونهم في العدد . ولم تكن التجارة أو الاختلاط مضمونين بحراً وبراً . فعاث كل مجتمع

في حدود إنتاجه المحلي الخاص ، دون أن يتجمع لديه رأسمال ، ودون أن يعمل على استثمار رأس المال هذا في الأرض ، لأنه لم يكن في وسع أحد أن يعرف تماماً متى يحرمه الغزاة من بلاده ، تلك التي لم يتعلموا كيفية تحصينها بعد . وكان من المسلم به عندهم ، أنه من اليسير أن يحصلوا على قوت يومهم أينما حلوا . لهذه الأسباب كانوا على أهبة الترحال ، فلم يعملوا على تكوين قوة بشرية كبيرة أو عتاد حربي كبير . وقد تعرضت ، بوجه خاص ، أغنى المناطق ، كذلك التي يطلق عليها الآن (تساليا) Thessaly و (بويوتيا) Boeotia ، ومعظم مناطق البيلوبونيز فيما عدا (أركاديا) Arcadia ، وأفضل الأجزاء الأخرى ، إلى تغيرات في السكان . ونتج عن خصوبة التربة ترايد في القوة ، التي أدت إلى اضطرابات أهلية مدمرة ، وجعلت من هذه البلدان ، في الوقت نفسه ، هدفاً لأطباع الأجانب البالغة . أما (أتيكا) Attica ، فإنها على عكس ذلك ، لقد خلت من الاضطرابات الأهلية لفترة طويلة متصلة ، بسبب فقر تربتها . ولم يحدث أن افترقت سكانها الأصليين أبداً . ومما يؤيد رأيي في أن المهجرات قد عانت التطور المائل للبلدان الأخرى . هو أن أهم ضحايا الحرب والاضطرابات الأهلية في بقية العالم الهليني قد وجدوا في أتيكا كلاجئين ملاذاً لهم ، وأخذوا سماتهم الطبيعية منذ أقدم العصور وما لبثوا أن زادوا من عددا السكان الذين تدفقوا فيما بعد من (أتيكا) ، وأقاموا لهم مستعمرات في (أيونيا) Ionia .

وثمة دليل آخر يبدو لي إلى جانب مسألة الآثار القديمة ؛ ألا وهو أنه قبل حرب طروادة ، لا يبدو أن هيلاس ، قد قامت بمجهود موحد . واعتقد أن هذا الاسم في حد ذاته لم يكن قد انتشر بعد ليشمل العالم الهليني . وأن التسمية ، في حقيقة الأمر ، لم تكن معروفة على الأرجح قبل عصر « هيلين » Hellen بن « ديوكاليون » Deucalion ، وأن أسماء القوميات المختلفة انتشرت محلياً ، وكان أكثرها انتشاراً « البلاسجيين » Pelasgians ولم تكن هناك دولة في (فثيوتس) Phthiotis حتى زمن « هيلين » وأبنائه الذين طلبت منهم الدول الأخرى أن

يتدخلوا لصالحها ، فاجمها خلال هذا التدخل إلى إطلاق اسم « الهيلينيين » على دولة إر دولة . ومهما يكن الأمر ، فقد انقضت على ما يبدو فترة طويلة ، قبل أن تداول هذه التسمية . ويمكن الاستدلال على هذا بوجه خاص ، من « هومر » الذى وجد بعد مضي فترة طويلة جداً من الزمن على حرب طروادة ، فوجد أنه لم يطلق اسم « الهيلينيين » على العنصر بأسره ، أو على أى عنصر آخر ، عدا أتباع « أخيلوس » Achilles من (ثيوتس) ، وكانوا هم بالفعل الهيلينيين الأول . ولم يتحدث « هومر » أيضاً ، عن غير الهيلينيين ، للسبب الذى من أجله أعتقد أن « الهيلينيين » لم يكونوا قد اتخذوا اسماً معيناً يمكن أن يتباين معه أى تسمية أخرى . وعلى أية حال ، فإن العناصر الأصلية للجنس الهليني (كما ساد هذا الاسم بشيوعه من دولة إلى دولة حتى عدا اسماً عالمياً) قد عاقتا قلة التداخل وضعفه فى المشاركة فى أى مشروع ، لدرجة أن حملة طروادة لم تكتمل لها عناصر الحملة المشتركة إلا فى عرض البحر .

ويعتبر « ميلوس » Minos أول رجل معروف فى الروايات القديمة قام ببناء أسطول سيطر به على الجزء الأكبر مما نطلق عليه الآن البحر الهليني ، وحكم (الأرخبيل) Archipelago ، وكان أول من استعمر معظم الجزر — وطارده « الكاريين » الأصليين ، ونصب أبناءه حكاماً . ومن المحتمل أنه طهر البحار من القراصنة على قدر استطاعته ، كى يوجه السخلى إلى خزائنه الخاصة . وقد مارس الهيلينيون فى الأزمنة القديمة ، القرصنة ، شأنهم فى ذلك شأن سكان الجزر والسواحل من غير الهيلينيين . بعد أن اضطرد ازدياد مواصلاتهم البحرية . وتولى القيادة أنس ذو مكانة من أجل مصالحهم الشخصية من ناحية ومساندة أتباعهم من ناحية أخرى . واعتادوا أن ينقضوا على المدن المكشوفة والقرى فينهبونها ، فكان ذلك مصدراً رئيسياً لأرزاقهم . ولم يكن ثمة عار لحق بعد بهذه المهنة ، بل كانت تمتاز مما عداها من المهن الأخرى ، والدليل على ذلك تلك الهالة التى تجلبوا حتى يومنا هذا بمهوبة القرصنة بين بعض شعوب البر^(١) ، وكذلك الحوار الذى يخرجه

(١) مثل شعوب البلقان فى قلب شبه الجزيرة الهلينية (المحقق) .

الشمر^(١) في الأزمنة الباكورة . وما زالت شعوب البر يضر بعضها على البعض الآخر . وتوجد إلى الآن ، أجزاء كبيرة من (هيلاس) ، لا تزال الأساليب القديمة باقية بها — كما هو الحال بين « اللوكرين » Locrians الجنوبيين ، و « الأيتوليين » Aetolians وسكان أكارنيا Acharnians ، وسائر تلك المنطقة من القارة . ولا تزال عادة حمل الأسلحة منذ أيام القرصنة باقية بين شعوب اليابسة ، لأن العالم الهليني بأسره خلال فترة ما ، كان يحمل الأسلحة . فقد عاش في العراء ولم يكن الاختلاط مأمون الجانب ، فلم يتخل قط عن الأسلحة ، بصورة أكبر مما تفعل الشعوب غير الهلينية اليوم . ومثل هذه الراوسب ، في هذه الأجزاء من هيلاس تدل على أن تلك العادات الماثلة قد انتشرت ذات يوم على نطاق واسع .

وكان الأيتينيون من الأوائل الذين تخلوا عن السلاح ، وتحولوا إلى أسلوب حياة أكثر دعة وتهدياً . وأخيراً ، تحلى السنون من الطبقة المهدبة عن الكاليات ، كارتداء قصان من الكتان وعقص شعورهم في حمة تزينها مشابك ذهبية على هيئة الجندب . وقد استمرت هذه الحياة سائدة لفترة طويلة لدى الجيل القديم من بني جلدة الأيونيين . فالرداء البسيط الذي ترتديه اليوم ، أوجده الإسبرطيون في بادى الأمر ، وقد تبسطوا في الظاهر بأسره حتى يكون في متناول الفقير والغنى . وكانوا أول من تدرّبوا عراة ، وتجردوا من ثيابهم علناً ، ودهنوا لهذا الغرض أجسادهم بالزيت . ومع أن المتبارين قد اعتادوا في الأصل أن يستروا عورتهم بأردية حتى في مباريات الألعاب الأولمبية ، إلا أنه لم تخض سنوات كثيرة حتى أقلموا عن هذه العادة . ونحن نجد في أيامنا هذه بين بعض الشعوب غير الهلينية ، خاصة في آسيا ، شعوباً ما زالت ترتدى الرهاط (مئزر) عندما يقيمون مباريات الملاكمة والمصارعة . ومن اليسير أن نجد أوجه شبه كثيرة بين الحياة الهلينية القديمة والحياة غير الهلينية الحديثة .

(١) يوجه إلى البحارة القاصمين للشاطئ سؤال دون تمييز عما إذا كانوا قراصنة ، ولا تراوهم فكرة الخجل من هذه التجارة أو أن يكون في هذا السؤال نوع من الإهانة (المؤلف) .

وكان لدى البلدان التي تأسست أخيراً جداً، عقب قهر البحار، فائض من رأس المال، وأقيمت من أجل ذلك على الساحل أو عبر البرازخ وحصنت تحصيناً صناعياً في أكثر المواقع الاستراتيجية والتجارية الملائمة. وتحاشت المستعمرات الأولى جيرة البحر، بسبب أعمال القرصنة الدائمة، التي لم تحدث في الجزر فحسب بل وعلى البر أيضاً (لأن القراصنة كانوا يغيرون على سكان السواحل غير المشتغلين بالملاحة كما كان يغير بعضهم على بعض)، وأبقوا حتى يومنا هذا على مواقعهم الأصلية داخل اليابسة. أما سكان الجزر الذين كانوا قراصنة نشطين على غرار الباقيين، فقد كانوا من «الكارين» و«الفينيقيين» وقد قام هؤلاء باستعمار غالبية الجزر، كما أثبت ذلك (ديلوس) Delos.. وعندما أعاد الأثينيون تقديس جزيرة (ديلوس) إبان الحرب الأخيرة، أزالوا كل ما وجد فيها من هياكل ثبت أن الكارين قد أقاموا أكثر من نصفها. ومما يؤكد هذا نوع الأسلحة التي أدخلوها معهم وشكل الدافن الكارية الذي ما زال سائداً. وقد أصبحت وسائل النقل البحري أكثر أمناً^(١) بعد بناء أسطول «مينوس». فبدأ أهالي السواحل في تجميع رؤوس أموالهم وإقامة حياة أكثر استقراراً، واستخدموا ما زاد عن حاجتهم من المال في بناء التحصينات لوقاية أنفسهم. ورأى الضعفاء أن من الأسلم لهم أن يقبلوا سيادة الأقوياء سياسياً؛ فاستخدم الأقوياء بدورهم الفائض لإخضاع الدول التي تقل عنهم شأنًا. وقد وصلوا مرحلة التطور هذه تقريباً قبل أن يقوموا بحملتهم ضد طروادة.

واعتقد أن «أجاممنون» Agamemnon استطاع أن يحشد أسطوله لأنه كان القوة المسيطرة بين معاصريه وليس لأن خطاب «هيلينا» كانوا مضطرين للسير وراءه بناء على قسمهم «لنداريوس» Tyndareus. وفي الحقيقة تؤكد أصدق رواية عند اليلوبونيز بأن «يلوبس» Pelop^٥ قد استولى في بداية الأمر على السلطة بفضل رؤوس الأموال التي جلبها معه إلى هذا القطر الفقير من آسيا، ونجح في فرض اسمه رغم كونه نازحاً. وكان ينتظر أحفاده نجاح أعظم

(١) قام مينوس بظهر الجزر من المجرمين، وكانت هذه فرصة ليستمر فيها مظلم الجزر

فمنذما قتل « بنوهرقل » « يورثيوس » Eurystheus في (أتيكا) ، فإن « آريوس »
Atrous خال « يورثيوس » الذى طرد من بيت أبيه بسبب مقتل « خريسيبوس »
Chrysippus ، وجد نفسه مسئولاً عن أهالي (موكناي) وأملاكهم ، التى عهد
بها إليه « يورثيوس » لصلة القرابة التى كانت بينهما . ولما لم يعد « يورثيوس » اعتمد
« آريوس » العرش بحض إرادة أهل موكناي ، الذين كانوا يخشون الهرقليين ^(١)
وهكذا تفوق أتباع « ييلوبس » على البرسيين Perseidae ، واعتقد أن ذلك
الميراث مصحوباً بالتفوق البحرى ، هو الذى مكن « أجامنون » من أن يحشد
قواته ، التى كانت مسخرة أكثر منها مقطوعة . ويبدو أنه أعد بنفسه أضخم حامية
من السفن ، التى كان لديه الكثير منها واستطاع أن يوفر بعضها للأركاديين
Arcadians ، وإذا اعتمدنا على رواية « هومر » وأخذناها كدليل تاريخى ، نجده
يقول فى (تسل الصولجان) إن « أجامنون » (كان رب جزر كثيرة وبلاد اليونان
بأسرها) . إلا أنه لولا هذا الأسطول ما كان فى مقدوره ، حتى ولو كانت لديه
سلطة مطلقة على البر ، أن يسيطر على أى جزيرة فيها عدا تلك الجزر التى تجاور
سواحه ، والتى لم تكن كثيرة العدد . وما نعرفه عن حملة طروادة يصلح أن يقوم
دليلاً على طبيعة تلك الحملات التى سبقتها .

إن صغر حجم موكناي وعدم الأهمية الراهنة لهذه البلدة أو تلك ، ليست دليلاً
كافياً على تكذيب أقوال الشعراء والأقوال المتوارثة الخاصة بحجم الأسطول الحربى .
ولنفرض ، على سبيل المثال ، أن مدينة (إسبرطة) Sparta أصبحت مهجورة
ليس فيها شئ سوى الباني العامة وأساس المنازل ، فإننى أعتقد أن الفترة الطويلة
التي تعقب ذلك من شأنها أن توحى بالشك لدرجة كبيرة فى مدى تطابق السلطة
الراهنة للإسبرطيين وما كان لهم من شهرة تاريخية . لقد سيطر الإسبرطيون
بالفعل على خمس جزر ييلوبونيزيا وكانت لهم الولاية على الجزر الباقية ، كما كان لهم
مثل هذا النفوذ على حلفاء كثيرين خلف حدود إسبرطة ، ومع ذلك فإن المدينة

(١) كان آريوس مهيباً فعلاً ، وقد استمال إلى جانبه الجماهير فى موكناي والدول الأخرى
التي تدخل فى حيازة يورثيوس ، (المؤلف) .

تبث انطباعاً بالدُّونية ، لأنها لم تكن مدينة مركزة^(١) ، ولم تكن تزيها مبان عامة نعمة ، دينية كانت أم دنيوية ، اللهم إلا مجموعة من مجتمعات القرى ذات النظام الهليني البدائي . ومن جهة أخرى ، فإن أثينا لو تعرضت للمصير ذاته ، فإن بقايا المدينة المادية من شأنها أن توحى بأن قوة الأثينيين كانت ضعف ما هي عليه في الحقيقة . وعلى هذا فن الخطأ أن نشك ، أو أن نحكم على الدول من مظهرها الخارجي أكثر من الحكم عليها من قوتها الباطنة ، ومن الأسلم أن نفترض أن الحملة الطروادية قد فاقت ما سبقها من حملات وإن لم تبلغ حدود الحملات الحديثة — هذا على افتراض أن دليل هومر يمكن أن يؤخذ موضع ثقة . لأن هومر من الفروض ، أن يبالغ باعتباره شاعراً ، ومع هذه المبالغة فإن انطباع الدُّونية مازال باقياً ، حتى في حدود الأرقام التي يقدسها ، وهي أنه كانت هناك ١٢٠٠ سفينة ، لها ١٢٠ بحاراً في حامية (بويوتيا) و ٥٠ بحاراً في حامية « فيلوكتيتس » Philoctetes ؛ وأميل إلى اعتبار هذه الأرقام الحد الأعلى والحد الأدنى لعدد السفن — وعلى أية حال فإنه لا يذكر عدد السفن وهو يستمرض الأسطول في مواضع أخرى . وبين بعد ذلك في مرض وصفه لسفن « فيلوكتيتس » أنه لم يكن ثمة فرق بين البحارة والمحاربين ، إذ أنه اعتبر من يقوم بالتجديف رامياً للسهام . وليس من المحتمل أن يكونوا قد قتلوا ركاباً كثيرين فيما عدا الملك والضباط العظام — ولا سيما عندما كان عليهم أن يبحروا هم أنفسهم ومعهم عتاد الحرب عبر البحر المكشوف ، وكان هذا يتم على سفن دون سطح مكشوف ومبنية على أسلوب القراصنة البدائي . وإذا ما أخذنا المتوسط بين أكبر رقم للسفن وأصغر رقم ، فإن الرقم الناتج لجملة القوات سوف لا يبدو كبيراً ، مع العلم بأنه يمثل الحملة المشتركة من مجموع أجزاء هيلاس .

ولم يكن سبب هذا هو الضعف في القوى البشرية بقدر ما كان الضعف في القوى المالية . وقد أدت صمويات أجهزة التحويل إلى جعل عددهم بالقدر الذي يكفي

(١) وذلك عن طريق توحيد عدد من القرى المبشرة في مركز حضارى واحد ، وهذه العملية كانت بمثابة النشأة التاريخية لعاصمة الدولة الهلينية . (المحقق) .

لفزو البلد ، وحتى عندما فرضوا سيادتهم في الميدان بعد أن رسوا على البر ، (وذلك ما كان يجب أن يفعلوه ، وإلا فإنه لم يكن في مقدورهم تحصين معسكرهم) يبدو أنهم لم يستخدموا قواتهم بأسرها في العمليات ، إلا أن هذه الصعوبات التوبينية قد اضطرتهم إلى أن يعودوا لممارسة الزراعة (في شبه الجزيرة ^(١)) وأن يعودوا إلى القرصنة . وقد ساعد هذا التشتيت في قوتهم الطرواديين ، الذين كانوا ندأ لقوة الهلنيين الحربية في أية لحظة ، على أن يصمدوا أمامهم طيلة عشر سنوات بينما لوجلب الهلينيون الإمدادات معهم وأبقوا على قواتهم في حالة عمل مستمر ، دون أن يشتتوها في القرصنة والزراعة ، يضاف إلى ذلك تفوقهم في الميدان ، لكان من اليسير عليهم أن يستولوا على طروادة . غير أن الذي حدث ، هو أنهم أبقوا على قواتهم مع وضع قسم منها في الجبهة طالما كان هذا كافياً . وعلى ضوء الظروف الحديثة ، كان يتعين عليهم أن يقيموا حصاراً منظماً ويستولوا على طروادة في فترة ومتاعب أقل . وأياً كان الأمر ، فإن نقص القوى المالية لم يكن نقطة ضعف الفترات السابقة فحسب بل نقطة ضعف الحرب الطروادية ذاتها ، والتي ثبت أنها أقل في الحقيقة من شهرتها التي حظيت بها أكثر من أى حرب سابقة ، وقياساً إلى الشهرة التي حظيت بها في الشعر . وبقي العالم الهليني ، حتى بعد الحرب الطروادية معرضاً للهجرة وتكرار الاستيطان اللذين حالاً دون التطور المستقر . وقد أدى تأخير عودة قوات الحملة إلى عدم استقرار كبير ، واجتاحت الثورات معظم الولايات ، وأقام اللاجئون ولايات جديدة . وبعد سقوط طروادة بستين عاماً طرد « التساليون » « البيوتيين » الحاليين من (آرث) Arne واحتلوا ما يعرف الآن ببيوتيا ، وإن كان من المألوف أن يطلق عليهم « القدميس » ^(٢) Kadmeis . وبمدها بثمانين عاماً ، هزم الدورويون بقيادة خلفاء هرقل البيلوبونيزيين . وأخذت (هيلاس) تهدأ ولكن في ألم وبطء شديدين إلى أن أصبحت مستقرة استقراراً تاماً وشرعت في إقامة المستعمرات . وقد استعمر الأثينيون (أيونيا) ومعظم الجزر ،

(١) شبه جزيرة جاليبولي Gallipoli (المحقق) .

(٢) استقر فرع منهم بالفعل هناك وأرسل حامية بيوتيا إلى طروادة (المؤلف) .

واستمر البيلوبيونيزيون (إيطاليا) وصقلية وأما كني قليلة خارجها . ويدو أن جميع عمليات الاستعمار هذه كانت متأخرة عن الحرب الطروادية .

وما إن أصبح العالم الهليني أكثر قوة وثراء عما كان عليه ، حتى قامت ^(١) حكومات أرستقراطية مستبدة ، وتزايدت الدخول العامة ، وبنت هيلاس أساطيلها وأنجبت نحو البحر بعزم أكبر . ويقال إن (الكورينثيين) Corinthians هم أول من استخدم وسائل البحرية الحديثة ، وإن السفن الحربية ^(٢) قد تم بناؤها في (كورينثا) Corinth قبل أن يتم بناؤها في هيلاس . ويدو أن الساميين Samians كانوا لديهم أربع سفن بناها لحسابهم صانع السفن الكورينثي « أمينوكليس Ameinocles » ، الذي ذهب إلى (ساموس) Samos قبل انتهاء الحرب الأخيرة بحوالي ثلاثة قرون . ووقت أقدم معركة بحرية معروفة بين الكورينثيين والكوركييرين Corcyraeans حوالى عام ٢٦٠ قبل التاريخ المذكور . وكان لموقع كورينثا على البرازخ أكبر الأثر في جعل التجارة بأيدي سكانها منذ أقدم المصور ، لأن اتصالات الهلنيين ببعضهم البعض داخل بيلوبيونيزيا وخارجها كانت أصلاً على اليابسة أكثر منها في البحر ، ومن ثم عبر إقليم كورينثا . وقد ملك الكورينثيون سلطان المال ، كما هو ثابت في قصائد الشعراء الأول الذين يشيرون إلى كورينثا بكلمة (الثروة) ، وعندما أصبحت الملاحا أكثر انتشاراً بين الهلنيين ، أصبح للكورينثيين أسطولهم ، وأصبحوا سادة القرصنة ، وأقاموا سوقاً لتتاج البحر تماماً كتجارة البر ، وبسطوا نفوذهم بفضل مواردهم ، ثم قام « الأيونيون » بتطوير أسطولهم في عهد « سيروس الأول » Cyrus ملك فارس Persia وابنه « قبيز » Cambyses . وفي حروبهم مع « سيروس » سيطروا على مياههم لفترة من الوقت . وفي حكم « قبيز » أصبح « بوليكراتيس Polycrates » سلطان ساموس صاحب سلطة بحرية فأخضع عدداً من الجزر — بما فيها (رهينيا) Rheneia التي

(١) كانت هناك من قبل ملكيات مستبدة ذات إمتيازات ثابتة (المؤلف) .

(٢) سفن حربية ذات قوة مجاديف تبلغ ثلاثة أضعاف النوع القديم (المحقق) .

أهداها إلى « أبولو » في (ديلوس) ، وهزم التوكيون القرطاجيين في البحر حينما كانوا يقيمون مستعمراتهم في (مرسيليا) Merseilles . تلك كانت أقوى الأساطيل الموجودة وقت ذاك ، وحتى هذه الأساطيل ، رغم أن تاريخها يمتد إلى عدة أجيال بعد الحرب الطروادية ، فإنها على ما يبدو قد استخدمت سفناً حربية قليلة كانت لا تزال تتكون من « خمسين مجدافاً » ، وقوارب طويلة مثل أساطيل فترة الحرب الطروادية . وإن هي إلا فترة قصيرة قبل الحرب الفارسية و وفاة « داراً Darius .. خليفة « قبيز » حتى بنيت السفن الحربية في عدد لا بأس به على أيدي الحكام المستبدين في صقلية وعلى أيدي الكوركيين . وهي آخر الأساطيل الهامة التي وجدت في العالم الهليني قبيل حملة « كسر كسيس » Xerxes . وقد كان لدى « الأيجنتيين » Aegnetans والآثينيين ، وآخرين سفن قليلة كانت في الغالب من ذات الخسین مجدافاً ، وفي إحدى قرآت التاريخ التأخرة نسباً حث « ثيميستوكليس » Themistocles الآثينيين ، وقت أن كانوا في حرب مع « أيجنيا » Aegina ، على أن يبنوا السفن التي حاربوا بها فعلاً . وهي سفن ، كانت زيادة على ذلك ما تزال دون ظهر مكشوف ، وكان غزو الشرق على وشك أن يقع .

هذا هو تاريخ الأساطيل الهلينية في أزمنة متقدمة ومتأخرة . وبذات الوقت ، فإن الأمم التي زادت من الاضطرابات أحرزت سلطة لا بأس بها في الدخول المالي والرقمة الخارجية . لقد غزوا الجزر وهزموها خاصة تلك المناطق التي لم يكن أهلها يعتمدون على أنفسهم . ومن جهة أخرى ، لم تحدث أية حرب نتيجة لتركز السلطة على البر ، كذلك الحروب التي حدثت بين سكان الحدود . ولم يقيم بعد الهلينيون بحملات عسكرية بعيدة لغزو دائم ، لأن أكبر الولايات لم تكن قد أخضعت بقية الولايات ، بينما لم تقم الوحدات المستقلة بحملات مشتركة على قدم المساواة . ولم يكن هناك سوى حروب محلية بين الجماعات المتجاورة . أما الحرب المبكرة بين (خالكس) Chalcis و (إرتريا) Eretria فقد كانت أول بادرة مهدت للانقسام العام في العالم الإغريق إلى معسكرين ، واصطدم تطور الدول المختلفة بعدئذ بمقبات متباينة . وأحرز الأيونيون تقدماً

ملحوظاً عندما هاجمهم «سيروس» والملكية الفارسية ، بعد هزيمة «كرويسوس» Croesus والبلدان الواقعة غرب نهر (هاليس)^(١) Halys وانتقصوا من مساحة دولهم على اليابسة . وبعد ذلك أقام «دارا» من نفسه سيداً على الجزر ، بمساعدة الأسطول الفينيقي . وقد أسهم الطغاة المختلفون الذين نشأوا في الدول الهلينية ، وكانت نظرتهم الأنانية محصورة في تأمين راحتهم الشخصية و ثروات عائلاتهم ، في السلام بقدر ما استطاعوا في سياستهم الخارجية . ولهذا لم تحدث أية عواقب هامة ، خلاف ما كان يقع باستمرار بين الجماعات في قطاعهم المحلي . وقد نشأت أقوى الدول على أيدي جيابرة صقلية . وهكذا كان العالم الهليني خاضعاً لفترة طويلة للضغط من كل اتجاه ، مما حال دون أى عمل مشترك واضح ، وألقى بالدول المنعزلة في سلبية مهينة .

وأيما كان الأمر ، فقد أطاح الإسبرطيون^(٢) بغالبية عتاة أثينا وبقية مدن هيلاس (حيث كانت الحكومات المطلقة سائدة لفترة من الزمن) — وعلى وجه الدقة أطاحوا بآخِر هؤلاء الحكام ماعدا حكام صقلية — ولم تمض سنوات طويلة بعد الإطاحة بهم حتى نشبت معركة (ماراثون) Marathon بين الفرس والأثينيين . وبعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ سار «دارا» بجيشه العظيم للمرة الثانية نحو هيلاس كي يستولى عليها . وسيطر الإسبرطيون في هذه الأزمات على حلفائهم باعتبارهم أقوى دولة هيلينية ، بينما قابل الأثينيون الغزو الفارسي بالتخلي عن مدينتهم والجللاء عنها على السفن التي كانوا قد أعدوها في البحر . ولم يتم وضع حد لدارا بالجهد المشترك . وما كاد الهلينيون يتحررون من فارس حتى انقسم حلفاء الأمس إلى معسكرين أحدهما تزعّمه إسبرطة والثاني أثينا ، أقوى دولتين ظهرتتا في ذلك

(١) كوزيل يرماق Qyzyl Ermaq (المحقق)

(٢) بعد تأسيس إسبرطة على أيدي سكانها الدوريين الحاليين ، تمزقت بفعل الاضطرابات الداخلية لمدة سنوات متقطعة، ولكنها كانت أيضاً رائدة الإصلاح ولم تقع في قضية طاغية على الإطلاق . وعاش الإسبرطيون لمدة أربعة قرون تحسب منذ نهاية الحرب الأخيرة ، عاشوا في ظل الدستور نفسه الذي منحهم سلطة التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى . (المؤلف) .

الوقت — إحداهما في البر والأخرى في البحر . وبعد أن كان العمل مشتركاً بين الجيوش لفترة وجيزة ، تنازع الإسرطيون والأثينيون وانطلقوا للقتال ، كل فريق بحلفائه ، وأنحازت الدول الإغريقية الأخرى التي تنازعت منذ ذلك الحين ، إلى هذا الفريق أو ذاك . ومنذ الحرب الفارسية حتى الحرب الأخيرة ، تعاقبت المهادنات والحملات بشكل دائم (يتصارع فريق مع الفريق الآخر ، أو يحدث صراع مع النشقين بين صفوف حلفاء كل فريق) ، مما أدى إلى إتقان تسليحهم وتحسين تكتيكهم الحربى بالتدرب على القتال المباشر . ولم يفرض الإسرطيون على حلفائهم الذين قدموا لهم مساعدات عسكرية أن يسهموا بالسال بل التزموا أسامهم بتأمين حكمهم لصالح إسرطة حسب لائحة محددة . وسيطر الأثينيون تدريجياً على أساطيل الولايات الكونفدرالية فيما عدا (خيوس) Chios و (ليسبوس) Lesbos ، وفرضوا ضريبة سنوية محددة عليهم جميعاً ، مما أدى إلى أن تصبح الأسلحة المحلية التي كانت في حوزتهم في بداية الحرب الأخيرة ، تقوى أقوى أسلحة كانت في أيدي الاتحاد عند بدايته .

هذه هي نتائج أبحاثى عن الماضى — وإن كان من العسير في هذا المجال أن نعتمد كل دليل بصورته التي يرد بها إلينا . وإنما نقبل الروايات التاريخية ، بما فيها تلك التي تتعلق بالأحداث المحلية ، بنفس الافتقار إلى النقد الذي لا يتغير من عقل إلى آخر . وتصور غالبية الشعب في أثينا أن « هيبارخوس » Hipparchus كان طاغية حينما اغتاله « هارموديوس » Harmodius و « أرستوجيتون » Aristogeiton ، ولم تتأكد من أن « هيباس » Hippias خلف والده « بيزيستراتوس » Peisistratus بمقتضى حق الوراثة ، وأن « هيبارخوس » و « تسالوس » Thessalus مجرد إخوة له . وسبب هذا ، أنه يوم محاولة الاغتيال خشي « هارموديوس » و « أرستوجيتون » في آخر لحظة ، أن تكون الخطة ، قد تسربت بواسطة زملائهم في المؤامرة إلى « هيباس » ، فلم ينفذوا قتل « هيباس » على زعم أنه قد اكتشف الخطة . وبينما هما يتوقمان إلقاء القبض عليهما بين لحظة قررا ألا يضحيا بنفسيهما سدى ، فاغتالا « هيبارخوس » أثناء انشغاله بعمل

الترتيبات لموكب (البانائيناي)* في حرم (الليوكريوم) Leocureum . وقد تنطس ذكريات الماضي بمضى الزمن ، إلا أن أنظمة كثيرة كانت قائمة قد أساء فهمها العالم الهليني بأسره . فمثلاً كان يشيع الظن ، بأن لكل ملك من ملوك إسبرطة صوتان انتخابيان بدلاً من صوت واحد ، وأنه كان هناك ما يسمى (كتيبة بيتان) Pitane Battalion — وهي وحدة لم توجد قط . وقد عانت أغلبية الشعب بعض الآلام في البحث عن الحقيقة وهي على استعداد لقبول الرواية الأولى التي تقرر نفسها . وما زال من المضمون استخلاص النتائج التي استخدمتها أنا من الدليل الذي سرده بكسر ترهات الشعراء المبالغ فيها أو السلية أكثر من المؤلفات الدقيقة التي يقوم بها علماء السلالات . ولا توجد في الحقيقة أية وسائل تؤكد موضوعاً له مثل هذا التهم ويعكن بواسطتها شق الطريق بين الروايات النامضة . وربما يكفي هذا القدر في مثل هذا المجال مادامت هناك سمات بارزة . أما الحرب الأخيرة فهي مسألة مختلفة . وإنني أدرك أن الناس خلال الحروب يمتدنون دائماً أنهم غارقون في أعظم حرب عرفها التاريخ ، ثم لا يلبثون أن يعودوا يتغنون بالمجد الغابر بعد إقرار السلام ، ولو أن حقائق الحرب الأخيرة تنطق بذاتها وتبين أنها قد افقت سابقتها .

وفيما يتعلق بالأحاديث المختلفة التي أقيمت قبل الاعتداءات أو بعدها ، فقد وجدت أنه من المسير المحافظة على دقة الرواية الشفاهية في الحالات التي كت فيها الراوى ، أما الأشخاص الآخرون الذين أخذت عنهم تقاريرى فقد نقلوها بدورهم عن غيرهم ممن عاشوا التجربة ذاتها . وكان منهجى هو أن أعيد صياغة ما يصلنى باللغة التي تبدولى أنها الأرجح والأكثر ملاءمة لكل مقام . بينما أحافظ بإخلاص وبقدر المستطاع على المعنى العام للحديث الذي أتى فضلاً . أما فيما

* كان هناك في بادئ الأمر احتفال دينى يقام لإجلالاً للالهة (أثينا) حامية مدينة أثينا . ولما أصبحت البلاد كلها تحت حكومة واحدة صار الاحتفال بإلهة مدينة أثينا عيداً للدولة بأسرها وتغير الاسم القديم (أثيني) . إلى (بانائيني) . ويلاحظ أن المقطع الأول (Pan) مضاه كل أو جميع (المترجم العربي) .

يختص بوقائع الحرب المادية ، فإننى لم أكن راضياً عن اتباع المخبرين الرسميين أو
تصورى الخاص . وفى المواضع التى لم أكن فيها شاهد عيان بنفسى ، تحريت
بأكبر دقة بالغة ممكنة كافة التفاصيل التى وصلتني عن طريق ناقل الروايات ،
وكان ذلك عملاً مضمياً لأن شهود الأحداث الخاصة ذاتها قد قدموا روايات اختلفت
باختلاف مشاعرهم الذاتية أو أولياء نعمتهم . وقد يجد الجمهور فى روايتي جفافاً
لا يستسيغونه ، إلا أننى سأكون راضياً ، إذا ما قوبل عملي بالرضا من جانب
القراء الذين يضعون نصب أعينهم دقة المعلومات فى الوقائع التى لم تحدث فحسب ،
بل التى يمكن أن تحدث مرة أخرى فى أى احتمال بشرى . لقد حلوت دائماً
أن أسهم فى المعرفة أكثر من أن أقوم بعمل من أعمال البطولة .

لقد كانت الحرب الفارسية أعظم حرب قبل الحرب الأخيرة ، وقد وقعت
فور الاشتباك فى البحر والبر مرتين . إلا أن الحرب الأخيرة استغرقت فترة طويلة
ورزأت هيلاس بكوارث ليس لها مثيل فى أية فترة تاريخية سابقة . ولم يحدث
أن سقطت مدن أو دمرت بهذه الكيفية من قبل على أبدي غير الهلينيين والمهاريين
الهلينيين أنفسهم^(١) ، ولم يحدث أن طرد الناس من بيوتهم أو دبحوا بهذه الصورة
سواء فى الحرب ذاتها أو فى الاضطرابات الأهلية . فضلاً عن ذلك فإن أحداثاً
مروعاً وقعت على نطاق واسع وكان لها سوابق مماثلة وإن كانت قليلة . . كالهزات
الأرضية التى حدثت بدرجة من المدى والعنف لا مثيل لها ، وتكرار حالات
كسوف الشمس التى لم يحدث لها مثيل . وهناك أيضاً أحداث القمع المحلية القاسية
والجماعات المتكررة ، وأحد هذه الكوارث القظيمة الطاعون ، الذى أدى إلى
تقص عدد السكان . كل ذلك وكان الحرب كانت بمثابة إشارة البدء لهجوم سائر
قوى الطبيعة تلك .

وكان نشوب الحرب يعنى تقص السلام الذى دام ثلاثين عاماً والذى عقده
الأثينيون والبلوونيزيون بعد قهر (يوبويا) Euboea^(٢) . وسوف أدلى برواية

(١) هناك حالات حدث فيها تغير فى السكان عقب سقوط المدن (المؤلف)

(٢) وقعت من جانب الأثينيين فى عام ٤٤٦ ق م (المحقق) :

أولية عن المنازعات التي أدت إلى تقص السلام ، حتى لا يفوت القارى ما يجب عليه إدراكه عن كيفية اتزلاق الهلبيين إلى مثل هذا الصراع المروع . وفى رأى ، أن ما دفعهم إلى امتشاق الحسام ، هو هذا الخوف الذى بثه الأثينيون فى قلوب الإسبرطيين نتيجة لحشودهم العسكرية ، وهو السبب الذى اعتبره صودة رئيسية فى الروايات الرسمية .

تاريخ الحرب البيلوبونيزية

(الجزء الثانى)

(نص أكسفورد ، تحقيق ستيوارت جونز Stuart-Jones الكتاب الخامس . الفصول ٢٥ - ٢٦) .

بعد أن انتهت مفاوضات المعاهدة والتحالف بين (إسبرطة) و (أثينا) ؛ والتي انتهت بمقتضاها حرب السنوات العشر^(١) ، ألحق الموقعون أنفسهم فى سلام^(٢) . ولكن (كورينثا) ودولاً أخرى من البيلوبونيز بدأت فى تقويض دعائم الاستقرار ، على نحو جعل إسبرطة تفرق فى مشاكل جديدة مع حلفائها . وأصبح الإسبرطيون بمضى الزمن ، يربابون بدورهم فى الأثينيين ، لأنهم أخفقوا فى تنفيذ نصوص معينة من شروط الاتفاقية . حقيقة أنهم أحجموا طيلة الست سنوات والنصف الأولى ، عن غزو أى إقليم من الأقاليم الأخرى ، إلا أنهم لم يفوتوا فرصة لإزالة الضرر أحدهما بالآخر فى ميادين أخرى . وظلت المدينة مزعزعة ، حتى جاءت ظروف دفعت بهم فى النهاية إلى تكبير صفو السلام الذى عقد بعد السنوات العشر الأولى وتحول إلى عدااء مكشوف .

(١) ٤٣١ - ٤٢١ ق م (المحقق) .

(٢) فى بليستولاس Pleistolas وهو عام مجلس الحكم فى إسبرطة و (الكايوس) فى أثينا .

وقد كتب ثوكوديديس الأثيني ، تاريخ الطور الثاني من الحرب — في تعاقب
زمني بين الشتاء والصيف ، إلى يوم أن أطاح الإسبرطيون وحلفاؤهم بالإمبراطورية
الأثينية ، ثم احتلوا (الجدران الطويلة) Long Walls ، (ويرابوس)^(١)
Peiraeus . وتبلغ فترة استمرار الحرب حتى هذا التاريخ سبعاً وعشرين سنة بما
فيها فترة الهدنة التي يعتبر إسقاطها من الحساب خطأ . وإذا كان هناك قارىء
لا يوافقني في هذا الرأي ، فاعليه إلا أن يفحص هذه الفترة في ضوء الحقائق حتى
يتأكد من أن كلمة (السلام) لم تنطبق على فترة الهدنة . لأن كلا الفريقين لم يستمد
أو يسترد كافة الأماكن المنصوص عليها في الاتفاقية ، ناهيك عن انتهاك السلم من
جانب الفريقين في الحروب اللاتينية Mantanean والأبيدورية Epidaurian وفي
مناسبات أخرى ؛ ولم يكف حلفاء أثينا على ساحل تراقيا عن العدوان ؛ وعقد
البيوتيون فقط هدنة على فترات متقطعة تبلغ كل فترة عشرة أيام في كل مرة . وإذا
أدخلنا الحرب الأولى (التي دامت عشر سنوات) ، والهدنة الزعومة التي أعقبتها
والحرب الثانية التي أنهت تلك الهدنة ، فإن مجموع السنوات ، إذا ما حسبت
بالفصول ، تبلغ أقل من الرقم الذي ذكرته بأيام قليلة ، ومن الصدف فإن هذه الحادثة
إنما تؤيد من يعتقد في الرجم بالنيب . إنني أذكر تماماً تكرار القول دائماً في دوائر
عريضة ، منذ بداية الحرب إلى نهايتها ، بأن الحرب مقدر لها أن يطول أمدها إلى
تسع سنين مضروبة في ثلاث . ولقد عشت خلالها جميعاً ، ولم أكن في سن من
يدرك لحسب ، بل كنت أجمشم مشقة الوقوف على معلومات دقيقة . وقدر لي أن
أنق من بلدي لعشرين سنة بعد قيادتي في (أمفيبوليس) Amphipolis ، وفي
هذا الموقف تمكنت من أن أرى شيئاً لدى كلا الجانبين — البيلوبونيزي والأثيني —
وأن أعد دراسة حول الحرب في وقت فراغي . ويتمين على الآن أن أسرد المنازعات
التي أعقبت خاتمة حرب السنوات العشر الأولى ، وتقض المعاهدة ، وسير الحرب
الثانية التي تلت ذلك .

(١) مات المؤلف ، لسوء الحظ ، قبل إتمام مشروعه (المحقق) .

بولوبيوس الميجالى

Polybius of Megalopolis

(٢٠١ - ١٢٠ ق.م)

تاريخ العالم

(نص توينر Teubner تحقيق و . بتر وبست W. Buttner—Wobst ؛
الكتاب الأول الفصول ١ - ٤) .

إذا ما كان المؤرخون السابقون قد أغفلوا تقرير قههم الخاص بهم ، فلقد كان من واجبي أن أنوه بإشارة عابرة عن الود الذى قبول به هذا الفرع من الأدب . لأن معرفة الأحداث الماضية هى بمثابة المقوم الحقيق للطبيعة البشرية . وأيا كان الأمر ، فإن هذا الواجب لا ينبغي أن يتم بشكل شاذ أو دون اكتراث . فهو من الناحية العملية الإشارة التى بدأ بها كافة المؤرخين تقريباً وأنشأوا أعمالهم ، حينما أطروا دروس التاريخ على اعتبار أنها أسلم تربية وتدريب للحياة السياسية ، وبدراسة تغير أحوال الآخرين باعتبارها أكثر المدارس فعالية ، أو أنها فى الحقيقة المدرسة الوحيدة التى تسكتسب فيها الروح الحققة لتحمل تقلبات الحظ . وعلى هذا ، فمن الجلى ، أنه لا يلتبس العذر لأى مؤرخ يكرر ما يكون قد تردد أو قيل من قبل بشكل بارع ، وأقل هؤلاء طراً هو كاتب هذه السطور . فإن الأحداث التى اختارها مادة له هى بذاتها شاذة بما يكفى أن تثير وتوقظ انتباه أى قارى صغر أو كبر . وأى عقل هذا الذى مهما بلغت قفاهته أو عدم اكترائه لا يستشعر تطلعا إلى تعلم تلك العملية التى كان من جرائها أن سقط العالم كله تقريباً تحت سطوة روما دون منازع خلال فترة أقل من ٥٣ عاماً ، أو لا يتطلع إلى أن يلم بالتنظيم السياسى الذى يميز إليه هذا الانتصار — وهى ظاهرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الجنس البشرى ؟ وأى عقل هذا الذى مهما خلبته مشاهد أو دراسات أخرى ، كان أمامه أن يجد مجالاً للمعرفة أكثر فائدة من هذا المجال ؟

إن الطبيعة غير العادية والأهمية الفائقة للمشكلة التي يعنى بها علمنا هذا ، ربما اتضحت أكثر إذا عقدنا مقارنة نقدية بين سيادة روما وأكثر الإمبراطوريات شهرة في التاريخ القديم والتي استحوذت على انتباه المؤرخين حتى الآن . وأصدق هذه الحالات هي : الفرس الذين امتد سلطانهم مدة من الزمن على إمبراطورية شاسعة ، ولكنهم منذ أن غامروا خلف حدود آسيا ، بدأوا يفقدون ، لا إمبراطوريتهم فحسب ، بل وجودهم أيضاً . والإسبرطيون الذين تولوا مركزاً قيادياً في هيلاس بعد نزاع طويل الأمد ، وظلوا في وضع لا نزاع فيه لمشرة أعوام فقط ، والمقدونيون Macedonians الذين أقاموا حكمهم في أوروبا من الأدراتييك Adriatic إلى الدانوب Danube (وهو قسم ليس بنى أهمية من تلك القارة كما يبدو لنا الآن) ، وضخوا بعد ذلك رقعة آسيا بعد أن أطلحوا بالإمبراطورية الفارسية . كانت كل هذه إمبراطوريات شهيرة ومتسمة وقوية في زمانها ، إلا أنها تركت بالفعل الجزء الأكبر من المعمورة خارج حدودها . ولم تسع أبداً إلى أن تنازع سيادة صقلية وسردينيا أو شمال أفريقيا ، ونجمل كذلك وجود معظم الشعوب التي تنزع إلى الحرب في أوروبا وهي شعوب الغرب . ومن جهة أخرى فإن الرومان لم يخضوا جزءاً من العالم فحسب ، ولكنهم أخضروا العالم المعمور فعلاً ، وأقاموا دولة ذات شهرة لم تحظ بها الدول المعاصرة لها ، ولم يتيسر حتى للدول التي جاءت بعدها أن تطمع في التفوق عليها . ومن أهدافنا هنا أن نلقى ضوءاً على هذه الظاهرة^(١) وأن نبين الفوائد العديدة الهامة التي تقدمها إلى الفارسين الجادين لهذا الفرع العملي من التاريخ .

إن نقطة بداية هذا العمل من الناحية التقويمية هي الأولمبياد^(٢) Olympiad المائة والأربعون . وفيما يلي الماملات الأولى المسجلة : في هيلاس . هناك ما يطلقون عليه الحرب الفيدرالية ، التي بدأت بحلف عدائى ضد «الأيتولين» Aetolians

(١) النص اليونانى لهذه الجملة متا كل (المحقق) .

(٢) استعمل بولوبيوس كلمة فنية خاصة للإشارة إلى مؤلفه .

(٣) كان الأولمبياد يعقد دورياً كل أربعة أعوام ، يقاس بتكرار الألعاب الأولمبية ، وبدأ الأولمبياد المائة والأربعون في الصيف الأخير من عام ٢٢٠ ق . م (المحقق) .

بين «الآخين» Achaeans و«فيليب» Philip، ابن «ديميتريوس» Demetrius ووالد «برسيوس» Perseus، وفي آسيا، حرب جوف سوريا Hollow Syria بين «أنتيوخس» Antiochus و«بطليموس فيلو باتور» Ptolemy Philopator في إيطاليا وشمال أفريقيا، هناك الحرب بين الرومانين القرطاجيين، والتي تعرف عادة بالحرب الهانيبالية. وهذه الماملات تلحق بآخر جزء مسجل ومؤلف «أراتوس السيكوني» (١) Aratus of Sicyon. وفي الفترات السابقة وردت عمليات العالم المأهول في أبواب مستقلة، ووردت فيها الشروعات التي سعى للقيام بها، والنتائج التي أحرزوها والرا كز التي تشتمل عليها، ووردت في شكل غير مترابط. إلا أنه منذ ذلك التاريخ فصاعداً والتاريخ يكتسب خاصية عضوية فإن العمليات الخاصة بإيطاليا وشمال أفريقيا، أصبحت تدرج ضمن عمليات هيلاس وآسيا، وأصبحت كافة التيارات تتجه إلى هدف واحد. وهذا ألزم الكاتب بأن يبدأ عمله في التاريخ المذكور آنفاً. فالكاتب ينظر إلى هزيمة القرطاجيين على أيدي الرومان في الحرب الهانيبالية على أنها الخطوة الحاسمة في مسمى الرومان للسيطرة على العالم. وما إن تمت هذه الخطوة حتى تجاسروا ليدوا أيديهم إلى بقية العالم ويحولوا لأنفسهم حق التدخل العسكري في هيلاس وآسيا.

وإذا ما كانت مجموعتا الدول اللتان تتنازعا سيادة العالم في هذه الحرب مادة لمعرفة شائنة، فربما يكون من نافلة القول أن نرج بقسم تمهيدى نشرح فيه السياسة والموارد التي أوحى إليهم أن يباشروا مشروعات ضخمة كهذه. وأما كان الأمر فإن الموارد السابقة وتدابير الدول الرومانية والقرطاجية كانت بالفعل غير مألوفة لدى أغلبية الشعب الهليني بحيث يبدو من الضروري أن تقدم لهذا التاريخ بمجلدين تمهيديين (٢) وهذا من شأنه أن يضمن ألا يجد أى قارئ نفسه في بداية روايتي

(١) هو السياسي الهليني البارز في عصره ٢٧١ — ٢١٣ ق. م (المحقق)

(٢) إن المجلد، وهو في أصله ومعناه الحرق عبارة عن لفة من ورق البردي أو الجلد، كان وحدة أصغر بكثير من المجلد الغربي الحديث (الطبع) (المحقق).

الرئيسية دون إجابة على سؤاله : أية سياسة كانت في أذهان الرومان ، وأية موارد عسكرية واقتصادية كانت في متناول أيديهم ، عندما شرعوا في هذا المشروعات التي أدت إلى أن أصبحوا سادة البحر الأبيض المتوسط بأسره وساحله أيضاً ؟ وسيوضح هذان المجلدان أن الوسائل التي كانت تحت أيدي الرومان قد استخدمت لخلق الدولة المالية والإمبراطورية المالية بالصورة التي حققوها ، وذلك بشكل يدعو للإعجاب .

ويعتبر الاتفاق الذي ساق كافة تدابير العالم في اتجاه واحد وجهها نحو هدف واحد ، هو الخاصية الشاذة للعصر الراهن ، وتعتبر القسمة الخاصة للعمل الراهن نتيجة لهذا الاتفاق . وتفرض وحدة الأحداث على المؤرخ وحدة مماثلة من التأليف عندما يصور لقرائه عملية قوانين الحظ على مدى واسع ، وكان هذا هو الباعث الرئيسي للنبيه لي في العمل الذي أخذته على عاتق . وإلا لكان من شأن هذا المجال أن يثبت جذبية أقل لطموحي . والذي حدث هو أن الحروب المحلية وبعض التدابير المرتبطة بها قد تناولها عدد من المؤرخين ، بينما لا يوجد مؤرخ واحد ، على ما أعلم ، حاول أن يفحص ، من وجهة النظر العامة ، العلاقات الداخلية لتتابع الأحداث وأصولها ونتائجها . وقد جعلني يقيني هذا أشعر بالضرورة المطلقة لعدم إغفال أكثر إجراءات الحظ جدارة بالإعجاب والتي لها دلالة تثقيفية أو المرور دون تعليق واحد عليها . إن الحظ وهو ذلك التورى الجبار ، الذي جعل من حياة البشر قطع شطرنج في يديه ، لم ينجز من قبل عملاً بطولياً مثيراً للدهشة كهذا العمل الذي قام به لصالح جيلنا . إلا أن الموضوعات التي دمجها المؤرخون التخصصيون لا تقدم أى إشارة للصورة الكاملة ، وإذا ظن أى قارئ أن معاينة البلدان الرئيسية ، كل بمزله عن الآخر ، أو بالأحرى ، أن تأمل تواريخها المحلية كل على حدة ، من شأنه أن يقدم له صورة مريضة للعالم في تربيته ووضع العام ، فإنني أرى من واجبي أن أسارع بفضح مغالطته هذه ، لأنني أعتقد أن الإصرار على القول بأن البداية بالتاريخ المحلي تقدم نظرة متزنة عن الظاهرة بأسرها ، أمر خاطئ . كخطأ الظن بأن تأمل عضو من أعضاء الجسم ، يعادل الملاحظة المباشرة للكائن نفسه بكل ما في

الحياة من طاقة وجمال . وإننى لأتصور أن أى إنسان يتمسك بمثل هذا الوضع عليه أن يقبل توأ جسامته خطئه المضحك ، فى تصوره أن ساحراً ما يوسمه أن يكشف له سر الكائن ، بضربة واحدة ، فى مثل كمال شكله الأصيل وفيض حيويته . حقيقة أن الجزء قد ينبىء ويقدم لمسة عن الكل ، إلا أنه ليس من الممكن أن يقدم معرفة دقيقة ومؤكدة عنه ، يستدل من هذا أن الإحصائيين قد أسهموا بالزر اليسير نحو فهم حقيقى لتاريخ العالم . فإن دراسة الاتصالات العامة والعلاقات والتماثلات العامة والأختلافات العامة هى الطريق الوحيد لفهم عام ، وبنيها لا يمكن استخلاص فائدة أو متعة من البحث التاريخى .

تاريخ العالم

مقدمة المجلد التاسع

(نص توبنر تحقيق بتز وبست الكتاب التاسع ، فصول ١ - ٢)

إننى أدرك أن هناك شيئاً ما لا يستساغ فى عملى ، على اعتبار أنه يوافق طبقة خاصة من القراء ، وأنه معرض للنقد بسبب رتابة أسلوبه . إن سائر الكتاب الآخرين تقريباً ، أو غالبيتهم على أى تقدير ، يقدمون جميع فروع الكتابة التاريخية على اختلافها ، ولهذا فهم يجتذبون جمهوراً عريضاً يتصفح مؤلفاتهم . فمن يحب القصة يجذبها الجانب الخاص بالأنساب ، والمقول التوافقة للاستطلاع والتمحيص تجذبها أبحاث أصول الدول ، وقيام المستعمرات وموضوعات الأجناس البشرية كتلك التى نجدها عند « إيفورس » Ephorus ، فى حين تميل المقول ذات الاتجاه السياسى إلى ذلك الجانب الذى يعنى بأعمال الناس والدول والحكام . أما أنا فقد هيأت نفسى بوجه خاص إلى هذا الجانب الأخير ، وأنا إذ أجمع على كله حول هذا المركز الذى طاب لى ، أكون ، كما قلت ، قد جعلته يناسب طبقة

خاصة من القراء ، وذلك على حساب جملته مادة غير جذابة بالنسبة للغالبية . أما الأسباب التي حدثت بي إلى نبذ الفروع الأخرى والتزم الجانب العملي ، فقد شرحتها بتفصيل وافٍ في مكان آخر . ويبدو أنه ليس هناك ما يحول دون إيجازها مرة أخرى حتى أؤكد الاتجاه وأفيد قرأني .

وحقيقة الأمر ، أن قصة علم الأجناس والأصول والأساطير والسلالات والاستمرار قد تعددت روايتها من جانب كتاب كثيرين لدرجة أن أي مؤرخ يتناول القصة اليوم ، لا يجد مندوحة من أن يختار بين إعادة قول الغير على أنه قوله ، وهذا مسلّك غير أمين بالمرّة ، أو أن ينزع إلى تقرير حقيقة قائمة لاسبيل إلى إخفائها ، فيعترف صراحة بأن الموضوع الذي يبني عليه أفكاره وبراعته الأدبية إنما قد تناوله من سبقوه بصورة وافية . ولهذا السبب ولغيره من أسباب تخليت عن هذه الفروع من جهة واحتضنت الفروع الخاصة بالإجراءات العملية - فأولاً ، لأن المادة الحديثة تراكم دائماً وتتطلب تسجيلاً حديثاً (لأنه يستحيل منطقياً أن يخبرنا كتاب الماضي بمعاملات الفترات المتأخرة) ، وثانياً ، لأنه فرع تثقيفي أكثر من غيره . لقد كان هذا الأمر صحيحاً على الدوام ، إلا أنه لم يكن صحيحاً كما هو صحيح اليوم ، إذ أن تقدم المعرفة والتسكيت قد بلغ حداً أمكن معه تناول أي ظاهرة يكشف عنها تطور الأحداث تناولاً علمياً وبأيدٍ خيرة . ومن ثم لم أستهدف إمتاع القارئ العادي بقدر ما استهدفت تثقيف الدارس الجاد . وعلى هذا فقد آليت على نفسي أن أتمثل هذا الفرع وأن أهمل الفروع الأخرى . وسوف أجد أقوى دليل على إنصاف رأيي عند الدارس الواعي .

ديودورس الأجيرومي

Diodorus of Agyrium .

(٩٠ - ٢٠ ق. م)

مكتبة التاريخ العالمي

(نص توينر، تحقيق ف. فوجل F. Vogel الكتاب الأول الفصول ١ - ٥)

يستحق كتاب التاريخ العالمي شكر زملائهم ، واعترافهم بالفضل للروح التي يقدمون بها أعمالهم من أجل خير البشر . لقد اكتشفوا سر تقديم الثمار من التجربة دون عناء ، ولهذا لديهم معرفة ذات قيمة لا تقدر يقدمونها إلى قراء مؤلفاتهم . وإن الشاق والمحاطر لهن ضريبة الحكمة التجريبية التي تجلبها الحياة اليومية ، وإننا لنجد أن البطل الأسطوري الذي تعتبر خبراته ثمينة جداً ، عليه أن يتكبد الشاق المصنفة من أجل ...

أن يرى مأوى أناس كثيرين

وأن يقرأ ما يجيش في صدورهم

بينما نجد التاريخ قادراً على أن يقدم معلوماته دون آلام بتقديمه فكرة عن فشل الآخرين ونجاحهم . ونحن مدينون كذلك لهؤلاء المؤلفين لما بذلوا من جهد لتألف سائر الجنس البشري ، الذي ينخرط أعضاؤه جميعاً في نظام واحد عظيم ، رغم حواجز المكان والزمان . وهم في مقام هذا ، لم يعتبروا أنفسهم أكثر من خدام للعناية الإلهية . وقد ربط الله برابته سير نجوم السماء وطبائع الناس في نظام واحد ، وحفظها في حركة دائمة إلى الأبد . وأعطى لكل واحد حظه المقسوم هذا ، بينما يقوم مؤرخو العالم بتسجيل المعاملات العامة للعالم كما لو كان مجتمعاً قائماً بفرده ، ويفضلون تدابير الناية الإلهية خلال القيام بعملية الفحص العظيم للتنظيم الداخلي .

وإياه لن نعم الله علينا أن يعطينا الفرصة لتطوير أنفسنا بتحاى أخطاء الآخرين،
 وفى كافة فرص هذه الحياة الزائلة وتغيراتها، فإن المرء حر فى أن يكرر نجاح
 الماضى بدلاً من أن يكون مجبراً على تجربة مؤلة فى الحاضر. وفى أمور الحياة
 العادية، تعتبر أحكام الجيل الأكبر مقبولة دائماً من جانب الجيل الأصغر، وذلك
 للخبرة التى حصل عليها ذلك الجيل على مر الزمن، إلا أن المعرفة التى يقدمها
 التاريخ تفوق خبرة الأفراد فى قيمتها، وذلك لتفوقها الواضح فى الدرجة والقيمة.
 وسوف تكون الفائدة الكبرى من هذه الدراسة موضع رضا عام بالنسبة لكل
 موقف معقول فى الحياة. ويفيد الصغار من هذه الدراسة عن طريق فهم الكبار،
 وتتضاعف بفضلها تجربة الكبار إلى مائة ضعف، وبفضلها يتحول عامة الناس إلى
 قادة، والذين ولدوا ليتولوا مراكز قيادية يثيرم خلود الشهرة التى تقدمها لهم
 هذه الدراسة فيقومون بمشروعات نبيلة، وينبهر الجنود أيضاً بالمجد المرتقب مما يدفع
 بهم إلى المفاخرة بحياتهم فى سبيل بلادهم. أما الآثون فيقف فى وجوههم
 الخزى الأبدى الذى يتوعددهم به التاريخ جزاء دوافعهم الشريرة. وعلى العموم، فإن
 فضائل التاريخ لتت مجدداً كبيراً، حتى إن الأمل قد دفع بالبعض ليقوموا بتأسيس
 الدول، وبالبعض الآخر كى يقدم قوانين تسهم فى أمن البشر، وبالبعض الثالث
 كى يقوموا باكتشافات علمية وعملية أفاد منها الجنس البشرى كله. وتزايدت
 درجة السعادة الإنسانية نتيجة لكل هذه الجهود، فبينى والحال هكذا أن يعود
 للديح كله إلى التاريخ، فهو السبب الرئيسى فى هذا كله. إذ يمكن القول بأن
 التاريخ وصى على الذين يريدون الاحتفاظ بالشهرة، وهو الشاهد على الذين يفرطون
 فيها، وهو صاحب الفضل على الإنسانية بأسرها. حتى إن أسطورة الجحيم، وهى خرافية
 تماماً، تعتبر أداة فعالة لتحويل قلوب الناس إلى البر وخافة الله. وعلى هذا، فبأى قدر
 من العظمة، يجب علينا أن ندرك أننا القوة الفعالة عظيمة القدر بالنسبة للتاريخ،
 نبى الحقيقة وينبوع الفلسفة؟ وسر الطبيعة هى أن حياة الأفراد جزء ضئيل جداً
 من الأبدية إذا ما قورنت بالزمن الذى يحىء وهم غير موجودين فيه أما أولئك
 الذين لم ينجزوا ما يستحق الذكر فى حياتهم، فإن موت الجسد يعقبه انقراض

وجودهم تلمأ ، أما أولئك الذين أكسبهم قدراتهم المجد ، فإن الثناء الذى يقطر من شفاء التاريخ القدسية ليؤكد ذكرى خلود أعمالهم . والشخص الحكيم هو من يجد فى الشهرة الخالصة بالطبع تمويصاً مجزياً عن المتاعب الزائلة . ومن المعروف تماماً أن « هرقل » Heracles قد كرس وقته كله الذى قضاء فى هذا العالم فى تحمل ثورى المتاعب والأخطار المصنية المستمرة . ومن أجل هذا كان ينبغي أن يحظى بالخلود باعتباره صاحب فضل على الجنس البشرى . كذلك القديسون الذين حازوا شرفاً بطولياً أو إلهياً ، مدينون جميعاً بكل ما حصلوا عليه من مجد إلى الخلود الذى جعل التاريخ يتفرغ لما حققوه . أما سائر الذكريات الأخرى فهى زائلة وعرضة للتلف تحت ظروف كثيرة ، إلا أن التاريخ ، الذى يمتد سلطانه على العالم ، وجد فى الزمن متلاقاً كبيراً ، وحارساً فى الوقت ذاته لتراته الدائم من أجل الأجيال القادمة .

والتاريخ معلم البلاغة ، وموهبة الواهب ، فالبلاغة تجعل الهلبنى فى مرتبة أعلى من غير الهلبنى ، والتعلم فوق الجاهل ، وهى السلاح الوحيد الذى يمكن رجلاً بمفرده من أن يتغلب على كثيرين . وعلى العموم ، فإن أية قضية تتوقف على مقدرة الرجل الذى يرضىها . إننا نطلق على الطيبين من الناس أنهم (جديرون بالذكر الطيب) بمعنى أنه الجزء الذى استحقوه لقاء ما قاموا به . وفى الفروع المدينة التى تنقسم إليها البلاغة ، يقدم الشعر المنفعة أكثر من المنفعة ، والتشريع يتجه للعقوبة أكثر منه للتعليم . كذلك فإن الفروع الأخرى لا تسهم فى السادة الإنسانية ولا تقدم محصولاً يجمع بين الحنطة والحشائش ، بل يخون بعضها الحقيقة . وليس فى التاريخ اتساق بين الحقائق وممناها الحرفى فحسب ، بل هناك وحدة لكل منفعة . انظر إلى ثماره وأنت تدرك أنه يهدف للصواب وينبذ الشر ويحبد الخير ، وبعبارة موجزة ، يضيف إلى الذين يدرسون الحكمة الإنسانية .

إن تأمل الاستحسان الذى قبل به المؤرخون قد أثار فى حماساً مماثلاً للموضوع ، أوله معنى دراسة من سبقون فى هذا المضمار أقوى الشاعر للاتفاق معهم فى الهدف .

وأكد أشعر في الوقت نفسه ، بأن إمكانيات المعرفة الزاخرة والكامنة قد تحققت في أعمالهم . وتتوقف قيمة مثل هذه الأعمال بالنسبة للقارى ، على درجة تمهيد أكبر عدد من الظروف وتباينها ، إلا أن معظم المؤرخين يقتصرون في تسجيلاتهم على حروب متفرقة شنها أناس بعينهم أو دول بعينها ، بينما حاولت قلة منهم تسجيل أعمال الجنس البشرى منذ أقدم العصور حتى عصرهم . ومن هذه القلة أيضاً ، من اقتصروا على الأعمال التي قام بها السالم الهليني . ورفض البعض أساطير الأقدمين على اعتبار أنها مادة صعبة . واختطف القدر البعض الآخر قبل أن ينجحوا في إتمام برنامجهم الذي شرعوا فيه ، لدرجة أنه لا يوجد بين الذين وضعوا لأنفسهم برنامجاً محدداً بدءوا فيه فعلاً ، كاتب واحد واصل تأريخه إلى ما بعد عصر القديونيين . وقد اختتم البعض تسجيلاته بأعمال فيليب . وتوقف آخرون عند « الإسكندر Alexander » وآخرون عند خلفاء الإسكندر في الجيل الأول أو الثاني . وبرغم أن الأعمال فيما بين التاريخ الأخير وجيلنا ، والتي تركت دون أن يقرها أحد ، عديدة وهامة ، فإن إتساع الموضوع قد منع أى مؤرخ من أن يحاول تناولها في حدود عمل واحد . وترتب على هذا أن تكثر تسجيل الأعمال التاريخية في عدة مؤلفات كتبها مؤرخون متعددون وتناولوا فيها الفترات المتباينة . ولهذا كان من العسير أن تتحكم في الموضوع كوحدة كاملة أو حتى تتذكره .

وبعد أن انتهت من فحص مؤلفات مختلف الكتاب الذين سبقت الإشارة إليهم ، قررت أن أكرس جهدي في موضوع تاريخي يجمع بين أكبر منفعة ممكنة مع أقل احتمالات لإدخال الملل على القارى . وقد وضح لى أن كل مؤرخ منهم بذل أقصى الجهد في تعقب الأعمال التاريخية المسجلة عن العالم بأسره منذ أقدم العصور ، على أساس تناول الموضوع من ناحية واحدة . وبهذا أتى على عاتقه عبثاً هائلاً ، إلا أن العمل الناتج عن مجهوداته في الوقت نفسه ، كان من شأنه ، أن يؤتى ثماره لجمهور القراء ويعتبر مورداً غنياً يستطيع كل واحد أن ينهل منه ما يروى ظمأه دون مشقة . والقراء الذين يحاولون أن يتلصوا طريقهم وسط نيه الأعمال التاريخية القائمة ، يواجهون في الحل الأول ، صعوبة الحصول على مناخل للكتب اللازمة

ويعيدون ، فى المحل الثانى ، أن سيادة الأحداث تنوء منهم فى أشدات المؤلفات المنشورة المتشعبة . ومن جهة ثالثة ، فإن تناول الموضوع كوحدة يسهل المهمة على القارىء وذلك بتزويده برواية مستفيضة ، يسهل التحكم فيها . وعمل القول ، فإن تفوق هذا الفرع من التاريخ على بقية الفروع يقدر مثلما تقدر منفعة الكل الفائدة بالنسبة إلى الجزء ، ومنفعة الدوام بالنسبة إلى عدم الاستمرار ، فضلاً عن فوائده فى إيجاد تعويم دقيق للروايات التى لا يكاد يظهر منها أكثر أدلة التاريخ غوضاً .

وانطبع فى نفسى أيضاً مدى الفائدة من عمل يمتدنى النهج السابق ذكره رغم التضحية بالجهد والوقت اللازمين ، وعلى ذلك فقد كرست ثلاثين عاماً لهذه المهمة ، تعرضت خلالها لمتاب وخاطر لا بأس بها فى القيام برحلات طويلة فى آسيا وفى أوروبا أيضاً . وقد قررت أن أقف بنفسى على أكثر الأماكن ، على الأقل الهامة منها ، لأن الافتقار إلى معرفة خصائص الأماكن ضلل دائماً الكتاب الذين هم فوق المستوى المادى ، أو حتى بعض من ذاع صيته منهم . وكان رأسمالى الوحيد لتنفيذ مشروعى هو حماس للعمل — تلك الروح التى مكنت الطبيعة البشرية من فعل المستحيلات الواضحة — بلى ذلك ، مواد دراسة موضوعى التى تتوافر فى روما . إن تفوق روما وسلطانها الذى يمتد إلى أقاصى الأرض ، قد وفر لى خلال الفترة الطويلة التى أقمت فيها هناك مصادر لا تحصى وتسهيلات . أما موطنى (أجيريم) فى صقلية ، واتصالى بالمستوطنين الناطقين باللاتينية فى الجزيرة ، فقد جعلنى أجيد اللغة اللاتينية إجادة تامة ، ولهذا استطعت أن أستخلص معلومات دقيقة عن كافة المعاملات الرومانية من السجلات المحلية ، التى كانت محفوظة منذ تاريخ مبكر . واتخذت الأصول الأسطورية للمالين الهليني وغير الهليني ، نقطة بداية لتاريخى ، حسب الروايات المتباينة التى لم أذكر وسماً فى الإفادة منها .

والآن وقد تم برنامجى ، قبل أن أعرض نتائج جهودي على الملأ ،

(١) كانت اللغة السائدة فى صقلية حين ذاك (وحتى القرن الحادى عشر بعد المسيح) هى اللغة اليونانية (المحقق) .

ينبغي أن أهد لها مجلد صغير يحتوى على العمل كوحدة قائمة بذاتها . فجلداتى الستة الأولى تحتوى على أعمال وأساطير سابقة على الحرب الطروادية — المجلدات الثلاثة الأولى غير هيلينية ، بينما تركز غالبية المجلدات الباقية بتاريخ هيلاس القديم . وسجلت فى المجلدات الأحد عشر الأعمال العامة للعالم منذ الحرب الطروادية حتى موت الإسكندر ، بينما أتيج لى فى المجلدات الثلاثة والعشرين التالية أن أسجل سائر الأعمال بين ذلك التاريخ وبداية الحرب الكلتية — الرومانية Celto — Roman التى حطسم فيها « جايوس يوليوس قيصر » Gaius Julius Caesar ، قائد القوات الرومانية التى أحرزت له شرفاً مقدسياً ، مقاومة غالبية الشعب الكلتى (بما فيها معظم المحاربين) ، وبسط سيادة روما حتى الجزر البريطانية . وقد تمت العمليات الأولى لهذه الحرب فى السنوات الأولى للأولمبياد المائة والثمانين ، وفق السنة التى حكم فيها « هيرودس » Herodes فى أينا .

كانت تلك هى الأبعاد الزمنية لعملى ، إلا أننى لم أسع إلى تقويم محدداً لحدث ما قبل الحرب الطروادية ، طالما لم تقع فى يدى أية قائمة تحتوى على تواريخ لهذه الفترة يمكن أن يوثق بها . وفيما بين الحرب الطروادية وعودة « بنى هرقل » حذوت حذو « أبولودورس » Apollodorus الأثينى فى اقتراضه فترة ثمانين عاماً ، وأن الفترة بين التاريخ الأخير والأولمبياد الأول قد قدرت بثلاثمائة وثمانية وعشرين عاماً ، قام فيها حكم ملوك إسبرطة Sparta ، فى حين أن الفترة بين الأولمبياد الأول وآخر تاريخ لعملى ، هو بداية الحرب الكلتية ، تقدر بسبعمائة وثلاثين عاماً . ينبغى أن توضع فى الاعتبار . لذلك فإن الأربعين مجلداً التى تشتمل على عملى بأكمله تحتل فترة تقدر ب ١١٣٨ سنة ، دون أن تدخل فيها الفترة التى حدثت فيها أحداث سابقة على الحرب الطروادية .

إن الهدف من هذه القائمة الدقيقة للمحتويات لم يقتصر على تقديم مفهوم لخطئى فحسب ، بل يمنع أيضاً تجار النشر عن ممارسة تشويه مؤلفات النبر . والجزاء الوحيد الذى أرجوه هو أن تجد الفقرات الناجحة فى مؤلفى قبولاً كريماً وأن نجد

الأخطاء تصويماً من جانب قراء أكثر منى كفاية . فهذا يتم برنامجي ، وما على الآن إلا أن أحاول إنجاز وعدى فأقدم العمل ذاته .

ديونوسيوس الهالكارناسي

Dionysius of Halicarnasus

(عرف في النصف الأخير من القرن الأول ق . م)

تاريخ روما القديم

(نص توينر ، تحقيق ك . جاكوبي C . Jacoby الكتاب الأول .

الفصول ١ - ٨)

أراني ملزماً ، وهذا لا أرغب فيه كثيراً ، أن أقدم هذه الملاحظات الشخصية الأولية وهي سمة جد شائعة في مقدمات الأعمال التاريخية . وأيما كان الأمر ، فإنني لا أنوي أن أسهب في الحديث عن جذارتي ، لأنني أدرك تماماً أن الحديث فيها من شأنه أن يبعث السأم لدى قرائ ، كما لا أنوي الخوض في التيل من زملائي الكتاب ، على نحو ما فعل « أناكسيمينيس » Anaximenes و « ثيوبومبوس » Theomopus في مقدمات مؤلفاتهما التاريخية . أما الدافع عندي ، فهو ببساطة ، شرح الأسباب التي حدثت بي شخصياً أن أباهر هذا العمل ، وأن أولى بعض الأهمية لمصادر معلوماتي . وأعتقد أن أي فرد يريد أن يترك للأجيال المقبلة بعض الذكريات تبقى بعد زوال وجوده المادي ، عليه أن يلتزم — بالدرجة الأولى ، ولا سيما كاتب المؤلفات التاريخية (ذلك الذي يقدر ما تعتقده المبدأ الأول لكل حكمة وإدراك وهو الحق) — باختيار موضوع جيد ذي طبيعة سامية يفيد القارئ حقاً . وبلى ذلك في الأهمية أن يولي هذا الكاتب أقصى العناية والبذل لتزويد نفسه بالمصادر الصحيحة لمؤلفه الخاص . وهناك بالطبع مؤلفون دفعهم التمشط الشهرة إلى الضلال ، دون نظر إلى طبيعة هذه الشهرة أو المناسبات التي يعرضون فيها قدرتهم

الأدبية في عمل من أعمال البطولة . وهناك من اتخذوا من أحداث شائنة أو سخيصة أساساً لمعلمهم . فمثل هؤلاء الكتاب لا يستحذون على إعجاب الأجيال المقبلة بمعارفهم ولا يشتهرون بأعمالهم أو قدراتهم ، بل إنهم يتركون ، في كل عقل يدرس مؤلفاتهم ، انطباعاً مؤداً أن أهدافهم الشخصية في الحياة قد انمكست فيما ينشرون — إذ أن المؤلفات الأدبية ينظر إليها في العادة وبشكل عام على أنها مرآة لشخصية مؤلفها . كذلك الكتاب الذين يختارون موضوعات طريفة إلا أنهم يكشفون فيها عن سواتهم وعن اعتمادهم الصريح على الإشاعات ، لا يتألون أى ثقة فيما يختارونه ، لأن هذا الاتجاه يؤذى مشاعرنا ، حينما نرى تاريخ الأمم المعروفة ومشاهير الحكام يعالج بطريقة لرتجالية . كانت تلك إذن هي المبادئ التي اعتبرها ضرورية لكتاب التاريخ . وقد أوليت اهتماماً كبيراً لكل منها ، ولهذا لم أشأ أن أتركها دون تسجيل ، وما كنت لأجد مكاناً أكثر ملائمة لها من مقدمة مؤلفي هذا .

وأنا على ثقة بأن الأمر لا يتطلب عبارات كثيرة لتوضيح جودة الموضوع الذي اخترته ، وسمو طبيعته أو اتساع نطاق الإفادة منه . هذا إذا ما افترضت سلفاً في قرأتى الإلمام بالمبادئ الأولية للتاريخ العام . وما على هؤلاء إلا أن يعودوا بذكريتهم إلى إمبراطوريات الماضي (سواء التي أخذت شكل المدن الرئيسية أو شكل الأمم) والتي لها سجلات تحت أيدينا ، وأن يفحصوها أولاً منفردة ثم مقارنة ، بقصد تحديد أيها حاز سيطرة أوسع وقام بأكثر الأعمال للمعية في السلم والحرب . وسيجدون أن الإمبراطورية الرومانية قد فاقت بشكل لا يمكن قياسه كافة الإمبراطوريات التاريخية التي سبقتها ، ليس في اتساع رقعتها وروعة أعمالها بحسب ، (تلك الأعمال التي لم تقدر بعد حق قدرها في الأدب) ، وإنما في طول أمدها حتى عصرنا الراهن أيضاً . إن الإمبراطورية الآشورية Assyrian القديمة شبه الأسطورية لم تمتد رقعتها إلى أكثر من جزء في آسيا ، والإمبراطورية الميديّة Median التي أطاحت بالإمبراطورية الآشورية وأظهرت سلطاناً أعظم ، فقد انقضت إلى البقاء وسقطت في الجليل الرابع . والفرس الذين قهرروا الميديين

وامتد سلطانهم على سائر آسيا تقريباً ، لاقت محاولاتهم في إلحاق الهزيمة بشعوب أوروبا نجاحاً محدوداً وظل ضعف سلطانهم أكثر من قرنين . كذلك السيطرة المقدونية التي أطاحت بفارس القوية وفاقَت رفعتها كافة الإمبراطوريات السابقة ، تمتعت برخاء عابر وبدأت في الاضمحلال عقب موت الإسكندر . وتفسخت الإمبراطورية ، في الجيل الأول لخلفائه ، بين عدد من الحكام التنافسين ، وظلت قوتها مدة جيلين أو ثلاثة فقط قبل أن تنهار بفعل التدهور الذاتي حيث اكتسحتها رومانهاً . حتى الإمبراطورية المقدونية لم تبسط سيادتها الشاملة على البحر والبر ، ولم تبرز موطئاً لقدم في شمال أفريقيا بعيداً عن الركن المجاور لمصر ، ولم يتيسر لها أن تخضع سائر أوروبا ، ولم تتقدم شمالى القارة التي تقع فيها إلى أبعد من (تراقيا) شرقاً أو أبعد من الأدرياتيك غرباً .

تلك كانت أقصى حدود السلطان والرخاء التي بلغتها الإمبراطورية السابقة ، والتي يوجد بها قبل أن تسقط سجل تاريخي تحت أيدينا . كما أنه بالنسبة للدول الهلينية ، فإن امتداد إمبراطوريتها وفترة عظمتها كانت ضئيلة جداً إذا ما قورنت بالإمبراطوريات السابق ذكرها دون أى وجه للمقارنة . واقتصرت الإمبراطوريات الأتينية التي ظلت ثمانية وستين عاماً ، على الساحل وعلى مجرد شريط ضيق بين البحر الأسود والبحر البامفيلي Pamphylian حتى في أوج سلطان أثينا البحري . إن الإمبراطورين ، الذين انتهت إمبراطوريتهم ، قبل أن يتمتعوا بها أكثر من ثلاثين عاماً كاملة ، على أبدي أهل طيبة ، نجحوا فقط في بسط سلطانهم على جزر البيلوبونيز وبقية هيلاس كما فعلت مقدونيا وأصبح أمام روما أن تقيم إمبراطوريتها على كل ما يمكن الوصول إليه من ممتلكات على وجه الأرض حتى حدود الممران البشري ، وكذلك البحر بأسره — لا البحر المتوسط فحسب ، بل كافة مياه الأطلنطي الصالحة لسير السفن . إن روما وحدها ، دون سائر الدول التي عرفها التاريخ منذ عصوره الأولى ، هي أولى من امتدت حدودها ، من مشرق

الشمس إلى مقبها ، وحافظت على سلطانها لا لفترة زمنية وجيزة فحسب بل لفترة ليس لها مثيل في أية دولة أو مملكة أخرى . لقد أخذت تؤكد سلطانها عقب تأسيسها مباشرة على جيرانها المحاربين المديدين ، ولم يفلت أى منافس من الخضوع لها ، وانعقد لها لواء النصر هذان انقطاع لمدة سبعمائة وخمسة وأربعين عاماً ، حتى زمن قنصلية « كلوديوس فيرون » ^(١) Claudius Nero و « بيزوكالبيورنيوس » Piso Calpurnius اللذين انتخبا في الأولياد الثالث والتسعين بعد المئة . وما إن ركمت سائر أجزاء إيطاليا تحت أقدام روما ، حتى تطلعت في جرأة إلى سيادة العالم . وحينما طردت (قرطاجنة) Carthage الدولة البحرية الأولى من البحار ، وقهرت مقدونيا ، التي كانت تعتبر الدولة البرية الأولى من قبل ، بقيت روما دون منافس في العالم الهليني وغير الهليني على السواء . إن إمبراطورية روما العالمية ، التي قامت على هذه الصودة ، بلغت الآن الجليل السابع ، ولا تكاد توجد أمة تتحدى حتى سيطرتها على نفسها ، ناهيك عن سيادتها العالمية . وبقينا فإني في حل من إيراد أى إيضاح أكثر يخرج بي عن الموضوع الأصلي . لأننى لم أختار موضوعاً نافعاً ولم أقرر أن أرى أعمالاً سخيفة أو نافهة .

وأما كان الأمر ، فينبى أن أورد عبارات تمهيدية قليلة لأشرح أن تخصصى في (تاريخ روما القديم) كان قراراً صادراً عن ترو وتمقل ، اتخذته وأنا في وضع تسانده الحجة القنعة . وإلا فمخاطر في أن أصبح على إدانة أولئك النقاد الخصوص الذين لا يسمهم شيء ، والذين سوف يلومونى لأننى أعرضت عن كافة الموضوعات الشهيرة التي يتضمنها تاريخ روما وانصراقي إلى تاريخها القديم غير الواضح . سوف يقولون لى إن مجد روما المعاصر وليد أصول وضيمة غير مجيدة ولا تستحق التناول التاريخى . فشهريتها وعظمتها تعودان إلى إلقاء الهزيمة بالدول القديونية وانتصارها وايد الحروب البونية ^(٢) Punic war ، لمدة أجيال مضت نسبياً . وردى على

(١) كان توليه الحكم للمرة الثانية في عام ٧ ق . م

(٢) البونية . الحقيقية . . مثل القرطاجيين (المحق) .

ذلك هو أن تاريخ روما القديم مازال بالفعل كتاباً مغلقاً بالنسبة للجمهور الهليني فإن الأغلبية قد ضلها إلى رأى الزائف ، الذى لا يقوم على أساس سوى الإشاعة التى تقول بأن مؤسسى روما كانوا متشردين غير متحضرين وخارجين على القانون ولم يولدوا أحراراً ، وأن سر تقدم روما التدريجى نحو سيادة العالم لم يكن فى استقامتها أو فى خوفها من الله ، أو أى صفة خلقية ، وإنما كان ضربة عشواء ، وعملية حظ آتية لا أخلاقية ، ذلك الحظ الذى أعذق أعظم هباته على معظم خدامه الذين لا جدوى منهم . وكان الأسلوب الشائع فى دوائر خيثة هو ترديد هذا الادعاء كثيراً جداً وإلقاء اللوم على الحظ لأنه منح امتيازات الهلينيين إلى البرابرة الفصحطين . ومن نافذة القول أن نتحدث عن العامة فى الوقت الذى لم يوجد فيه كتاب اجترأوا على وضع هذه القضية فى سجل دائم فى مؤلفاتهم التاريخية . وقد ضحى هؤلاء الكتاب بالحق والشرف فى سبيل إرضاء ملوك غير متحضرين . وصاروا لهم عبيداً محترفين مناقضين ، وكرهوا سيادة روما .

ون هدفى ، كما قررت ، هو أن أستأصل شأفة هذه الافتراضات الخاطئة من أذهان العامة وأن أغرس الحق مكانها ، وذلك عندما أترضى لمؤسسى روما وأنظمتها وأعمالها الأولى . وبالتالي سوف أشرح فى المجلد الحالى من هم مؤسسوها والتواريخ التى تجمع فيها قبل ذلك كل فريق على حدة ، والظروف التى دفعتهم إلى أن يهجروا مواطني أسلافهم ، وأنا كفيل بأن أوضح أنهم لم يكونوا مجرد هلينيين فحسب بل كانوا هلينيين بدرجة لا مثيل لها . فإن أعمالهم فى الفترة التى أعقبت تأسيس روما مباشرة ، والأنظمة التى تمكن خلفائهم بفضلها من أن يشيدوا هذه الإمبراطورية القوية ، سوف أصفها فى المجلد الثانى وما يليه ، وسوف أبذل قصارى جهدى فى ألا أغفل شيئاً يستحق الملاحظة التاريخية . وأمل فى أن يكون من نتيجة اكتشاف الحق ذلك التقدير الصحيح لروما فى عقول قرائى ، اللهم إلا إذا كانوا من أعدائها التعصبين الذين لا يمكن الوفاق معهم . ومن البلادة استكثار ما يتبع بشكل كامل القانون الطبيعى الشامل والأبدى فى مطابقتها على ما يكون عليه الضيف محكوماً بشكل ثابت من جانب القوى ، ومن البلادة كذلك أن تلوم

الحظ لأنه بدد هذه الإمبراطورية العظيمة طوال هذه المدققة حافة غير جذيرة بالشرف .
 وأحد الاكتشافات التي تنتظر قرأى هو أن روما منذ لحظة تأسيسها فصاعداً قد
 أخصبت عظمة خلقية سواء في الاستقامة ومخافة الله أو في ضبط النفس لمدة
 طويلة أو في الشجاعة الحربية ، فإن أبناء روما يمكن أن يصمدوا للمقارنة مع أبناء
 أية دولة أخرى ، هلينية أو غير هلينية . وإن ما أخشاه فقط هو أن الطبيعة المتناقضة
 الشاذة لتلك القضايا التي تكفلت بإثباتها قد تجعل من عمل هذا ماثار بفضاء قرأى .
 وأيما كان الأمر ، فإن الجماعة المجيدة التي أنشأت الإمبراطورية الرومانية ظلت غير
 معروفة تماماً إلى جمهور الهلنيين ، لأنها لم تجد المؤرخ المناسب . ولم يظهر لأعمالها
 تاريخ دقيق في اللغة اليونانية ، باستثناء ملخصات موجزة قليلة .

وحسباً أعرف ، فإن الكاتب الأول ، الذي مس تاريخ روما القديم كان
 « هيرونيوس الكاردى » Hieronymus of Cardia في مؤلفه عن الجيل الثاني
 خلفاء الإسكندر . ويليه « تيمايوس الصقلي » Timaeus of Sicily الذي تناول
 الفترة القديمة في تاريخه العام وأفرد مؤلفاً خاصاً للحرب مع « بيرهوس الأيروسى »
 Pyrrhus of Epirus وفضلاً عن هذين الكاتبين كان هناك « أتيجونوس
 بولوبيوس » Antigonus Polybius ، و « سيلينوس » Silenus وحشد آخر
 أدلوا بدلائهم في الأحداث ذاتها بنجاح أقل . وقد تناول كل منهم جزءاً من القصة
 وبنى تاريخه على الإشاعات بدلاً من توخى الدقة في بحث جديد . كما أنه ليس هناك
 ما يمكن إختياره بين هذه المؤلفات ونشرات المؤلفين الرومانيين الذين كتبوا التاريخ
 القديم بليلهم باللغة اليونانية ، وكان أقدمهم « كوينتوس فايوس » Quintus
 Fabius و « لوكيوس كينكيوس » Lucius Cincius وقد عاصر كلاهما الحروب
 البونية وكان دقيقاً في وصفه الأحداث بشكل مستفيض ، لأن كلا منهما شهد
 أحداثه . وعلى الرغم من هذا لم يقدم سوى تاريخ مختصر غير دقيق فيما يتعلق بروما
 القديمة في الفترة التي تلت تأسيسها . وقد أجبرتني هذه الاعتبارات على ألا أترك فترة
 تاريخية عظيمة بمهولة دون تسجيل حتى الآن ، ودون رواية دقيقة ، مما سيكون
 له شيجته الصادقة المادلة والأمانة والسارة . وستكون الشهرة الخالدة وإعجاب

الأجيال القادمة في المحل الأول ، جزاء الطيبين الصادقين ، ومن هذا حظهم . وهذا من شأنه أن ينسخ الطبيعة البشرية ويخلد أعمال الناس بعد موتهم . وفي المحل الثاني ستدفع هذه الشهرة الأحياء وخلفاء هؤلاء الأبطال الذين لم يولدوا بعد إلى تفصيل حياة الطموح النبيل على حياة التمة والدعة ، وفي اعتقادهم أن أولئك الذين تلقوا هبة وراثية أولية خصبة ، كان ينبغي عليهم أن يضعوا أنفسهم في مستوى أعلى ، وألا يبدوا أبداً غير جديرين بالانتساب إلى أسلافهم . إن جزائي الوحيد على انصرافي لهذا العمل ، دون التفكير في القلق ، بل التفكير في الحق والعدل (وهي الأهداف الحقيقية لكل تاريخ) ، يظهر أولاً في التعاطف مع كافة الذين ابتهجوا بشرف لدراسة الأحداث العظيمة للمهمة ، وثانياً ، في إزجاء الشكر إلى روما . وهذا ما في وسمى ، ذا كراً التربة والهبات الأخرى التي أسدتها لي روما أثناء إقامتي كغريب داخل أسوارها .

أما وقد قدمت الآن عرضاً لبرنامجي ، فلا يزال من واجبي أن أعرض للمصادر التي رجعت إليها عند كتابتي هذا التاريخ . إن القراء الذين يألون فملاً «هيريونيوس» و «تيايوس» و «بولوبيوس» أو أي كاتب آخر من الذين اتهمتهم آتفاً بالسطحية ، سوف يلاحظون أن الجزء الأكبر من مادتى غير موجود في مؤلفات هؤلاء الكتاب . وقد يكون من المعقول أن يتهمنى بالارتجال ، أو أنهم غير راضين عن المصادر التي استقيت منها معلوماتي . ويوسى أن أزيل مثل هذه الشكوك من أذهان قرأى بتقديم بعض الملاحظات الأولية عن الكتب والسجلات التي اتخذتها مرجعاً أساسياً لي . والحق أنني كنت في إيطاليا وقت أن كانت الحرب الأهلية توشك على نهايتها على يدى « أغسطس قيصر » Augustus Caesar في منتصف الأوليبياد السابع والثمانين بعد المائة ^(١) . ومنذ ذلك التاريخ مر اثنتان وعشرون عاماً ولم أغادر روما أبداً . فقد تملت اللغة اللاتينية ، وألمت بالأدب وشملت قسى بشكل مستمر بالدراسات المتعلقة بموضوعي الراهن . وقد حصلت

عن طريق الرواية الشفاهية على جزء من معلوماتي من أفواه الحكماء الرومان
 المشهورين الذين اتصلت بهم شخصياً . وطالعت جزءاً من الأعمال التاريخية التي
 تحظى بأكبر شهرة بين الرومان أقسمهم ، من أمثال « يوركيوس كاتو »
 Porcius Cato و « فايوس ماكسيموس » Fabius Maximus و « فاليريوس
 الأنشوي » Valerius of Antium و « ليكينيوس ماكير » Licinius Macer
 وأبل Aelii وجيل Gelli و كالپورني Calpurni وغيرهم من الكتاب المتأثرين .
 وتعتبر هذه الأعمال (التي تحتل التواريخ الهلينية المحلية) من الأسس التي اعتمدت
 عليها في مؤلتي . ولست في حاجة للحديث عن نفسي أكثر ، وعلى أن أذكر
 الحدود الزمنية لعملي ، ومحتوياته الرئيسية وخطته العامة .

وأبدأ قصتي بالأساطير الموغلة في القدم والتي أغفلها المؤرخون الذين سبقوني ،
 لأنها كانت تحتاج في تحقيقها إلى بحث مضمّن . وأصل بروايتي إلى بداية الحرب
 البونية الأولى ، والتي يرجع تاريخها إلى السنة الثالثة من الأولمبياد الثامن والعشرين
 بعد المائة ^(١) وقد سردت سائر حروب روما الخارجية التي وقعت في تلك الفترة ،
 وكذلك الإضطرابات الأهلية التي مرت بها ، مع بيان الأسباب التي أدت إليها
 وإلى إنهاؤها وسبل ذلك . وأتناول كذلك دساتير روما المتعاقبة سواء قبل سقوط
 الملكية أو بعدها ، وأصف مجلداتها . وأصف كذلك أكثر أنظمتها إيجاباً وأكبر
 قوانينها شهرة . وبالاختصار أقدم صورة كاملة عن حياة روما في الأزمنة النابرة .
 وتختلف الخطة التي أبني عليها مؤلتي عن تلك الخطة التي يسلكها المؤرخ الحربي
 أو الدستوري الخالص ، ولا يكاد يشبه العرض الموجز الذي يرفقه الإخصائي
 وينشره عن تاريخ أئتنا المحلي ، فهناك رقابة كاملة في سائر هذه النماذج التي سرعان
 ما تبث الاستياء في نفس القارئ . وحاولت في مؤلتي أن أجمع بين الجوانب الثلاثة
 للأدب وهي الجوانب الجدلية والعلمية والترويجية ، على أمل أن يرضى ذلك كتاب
 الشئون الدولية ، الذين يمكن اهتمامهم في التأمل الفلسفي ، وأي قارئ يبحث عن

شكل هادى من اللهو فى دراسة التاريخ . ولقد أوضحت الآن موضوع مؤلفى وخطته .

(التوقيع) ديونوسيوس ابن الإسكندر الهاليكارناسى (مؤلف تاريخ روما القديم) .

إنجيل القديس لوقا

[المهدا الجديد فى الأصل اليونانى . تحقيق ب. ف. وستكوت B. F. Westcott وف . ا . هورت F. J. A. Hort (لندن ١٨٩٥ الناشر ماكيلان) الإصحاح الأول . الآيات ١ - ٤ : مهداة إلى ثاوفيلس]

عزيزى

لقد سمى شهود كثيرون من قبل الى أن يؤلفوا قصة فى الأمور التى تمت فى مجتمعنا ، وما إن وصلت اليها الكلمة من الذين كانوا منذ البدء معانين لها وكرسوا أنفسهم لصيانتها ، رأيت أنا أيضاً ، إذ قد تنبعت كل شئ حتى أصوله الأولى ، أن أكتب إليك تباعاً لصالحك ، على أمل أن أمدك بكلام صحيح فى الرواية التى أحطت علماً بها شفاهة .

فلافيوس يوسيفوس الأورشليمى

Flavius Josephus of Jerusalem

(٣٧ - ١٠٠ م)

الحرب اليهودية

(نص توينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الخامس ، تحقيق س . ا . نابير S. A. Naber الكتاب الأول الفصول ١ - ٦)

إن الحرب اليهودية الرومانية هى أعظم حرب فى أزمنتنا ، ولا نكون مغالين

إذا ما أضفنا أنها أعظم الحروب التي سجلت بين المدن العالمية أو الأمم على السواء. ومع ذلك فإن المؤلفين الذين لم يشتركوا في الأحداث ذاتها ، كتبوا تاريخها بأسلوب أكاديمي ، إلا أنهم جمعوا ما تواتر من أقوال اعتباطية وتعليقات متباينة عن طريق الإشاعات فيما حاول شهود العيان الأول ، بمحض إرادتهم ، أن يثملقوا الرومانيين أو أن يحرّفوا الوقائع بسبب كراهيتهم لليهود . وتحتوى مثل هذه الأعمال على قدح ومدح متبادلين ، دون أثر لأية دقة تاريخية ، مما دفعنى إلى أن أقدم لجمهور الإمبراطورية الرومانية ، فى ترجمة إلى اليونانية ، عملاً خاصاً بى ، تم تأليفه أصلاً فى لغتى الوطنية ^(١) ونشر فى الشرق غير الهلنسى ^(٢) . واسمى « يوسفوس » بن « ماثياس » Mathias . وأنا عبرى بحكم المنشأ من أورشليم ، وكاهن بحكم المهنة طربت ضد الرومانيين فى مسهل الحسرب ، واضطرتت إلى أن أشهد مراحلها الأخيرة .

لقد كانت هذه الحرب ، كما أشرت ، انفجاراً على أعظم جانب من الأهمية ، وقع الرومان خلالها فريسة الاضطرابات الداخلية ، فى حين أن العنصر الثورى بين اليهود ، الذى كان فى أوج مجده فى دءوس الأموال والقوات على السواء ، حدد وقت تمرده بحيث يفيد من الاضطرابات المنتشرة . وكانت الهزات المتعاقبة عنيفة لدرجة أن مصير الشرق تعلق فى الميزان بين الطرفين المتحاربين ، وكان لدى كل طرف على حدة أمل وخوف من النتيجة النهائية . فاليهود كانوا يأملون فى أن ينضم اليهم فى هبتهم ، مواطنونهم عن بكرة أبيهم فيما وراء نهر الفرات Euphrates ، فيما أقضت مضاجع الرومان هجمات جيرانهم الألمان ^(٣) ، والتفلاق بين رعاياهم الكلتيين Celtic ، والهزات الشاملة التى أعقبت موت « نيرون » ، إذ نتج عن

(١) اللغة الأرامية Aramic (الحق) .

(٢) المعنى الحرق (فيما بين غير الهلنسين والداخل) فلى سبيل المثال ، أن « الداخل » خلف الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية ، يتحدد من ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى أواسط الأراضى المحيطة (الحق) .

(٣) فى اليونانية جلاتيون Galatian (الحق) .

الوضع السياسى أن تطلع عدد من المتنافسين إلى العرش والسلطة العسكرية ،
 وألهمهم الأمل فى الثروة والخماس للتشجيع السياسى . وأحسنت بأنه من التناقض أن
 تظل الحقيقة الخاصة بأحداث ذات أهمية كهذه ، غير معترف بها ، وأنه ينبغي
 أن أحيط « البارثيين » Barthians و « البابليين » Babylonians وسكان الجزيرة
 العربية الأولى Arabia ، ومواطنى ماوراء الفرات وسكان (أديابين)^(١)
 Adiabene علماء ما وبشكل دقيق ، خلال جهودى أساساً ، بتقلبات الحرب وبتيجتها
 النهائية فيما لم يكن لدى الهلنيين وسائر الرومان الذين لم يشتركوا فى الحملة ، أفضل
 من الملقى أو الرويات الكاذبة التى تحجب الحقيقة .

إن فى الكتاب الذين أشرت إليهم وقاحة جملتهم يفتتحون (توارىخ) لأعمال
 ليست مريفة فحسب ، بل وفى رأى ، خبيثة المقصد تماماً . كان هدفهم أن يرضوا
 من قدر الرومان والآقلت منهم فرصة لحق اليهود وتحقيرهم ، رغم أننى
 لا أستطيع أن أدرك ، أية عظمة يمكن أن توجد فى التغلب على خصم نافه . وأيما
 كان الأمر ، فإن هؤلاء السادة لم ينجلوا سواء من طول أمد الحرب أو كثرة ضحايا
 الرومان أو قدرات قادة الرومان الفائقة — وهم فى رأى المتواضع ، قد حرموا مجد
 اليهود التى بذلوا فى حصارهم الشديد على أورشليم بسبب الخط من قدر أعمالهم .

وأيما كان الأمر ، فإننى لا أقصد أبداً ، أن أدخل الحلبة ضد أبطال الرومان
 وأن أقرع طبول مواطنى . وسوف ألزم بالموضوعية الكاملة عند التحدث عن
 أعمال كلا الفريقين ، رغم أننى قد أجعل من تعليق على الأحداث تعبيراً عن وجهة نظرى
 الذاتية . وقد أسمح لمشاعري الشخصية أن تجد ثغرة لثنا على مصائب بلدى . إن
 بلادى قد سقطت كما يسقط البيت الذى ينقسم على نفسه ؛ واشتد ساعد الرومان
 بسبب طينان قادة اليهود ، وأندلعت النيران فى المعبد المقدس بسبب أفعالهم . وقد

(١) المصطلحات الجغرافية الحديثة (الإيرانيون والمصريون والسكان العرب الأول
 والمستعمرات اليهودية شرق الفرات وسكان وادى الموصل ، على سبيل المثال أهم سكان العراق
 الأوسط فيما بين الهند من جانب والإمبراطورية الرومانية من جانب آخر ، وكان الآراميون هم
 صلة الموصل فى التجارة والثقافة كما كان الإغريق فى حدود الجانب الرومانى (الحق) .

أقر بهذا « تيتس قيصر » Titus Caesar ، الذى قام بأعمال التدمير ، كما أنه تروى فى استخدام سلطة التوردين إزاء السكان العزل خلال الحصار ، وأجل الهجوم على المدينة مرات كثيرة ، على أمل أن يصل هؤلاء المستولون إلى حل معقول خلال فترة الحصار الطويلة . إن هجومى الشديد على الطاعة قطاع الطرق ، إنما هو بدافع الألم إزاء المصائب التى أغرقوا فيها بلدى . وإذا ما رغب أى قارئ أن يتخذ من هذا رصيده ضدى ، فيوسمى فقط أن أطلبه بالتخلي عن العرف التاريخى فيعطى فرصة لشاعرى ، وأن يضع فى ذهنه أن (القدر) قد رفع مدينتنا إلى قمة من الرخاء أعلى من أية مدينة كانت فى حوزة روما ، ثم يلقى بها فى النهاية إلى الحضيض ، إلى أسفل مراتب الكوارث . وإن كافة كوارث الجنس البشرى التى عرفت منذ بداية التاريخ لتتضاءل ، فى رأبى ، إذا ما قورنت بالكوارث التى حلت باليهود ، ومستولية هذه الأكاذيب لا تقع على عاتق أى شخص غريب . وفى مثل هذه الظروف لا بد من جهد بشرى هائل يتجعد مشاعرى . ولكن إذا قسا أحد قرائى فى حكمه دون أن تتسرب إلى قلبه الرحمة ، فإننى أتوسل إليه أن ينظر إلى الكتاب على أساس الرواية التاريخية للأحداث وليحاسبنى أنا شخصياً على النواح .

وينبئنى فى الحقيقة أن يلتبس لى العذرى التهمج على المؤرخين الهلنيين ولوى لهم على سلوكهم . لأنهم يؤثرون ، إزاء أحداث معاصرة يمثل هذه الأهمية ، تتضاءل أمامها الحروب القديمة ، يؤثرون أن يظلموا نقاداً ، وتقاداً متحفزين ، للكتاب الذين ينامرون باقتحام هذه الساحة (رغم أنهم يتضاءلون إلى جانبهم فى المفهوم بالدرجة التى يتفوقون بها عليهم فى العمل الأدبى) . إنهم يرضون لأنفسهم كتابة تاريخ آشور Assyria وميديا Media وكأنهم استطاعوا أن يدخلوا تحسیناً على ما قدمه المؤرخون القدامى ، فى حين أنهم فى الحقيقة أقل من الآخرين فى القدرة الأدبية والذهنية . لقد كرس جميع المؤرخين القدامى أنفسهم لكتابة تاريخ عصورهم حين ساعدتهم مشاركتهم الشخصية فى الأحداث على إيضاح عرضهم التاريخى . وكان من المؤكد أن يكشف الجمهور الذى يعرف هذه الأحداث أى تزييف يقع من

جانبيهم . إن تسجيل أحداث لم ترو من قبل ، وإمكان وصول الأجيال القادمة إلى التاريخ المعاصر لهو نشاط جدير بأن تقف أمامه وتقدره . ولا يشتمل البحث التاريخي الأصيل على مجرد إعادة ترتيب المادة الخاصة بالآخرين ، وإنما يشتمل على إقامة بناء راسخ من المعرفة التاريخية التي تثبت شكلاً جديداً للحديث . فأنما الرجل الأجنبي ، لم أدخر جهداً أو مالا في سبيل إهداء الهلينيين والرومان مذكرات عن أعمالهم ، بينما يفتر بنو وطني أقواهم ، وتندل ألسنتهم حيث تنفق الأموال هناك في (الخان) ويمجدون أنفسهم مكسي الأقواء ومكتوفي الأيدي حيث يكون هناك حق يجب أن يحفظ ومعلومات تجمّع بالبحث المضني في كتابة التاريخ . إنهم يتركون هذه المهمة الأدبية إلى الإخوة الذين لا يملون بأعمال الشخصيات البارزة . إن أقل ما يمكن أن نعلمه نحن الشرقيين هو أن نولي الحق التاريخي بعض الأهمية ، الذي لا تضمنه هيلاس في حسابها حالياً .

تاريخ اليهود القديم — رد على أيون^(١) Apion

(مهدي إلى إيبافروديتوس (Epaphroditus)

(نص توينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد السادس تحقيق س. ا. نابز الكتاب الأول الفصول ١ — ٥٩)

عزري

أدرك أنني قد بينت ، في مؤلتي عن التاريخ القديم ، بشكل كافٍ لأي فرد على درجة متوافرة من حسن النية تؤهله ليصبح من عداد قرأني ، بينت التاريخ الموغل في القدم لجنسنا اليهودي ، وبقاء مجموعته الأصلية والظروف التي استقر فيها في البداية في البلاد التي ما زالت موطناً لنا . وهذه القصة ، التي تمتد إلى فترة

* كان كاتباً قديراً وعلماً يونانياً عرف بعدائه الشديد لليهود ، وهو أحد التنبؤيين اليونانيين الثلاثة الذين قابلوا كابوس بعد فترة الإسكندرية الشهيرة (المترجم) .

خمسـة آلاف عام ، أخذتها من كتبنا المقدسة وأعيد كتابتها باللغة اليونانية . في حين أنني ، أجد قسماً لا بأس به من الجمهور يتأثر بشكل كافٍ بالتحريفات المفرضـة من جانب أعدائنا الحقيقيين ، وذلك حتى يرتابوا في روايتي عن تاريخنا القديم ، ويجحدوا دليلهم ، على أن جنسنا حديث الأصل ، و أن أكثر المؤرخين الهلنيين شهرة قد جهلوا وجوده . وبناء على هذا أحسست بأنني ملزم بأن أسهم قليلاً في هذه المجادلة ، كي أفضح القصد الخبيث والإفك المبيت من جانب الذين يفرون علينا ، وحتى أصبح حبل محتالهم ، وأنير السبيل لألم سائر الذين يهتمون أصلاً بعرفة حقيقة أصولنا . وتدعيماً لآرائي ، سوف أسرد دليل الكتاب الذين ينظر الهلينيون إليهم على أنهم أكبر الثقة في مجال التاريخ القديم بأسره ، وذلك حينما أبين كيف أن الكتاب الذين افترضوا علينا وحرّفوا أفكارنا ، يمكن إدانتهم من أفواههم . وسوف أحاول شرح الأسباب التي أدت بالهلينيين إلى ذكر عدد قليل نسبياً من جنسنا في مؤلفاتهم التاريخية ، وسوف أبين فيما بعد الحالات التي لم يهمل فيها تاريخنا ، إلى أولئك القراء الذين لا يعرفونها أو هكذا يقولون .

إن الباعث الأول لي هو أن أعبر عن دهشتي إزاء أولئك الذين يعتبرون الهلينيين هم الثقة الوحيدين الذين يمكن تعلم حقيقة التاريخ القديم منهم ، في حين أنهم يعتبروننا والآخرين جميعاً غير جديرين بالتصديق . والأمر كما أراه أنا ، هو أن هذا قلب كامل للحقائق ، هذا إذا لم يكن علينا أن نسترشد بتأملات فارغة وإنما نترك الحقائق تنطق بنفسها . وفي الحقيقة ، سوف نجد أن الحضارة الهلينية بأسرها حديثة جداً إلى درجة يمكن وصفها بأنها نمت بالأمس أو أول أمس . إنني أشير إلى تأسيس الدول الهلينية ، وإلى ابتكاراتها المأذية ، وصياغة مواد قانونها أما آخر نشاط عنوا به في هيلاس فهو كتابة التاريخ . ومن ناحية أخرى ، فإن الهلينيين يسلمون (وهم لا يمارضونني في هذا) بأن مصر ، وكلدانيا ، وفينيقيـا - ولنبعد اليهودية من القائمة الآن - لديها سجلات تاريخية دائمة وموعدة في القدم . وكافة هذه الأمم تقطن مناطق مخلو بصفة خاصة من التأثيرات الجوية المحرّبة ، وقد عانت الأمرين حتى لا تترك أحد أعمالها دون تسجيل ، ويحفظونها على الدوام

لدى خبراء في السجلات المعمومية. وعلى عكس ذلك ، فإن المنطقة التي تقع فيها هيلاس قد تعرضت لتخريبات طبيعية لا تحصى طمست سجل الماضي؛ وقد كان سكان هيلاس مضطرين إلى أن يبدؤوا حياتهم من جديد على الدوام ، وفي كل ظرف من هذه الظروف اعتبر 'فترتهم بداية الأشياء كلها ؛ وقد كان اكتسابهم لفن الكتابة عملية متأخرة ومضنية . وحتى أولئك الذين يزعمون بأنهم كان لديهم منذ البداية أكثر التواريخ قدماً ، فإنهم يتباهون بأنهم اكتسبوها من « الكاموس » Cadmus والفينيقيين . وبذات الوقت ، كان من المستحيل أن توجد وثيقة مكتوبة سواء من الوثائق الكهنوتية أو العامة ، والتي حفظت حتى من تلك الفترة ، تأخذ في اعتبارها مقدار التأملات والمناقشة التي ثارت حول ما إذا كان فن الكتابة معروفاً للجيل الذي قام بالحلة على طروادة، وهي حادثة ذات التاريخ المتأخر كثيراً. إن الرأي القائل بأن منهاج كتابتنا الراهن لم يكن معروفاً لهم، هو أكثر الاحتمالات صواباً ، ومن نؤكد أنه ، لا يوجد في العالم الهليني نموذج للكتابة لا نزاع حوله أكثر قدماً من شعر هومر . ومن الواضح أيضاً ، أن « هومر » متأخر عن الحرب الطروادية ، وقيل أيضاً إنه وإن لم يترك شعراً مكتوباً ، إلا أن الناس تداولوه شفاهة ثم جمع بعد ذلك من أجزاء القصائد المختلفة ، الأمر الذي أدى إلى التناقضات العديدة التي يحتوى عليها شعر هومر . وفيما يتعلق برواد الكتابة الهلينية التاريخية ، وأعني بهم « كادموس الميليتي » Cadmus of Meletus ، و« أكوزيلاوس الأرجوسي » Acusilaus of Argos وخلفاء « أكوزيلاوس » ممن حفظ لنا التاريخ أسماءهم ، فإنهم كانوا سابقين للغزو الفارسي لهيلاس بفترة وجيزة . وفضلاً عن ذلك ، فإن آباء التأمل الهليني في الفلك والدين ، مثل « فيريكودس السيروسي » Pherecydes of Syros و« فيثاغورس » Pythagoras و« طاليس » Thales قد سلموا جميعاً بأنهم تعلموا على أيدي المصريين والسكندانيين قبل أن يكتبوا مؤلفاتهم المتواضعة . إلا أن الهلينيين الذين يعتبرون هذه المؤلفات من أقدم سائر المؤلفات ، يتشككون في نسبتها إلى مؤلفيها المشهورين

وعلى ضوء هذا كله ، فمن غير المقول بكل تأكيد أن يتباهى الهلينيون بأنهم

وعدم خبراء التاريخ القديم وبأنهم وعدم أصحاب الروايات الصحيحة والدقيقة .
وإذا فحصنا مؤلفاتهم يتضح تماماً أنها لا تقوم على أية معرفة مؤكدة ، وإنما تقوم
على الحدس والتخمين . وعلى أية حال ، فليس لما كتبوه أثر أكثر من كشف
أحدهم للآخر . وهم لا يترددون على الإطلاق في إنشاء القضايا المتناقضة حول نقاط
مماثلة . ويكون تطفلاً من جانبي أن أحيط من هو أكثر مني علماً بالتناقضات
التي نشأت بين « هيلانيكوس » Hellanicus و « أكوزيلاوس » Acusilaus
حول مسائل الأنساب ، وحول تصويبات « هسيود » Hesiod التي قام بها
« أكوزيلاوس » ، أو الطريقة التي يعرض بها « إيفوروس » Ephorus عدم
دقة هيلانيكوس في أغلب المسائل ، وعدم دقة « إيفوروس » التي أظهرها
« تيبايوس » Timaeus ، أو أخطاء « تيبايوس » التي أظهرها خلفاؤه ، وأخطاء
هيرودوت التي أظهرها كل إنسان . فإن « تيبايوس » لم يشعر ، حتى بشأن مسائل
التاريخ الصقلي المحلي ، بأنه مطالب بأن يروي الحكاية بنفسها كما روتها مدرسة
« أنتيوخس » Antiochus و « فيليستوس » Philistus أو « كالياس » Callias .
كذلك الأمر فيما يتعلق بكتاب التاريخ الأثيني الذين لم يرسم واحد منهم خطى
الآخر في مسائل هذا التاريخ ، ولا خطى المؤرخين الأرجينيين فيما يتعلق بالتاريخ
الأرجيني . وأما كان الأمر ، فلسنا في حاجة للحديث عن التاريخ المحلي والخاص
بموضوع عدد ، عندما يختلف أكثر المؤرخين شهرة حول ما يختص بأعمال الحملة
الفارسية حتى ثوكوديديس الذي يعتبر من أكثر مؤرخي عصره دقة ، مهمتهم بعدم
توخى الدقة في مسائل كثيرة من جانب نقاد معينين .

وقد يؤدي البحث إلى كشف عدد من أسباب هذا التناقض البالغ ، إلا أنني
أعزو الأثر الأكبر إلى سببين سوف أشرع في ذكرهما . وسوف أبدأ بالسبب الذي
أعتبره أكثر السببين أهمية . إن حقيقة عدم عناية الهلنستين منذ البداية بالاحتفاظ
بسجلات عمومية للأحداث الجارية ، هي السبب الرئيسي بالتأكيـد للخلط الذي
وقع فيه الكتاب الذين حللوا تبعاً تناول التاريخ القديم . وهو السبب الذي أدى
إلى ارتكاب الأخطاء التي وقعوا فيها . إن تسجيل الأحداث لم يهمل في هيلاس

كلها فحسب ، بل في أثينا أيضاً ، تلك المدينة التي اشتهر أهلها بالثقافة والاحتفاء بها حيث لا نجد أى أثر لحفنة الظاهرة . وأكثر السجلات العامة قدماً في أثينا ، يقال إنه التشريع الجنائى لـ « دراكون » Dracon ، وهو في تاريخ متقدم قليلاً عن فترة حكم الطاغية « بيرستراتوس » Peisistratus . أما بالنسبة للأركاديين ، فإن زعمهم يقدم تاريخهم تنفيه الحقيقة التي تقضى بأنهم نجحوا بالكاد في السيطرة على زمن الكتابة حتى في تاريخ متأخر عن هذا .

إن عدم وجود أساس معد من قبل خاص بشكل السجلات العمومية ، التي تكون قد أفادت الذين رغبوا في معرفة الحق ، وفقدت عدم الدقة ، يعتبر هو السبب الرئيسى في التناقض بين كتاب التاريخ الهلينيين . والسبب الثانى هو أن الهلينيين الذين تطلعوا للتأليف لم يكن لديهم أى غيرة على الحق ، وعلى الرغم من أن الحزم بعكس ذلك كان على شفاههم دائماً ، إذ أنهم كانوا يهتمون بإظهار قدرتهم الأدبية .

وعلى هذا ، واءموا أنفسهم مع أى منهج يقدم لهم صورة تبرز منافسهم حسناً في هذا الشأن . وقد لجأ بعضهم إلى الرواية ، والبعض إلى تملق الدول والحكام عن قصد . وتخصص آخرون في كيل الاتهامات للأعمال ومن قام بتسجيلها ، على اعتبار أن هذا مجال يمكن أن يلعبوا فيه . وباختصار فإنهم يشارون على عادة تتناقى تماماً مع الروح التاريخية . إن العلامة المميزة للتاريخ الصحيح هي الاتفاق الإجماعى على مسائل بذاتها من جانب كل من الدارسين والكتاب ، بينما اعتبر المؤرخون أن أفضل وسائل إرساء الدقة السامية ، هي أن يتقوا في وصف الأحداث المتأثلة إلى جانب الأقلية المعارضة . أما فيما يختص بالشكل الأدبى والرونى ، فيجب علينا نحن الشرقيين أن نسلّم بانتصار المؤرخين الهلينيين ، ولكن ليس بسبب صحة تناول التاريخ القديم ولاسيما عندما يتعلق الأمر بتاريخنا المحلى .

وفي ذلك الوقت ، كان تسجيل الأحداث في مصر وبابل موكولاً إلى مسئولية الإخصائين — وهم الكهنة في مصر والكلدانيون في بابل — وقد أفاد

الفينيقيون ، دون سائر الشرقيين الذين احتكوا بالهليينيين ، أكبر فائدة من فن الكتابة من أجل تدبير شئونهم الخاصة ومن أجل تسجيل الأحداث العامة أيضا . وهذه الحقائق مسلم بها تماماً فلا أرى العودة إليها فيما بعد . وسوف أمضى الآن إلى أسلافنا وسأحاول أن أوضح ، على قدر ما يمكنني من إيجاز ، أنهم كانوا متخصصين ، شأنهم شأن جيرانهم (سوف لا أدخل في موضوع ما إذا كانوا حالياً أكثر تخصصاً عما كانوا عليه من ذي قبل) في حفظ السجلات ، حتى إنهم وكلوا هذه المهمة لكبار الكهنة والأنبياء ، وبقيت ممارسة هذه المهمة ، حتى يومنا هذا (ويمكنني القول بأنها سوف تكون كذلك فيما بعد) باللغة الدقة .

وهم لا يضعون هذا القسم تحت إشراف صفوة الرجال الذين يلتزمون بخدمة الله ، من البداية فحسب ، بل إنهم يتخذون الإجراءات لصيانة عنصر الكهنة نقياً غير مختلط . ومن يتطلع إلى الكهانة يجب أن يكون مولوداً من أم يهودية . ولا تدخل الثروة والرتبة ضمن الشروط . وعلى طالب الكهانة أن يثبت نسبه من المحفوظات ويأتى بعدد من الشهود . وهذه الممارسة ليست مقصورة على اليهودية . فحيثما يوجد موطن لأمتنا يكون سجل الزواج الدقيق محفوظاً لدى الكهنة ^(١) ، يرسلون صوراً منه إلى أورشليم ، حيث يدون اسم والد الزوجة وأسلافها السابقين ، وكذلك أسماء الشهود . وفي حالة الحرب ، التي تكررت مرات كثيرة قبل الآن ^(٢) ، فإن أعضاء الكهانة ، الذين ما زالوا أحياء ، يعيدون قيود السجلات القديمة ويفحصون النساء اللاتي ما زلن أحياء . ولا يعاد قيد النساء اللاتي وقعن في السبي (لهذا السبب) ، وذلك للشكوك التي تنشأ من الاختلاط الدائم ، في مثل هذه الظروف بينهم وبين الذكور من غير اليهود . إن أبرز الدلائل على دقتناهي أن الكهنة

(١) إنني أشير إلى الكهنة اليهود ومصر وبابل وأى قسم آخر من العالم ينتشر فيه كهنة أمتنا (المؤلف) .

(٢) على سبيل المثال غزوات البلاد على أيدي أنتيوخس إبيفانيس ، وبومبيوس ماجنوس وكورنيليوس فاروس ، وعلى الأخص أحداث زماننا (المؤلف) .

في مجتمعتنا يمكن أن يبينوا تسلسلاً غير متقطع ، لألفين من السنين ، من الأب إلى الابن كالدونت بالاسم في السجلات ، بينا أى فرد لا يتوافر فيه أى شرط من الشروط السابق ذكرها يستبعد من الخدمة في المذبح ولا يقوم بأى دور في العبادة . وليس هذا الأمر طبيعياً فحسب بل لا مناص منه أيضاً ، إذا ما تذكرنا مرة أخرى أن حق القيد في السجلات غير متروك لحرية تصرف أفراد مخصوصين وأنه ليس هناك تناقض بين القيودات ، فإن الامتيازات مقصورة على الأنبياء ، الذين يلون بمعظم الماضي البعيد بوحي من الله ، والذين يسجلون الأحداث المعاصرة لهم بإحكام .

وليس في أدبنا أسفار كثيرة تختلف مع بعضها وتتناقض إلى ما لا نهاية . بل لدينا فقط اثنان وعشرون سفرأ تتضمن سجلا لكل العصور والتي تثق فيها بحق واطمئنان . وخسة منها هي أعمال موسى ، تحتوي على التواميس وروايات خلق الإنسان حتى وفاة موسى . ومن وفاة موسى حتى حكم « أرتا كركسيس » Artaxerxes ، خليفة « كركسيس » على عرش فارس ، وهي سجل الأنبياء الذين خلفوا موسى وأحداث أزمنتهم في ثلاثة عشر سفرأ . وتحتوي الأسفار الأربعة الباقية على تساييح الرب . والإرشادات المتعلقة بسلوك الحياة الإنسانية . ومن « أرتا كركسيس » حتى أزمنتنا يوجد سجل متصل ، إلا أنه لا ينظر إليه بمثل الاتكال الوطيد على الوثائق الأولى ، لأن توالى الأنبياء لم يحفظ بشكل دقيق . وتشرح الوقائع ذاتها بشكل وافي موقعنا تجاه سجلاتنا المحلية . فخلال الفترة الكبيرة التي انقضت منذ تأليفها ، لم يجازف أحد بأن يضيف إليها أو يمحذف منها أو يغير ترتيبها . وينظر إليها كل يهودى منذ مولده بشكل غريزى على أنها تاموس الله ، التي يرعاها بإخلاص ويلاقى الموت في سبيلها عن طيب خاطر ، إذا ما تطلب الأمر ذلك . واشتهر أسرى يهود كثيرون قبل الآن ، في مناسبات عديدة ، بأنهم تحملوا التعذيب وصنوف الموت المروعة في السارح العامة ولم ينبسوا بكلمة واحدة ضد

الناموس أو الوسايا التي تتمثل به . فهل يتحمل أى هلىنى مثل هذا فى شخصه ؟ إنه لا يمانى أى متاعب فى سبيل الحفاظ على أعمال الأدب الهلىنى . وينظر الهلىنيون إلى مثل هذه الأعمال على أنها عبارات مرتجلة حسب أهواء الكتّاب ؛ وهم معذرون بكل تأكيد فى اتخاذ هذا الموقف من أدبهم القديم لأنهم يرون بعض الكتّاب الهلىنيين المعاصرين يجازفون برواية تاريخ الأحداث التي لم يشاركوا فيها بأنفسهم . ونظراً إلى أنهم لم يبذلوا أى جهد ليتعلموا الحقيقة من أولئك الذين لديهم الوقائع . وفيما يتعلق بمرحبنا الحديثة ، فإن الكتّاب التي تندرج تحت قائمة (التواريخ) قد نشرها المؤلفون الذين لم يزوروا مسرح الأحداث ، أو لم يقربوه حيناً وقت هذه الأحداث ، ولكنهم جمعوا بعضاً من الروايات المتناقضة كمصدر لهذا للندس المثل الذي شنت اسم التاريخ .

إن سجلي الخاص بالحرب فى مجموعها صحيح ، والتفاصيل الصغيرة كذلك صحيحة ، لأننى شهدت ، أولاً بأول ، كافة الأحداث . لقد كنت فى قيادة قواتنا من سكان الجليل بقدر ما طال أمد المقاومة ، بينما كنت بعد وقوعى فى الأمر سجين الرومان ، واضطرتنى « قسبيان »^(١) و « تيتس » لأن أظل تحت المراقبة ، وكنت فى بداية الأمر فى القيود ، ثم أطلق سراحى بعد ذلك ، وأرسلت من الإسكندرية ، فى خدمة تيتس ، أثناء حصاره أورشليم . ولم يحدث شئ خلال تلك الفترة إلا وكان تحت بصرى . وثابت على تسجيل الأحداث فى العسكر الرومان أولاً بأول ، بينما كنت الشخص الوحيد الذى استطاع أن يقدم تقارير الفارين من الجانب اليهودى . وعندما كانت كافة مواردى فى حالة إعداد سليمة ، أفدت من قرصة فراغى فى روما وأفدت من المساعدين لى باللغة اليونانية ، وهكذا أكتب روايتى . إن إيمانى بصواب ما أعرضه كان شديداً حتى إننى سجلت ما قام به « قسبيان » و « تيتس » اللذان كانا قادة الحرب ، كما شهدت فى بادئ الأمر . وبعبارة أخرى ، كانا أول شخصين عرضت عليهما أعمالى ، وبعدئذ

(١) قسبيان ، نودى به إمبراطوراً حيناً كان يقوم بقمع العصاة اليهود وبعد أن قصد لك روما وكل لك ابنه تيتس أمر الحرب ضد اليهود . (لترجم البردى)

بعت منها نسخاً إلى الرومان الذين اشتركوا في الحملة وإلى كثير من مواطني ، ومن بين هؤلاء من نال قسطاً من التعليم الهليني ، بما فيهم « يوليوس أرخيلائوس » Julius Archelaus وصاحب الفخامة « هيرودس » Herodes وصاحب الجلالة العظيم الملك « أغريباس »^(١) Agrippa نفسه . وشهد هؤلاء الأشخاص الرموقون بأنني كنت بطلاً مولياً جانب الحق ، ولم يترددوا بالتأكد في أن يقفوا عند نقطة ما إذا كان الجهل أو اللقي قد أوقعاني في بلبلة أو إغفال واقعة من الوقائع . وأما كان الأمر ، فهناك أشخاص بعينهم غير جديرين بالاهتمام حاولوا أن يشككوا في تاريخي وسلوكوا مسلك التلاميذ حينما يمرض عليهم في حلقة الدرس اتهام مشين ومتناقض . والحق أنه لا يجوز لأحد أن يسجل حقيقة لصالح آخرين دون أن يكون قد وقف بنفسه أولاً بدقة على الوقائع ، سواء بتتبع الأحداث أو بالتأكد منها عن طريق الذين يعرفونها . وأما كان الأمر ، فإنني أغبط نفسي لأنني قد وفيت شخصياً هذه المطالب في كل من مؤلفاتي . فإن تاريخي القديم ، الذي كان كما ذكرت ترجمة من الأسفار المقدسة ، هو عمل كاهن بطبيعته تربى على فلسفة الكتاب المقدس . إن تاريخي عن الحرب هو تاريخ من أسهم في كثير من الأحداث وشاهدها كلها تقريباً ، ويستطيع أن يقول إنه ما من شيء قيل أو وقع إلا وقد لاحظته . وإنني لا أستطيع القول كيف يمكن هؤلاء الأشخاص الذين حاولوا أن يجادلوا في صياغتي للأحداث ، أن يكونوا برئين من الوقاحة . فقد يعترفون بأنه كان لديهم صلة بذكرات القادة ، إلا أنهم لم يكونوا بالطبع على صلة كذلك بأحداثنا التي كانت في الجانب المعادي لهم .

وقد بداني أن الانحراف السابق لا يمكن تجنبه إذا ما قد لي أن أدمغ

(١) كان هيرودس الكبير والياً على اليهودية من قل قيصر عام ٤٧ ق.م وفي عام ٤٠ ق.م عينه مجلس الشيوخ حاكماً على الجليل وملكاً على اليهودية . وأرخيلائوس هو ابنه من امرأة سامرية ، وعند موت أبيه عام ٤٤ ق.م ولي حكم أدومية والسامرة واليهودية وبعد وفاته سنة ٧ م أصبحت اليهودية يحكمها حاكم فرعي حتى جاء هيرودس أغريباس الأول سنة ٣٧ م وفي عام ٣٩ م أعطاه جايوس ولاية الجليل وبعد موت جايوس عينه كلوديوس ملكاً على فلسطين .
(الترجمة العربية)

تساهل كتاب التاريخ المعترف بهم : وى تصورى أننى قد أوضحت الآن بما فيه الكفاية أن ممارسة تسجيل أحداث الماضى بملاحظات أولية قليلة موجهة ضد النقاد الذين يحاولون أن يشتوا حداثة وجودنا جميعاً على أساس أنه ليس هناك أى ذكر لنا (حسب وجهة نظرم) عند المؤرخين الهلنيين . وسأسرد الآن الدليل على قدمنا فى آداب الشعوب الأخرى ، وسوف أبين أن الافتراءات التى نشرت ضد حفسنا لا أساس لها .

آريان النيقوميدي

Arrian of Nicomedia

(٩٠ — ١٧٠ م)

غزو الإسكندر لآسيا

(نص توينر تحقيق ١ . ج . روس A. G. ROSS : الكتاب الأول
الفصول ١ — ٣) .

أبنا بقدم « بطليموس بن لاجوس » Ptolemy of Lagos « وه أسطوبولوس بن أرسطوبولوس » رواية متائلة فى مؤلفاتهما عن الإسكندر بن فليب ، فإننى أرسم خطاها بثقة مطلقة فى دقتها . وحينما يختلفان فإننى أرجح الرواية التى تبدولى أكثر ثقة ، وأكثر أهمية فى الوقت نفسه . ! إن لدى كل من مؤرخى الإسكندر « روايته التى يسوقها ، وليست هناك شخصية تاريخية تعرض لها عدد كبير من المؤرخين أو اختلفوا حولها أكثر من هذه الشخصية . وأنا شخصياً أعتبر بطليموس وأرسطوبولوس جديرين بالثقة أكثر من غيرهما — لأن أرسطوبولوس كان مصاحباً للملك الإسكندر فى الجيش ، وبطليموس نفسه فضلاً عن أنه كان ملكاً فهو يحس بالخزى أكثر من الأناس العاديين إذا ما فشل فى ذكر الحقيقة ، وكان الإثنان بالثل بعيدين عن الحاجة إلى تحريف الوقائع أو الباعث على تحريفها ، لأنها كتبها مؤلفاتها بعد وفاة الإسكندر . ولقد ضمنت على أيضاً معلومات مستمدة من

مؤلفات أخرى ، عندما بدت لي أنها هامة في حد ذاتها وجديرة بالاهتمام ، وذلك تحت عنوان حكايات غير مؤكدة . فإذا ما مال أى قارىء إلى الدخلة فيها رغبني في الشروع في هذا العمل في أثر حشد مؤلفين هكذا ، فإنني أتوسل إليه أن يؤجل الحكم حتى يفحص سائر أعمالهم ويلم بنفسه بمؤلفي .

آبيان السكندري

Appian of Alexandria

(٩٠ - ١٦٠ م)

دراسات في التاريخ الرومانى

(نص توينر تحقيق ل . مندلسون L. Mandelssohon : المجلد الأول المقدمة)
حيثما شرعت في كتابة تاريخ روما ، شعرت أنه من الضروري أن أقدم عرضاً لسائر الأمم تحت الحكم الرومانى .

[ويأتى المرض بعد ذلك]

وبرغم أن الرومان يحكون الآن كل هذه الأمم القوية ، فقد ظلوا خمسمائة عام كاملة في نضال شاق حتى يتموا إخضاع إيطاليا وحدها إخضاعاً تاماً . وعاشوا خلال النصف الأول من هذه الفترة في ظل الملكية ، بينما ظلوا الفترة الباقية — بعد أن طردوا الملوك وأقسموا جادين ألا يدعوا الحكومات الملكية مرة ثانية في نظام أرستوقراطى تحت رئاسة ضباط ينتخبون سنوياً . وقد شهد القرنان اللذان أعقبا الخمسة قرون الأولى عظمة إمبراطوريتهم . وتقع في هذه الفترة السلطة التي اكتسبوها والتي لا حدود لها في الخارج وكذلك هزيمة أغلبية القوميات التي تدخل ضمن رعاياهم . وبمدت فرض « جايوس قيصر » Gaius Caesar (الذي كان قد غطى على أكثر معاصريه سطوة ، وعزز سطوته وأقام رتيبات فعالة للحفاظ عليها) أقام نفسه كملك أعظم ، بينما أبقى على الأسماء والأشكال الدستورية

القائمة . ومنذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا ، استمرت الإمبراطورية الرومانية تحت ظل حكم الأفراد ، الذين لم يتخذوا القاب الملوك ^(١) وإنما اتخذوا القاب الأباطرة ^(٢) ، وهو لقب كان يرتبط في الأصل بقادتهم المسكرين المؤقتين . وأياً كان الأمر ، فإنهم في الحقيقة يتحلون بكافة سجايا الملكية . وقد تقلد هؤلاء الأباطرة السلطة لما يقرب من قرنين إضافيين حتى الوقت الراهن — وهي قرون وصلت فيها الدولة إلى قمة تنظيمها ، ووصل الدخل العام أعلى رقم له ، وقد كان من شأن فترة السلم الطويلة الدائمة أن رفعت العالم إلى مستوى مضمون من الرخاء . وقد أضيف عدد قليل من الأمم التابعة على أبدى الأباطرة إلى تلك الأمم التي كانت في زمام الرومان بالفعل . وقد أخضعت الأمم الأخرى التي شقت عصا الطاعة ، ولكن مادام الرومان كانوا يستحذون بالفعل على أحسن أجزاء الكرة الأرضية من بابس وماء ، فقد كانوا حكاماً بدرجة تكفل لهم أن يهدفوا إلى الإبقاء على ما في أيديهم دون التوسع في إمبراطوريتهم إلى ما لا نهاية له على الأقاليم المدقمة في الفقر وعدد من الأمم غير المتحضرة عديمة الفائدة . ولقد شهدت أنا بنفسى ممثلين لهذه الأمم ينتظرون في روما في بثبات دبلوماسية ويطلبون أن يكونوا من دعاياها ، والإمبراطور يرفض قبول تبعية شعوب ليست بذات قيمة لحكومته . وهناك عديد من الأمم التي يحدد سلوكها الرومان أنفسهم ، ماداموا لا يشعرون بفائدة من ضمها إلى إمبراطوريتهم . وهناك بعض من الأمم التابعة قدمت لروما هبات من خزائنها ، وهي نخوة بالألا ترفض روما هذه الهبات رغم أنها عبء مالى ثقيل . لقد حصنوا حدود إمبراطوريتهم بحلقة من الجيوش القوية وقاموا بحراسة هذه المساحة الواسعة من الأرض والبحر بسهولة كما لو كانت مزرعة متواضعة .

(١) إننى أصور أن هذا لإكرام أنفسهم اسيل (المؤلف) :

(٢) « الأوتوقراطيون » في اليونانية ترادف رسمياً (الأباطرة) في اللاتينية (المحقق) .

ولم تقم حتى الآن إمبراطورية بمثل هذه العظمة ، دلم بقاؤها لمثل هذه الفترة
 فبقاء الإمبراطوريات الهلينية لم يمتد إلى أى عدد كبير من السنين ، حتى لو جمعت
 أرقام فترات السطوة المتعاقبة لأثينا وإسبرطة وطيبة ، فيما بين حملة « دارا »
 Darius ، وهى مناسبة يحق لهم فيها جداً أن يباهوا بأنفسهم ، وإقامة سيادة
 فيليب بن « أمينتاس » Amyntas على هيلاس . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن نضالهم
 لم يكن شافئاً لتكوين الإمبراطورية بمطاردة المتنافسين المتبادلين ، بينما حدثت أكثر
 أبحادهم في الدفاع عن حريتهم ضد عدوان الدول الأجنبية ، وقد واجهت الكوارث
 من أبحر منهم إلى مقلية أملا في السيطرة الخارجية ، وتراجع كل من عبر منهم
 إلى آسيا على الفور ، بعد أن أحرز قليلا في هذا الجانب كما هو الحال في الجانب
 الآخر . وعلى العموم ، فإن إمبريالية الهلنيين ، على الرغم من أنهم ناضلوا دون
 هوادة من أجل سيادتهم ، فإنها لم تجدد أبداً موطئ قدم ثابتا فيما وراء حدود
 هيلاس ذاتها . لقد كانوا ناجحين بدرجة مدهشة في تأجيل يوم الهزيمة الأعير
 ويوم الوقوع في الأسر ، ولكن يبدو لي أنهم منذ زمن فيليب بن أمينتاس وزمن
 الإسكندر بن فيليب ، كان لهم تاريخ من الفشل لا يتفق وماضيهم .

أما بالنسبة للإمبريالية الآسيوية ، فإن الأعمال والصفات التي ترتبط بها لا تقوى
 على المقارنة مع أقل الأعمال شهرة في أوروبا ، وهذا بالنسبة لضعف الأمم الآسيوية
 وخشيتها . وسوف يتضح هذا كلما عرضت تاريخي ، لأنه لم يكلف الرومان إلا معارك
 قليلة لهزيمة سائر دول آسيا التي ستظل تحت حكمهم ، وهذا على الرغم من أن
 المقدونيين كانوا يظهرون أسياهم بمظهر البطولة . إنها حروبهم في أفريقيا وأوروبا
 التي أودت بالرومان . والحال كذلك بالنسبة للأشوريين والميديين والفرس ،
 أعظم إمبراطوريات ثلاث قبل الإسكندر بن فيليب ، فإن مدة استمرارها في مجموعها
 لا تصل إلى فترة القرون السمة التي تتمتع بها روما حتى الآن ، بينما لا يمتد اتساع
 رقبتهم ، في تصويري ، إلى نصف رقعة الإمبراطورية الرومانية . وأنا أقيم هذا
 الافتراض على حقيقة أن الإمبراطورية الرومانية تمتد من غروب الشمس والمحيط
 الفري حتى منطقة القوقاز ، ومن نهر الفرات وقلب أثيوبيا ، التي تمتد في المنطقة

عبر مصر والجزيرة العربية إلى محيط الشرق . إن الحدود الرومانية هي المحيط الذي يشرق فيه الكوكب المقدس وينفرب ، والرومان هم أسياذ البحر الأبيض المتوسط وساثر الجزر الأوقيانوسية في بريطانيا . ولم يسط « الميديون » و « الفرس » سلطانهم البحري إلى ما وراء الخليج البامقلى أو إلى جزر أبعد من قبرص Cyprus وجزيرة أو جزيرتين صغيرتين من أيونيا . أما بالنسبة للخليج الفارسى (الذى سيطروا عليه أيضاً) ، فما هو الامتداد الفعلى لمسطح مائه ؟

وإذا ما عدنا إلى دولة المقدونيين — فى فترة ما قبل «فيليب» بن «أمينتاس» ألفتيناها ضئيلة تماماً ونمحت سيطرة أجنبية بين الحين والحين ، بينما كان عمل فيليب على الرغم من أنه كان يدعو للإعجاب باعتباره مثالا للجهد الشاق ، كان محصوراً فى هيلاس والناطق المتاخمة . وفى زمن الإسكندر ، أذهلت الإمبراطورية المقدونية العالم باتساع رقعتها ، وسرعة عملياتها ونجاح تدايرها ، إلا أنها لم تدم أكثر من ومضة الضوء ، هذا ، على الرغم من أن الجهد قد عم الأجزاء طويلا ، حتى بعد أن تحولت إلى عدد من الولايات ^(١) المنفصلة . وقد احتفظ سلاطيننا ^(٢) وخدمهم بجيش يتكون من ٢٠٠.٠٠٠ من المشاة و ٤٠.٠٠٠ فارس و ٣٠٠ فيل قتال و ٢٠٠٠ عربية مسلحة و ٣٠٠.٠٠٠ من المتاد بالاحتياطى . وكانت هذه هي قواتهم البرية ، بينما كانت قواتهم البحرية تتكون من ٢٠٠ زورق و ١٥٠٠ مقاتل (مرتين من درجة ونصف إلى خمس رتب) ، مع نصف هذا الرقم من اللمدات اللازمة ، و ٨٠٠ من القوارب الصغيرة التى طليت بمقدّماتها ومؤخراتها بماء الذهب ، وكان الملوك يتفقدون بأنفسهم الأسطول على هذه القوارب . وكان لديهم أخيراً رأس مال يقدر بـ ٧٤٠.٠٠٠ وزنة مصرية فى خزائهم . وهذه الأرقام هي التى أظهرتها السجلات الملكية

(١) (المحافظ) Satrap فى اليونانية هي المقابل الفارسى القديم لكلمة (باشا) الهانية الحديثة (المحقق) .

(٢) مثلاً أسرة البطالسة المقدونية التى حكمت مصر وسواحل وجزراً كثيرة والبلدان الشرقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط فيما بين وفاة الإسكندر وغزو مصر على يد أغسطس (المحقق) .

ملك مصر الثاني بعد الإسكندر لما وصلت إليه أسلحته وقواته ، والتي تركها على هذا الأساس الثابت . ولم يجره أى ملك سواء فى القدره المالىة ، أو فى البذل عن سمة أو فى نطاق أعماله العامة ؛ إلا أن كثيراً من الولايات الأخرى قد تهاوت بعد ذلك بمدة ليست بالطويلة . وأيما كان الأمر ، فإنها قد تمزقت فى الجيل الثانى ، بفضل الإيادة المتبادلة — وقد أصبح الاضطراب الداخلى هو المرض الوحيد القتال للإمبراطوريات العظيمة .

وقد ساعد الزمن والحكمة الرومان على أن يبرعوا فى بسط إمبراطوريتهم وإنجاحها . لقد بزوا سائر الأمم الأخرى فى الشجاعة والاحتمال والمثابرة التى وفروها لتأسيس سيطرتهم . ولم يدعوا أنفسهم يفترون بالنجاح فاقموا سياقتهم بشكل كامل ، ولم يتطرق اليأس إلى نفوسهم بفعل الكوارث ، على الرغم من أنه وقت فى بعض الأحيان أحداث أهلكت فى يوم واحد ٢٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠ أو ٥٠٠٠٠ بالفعل من رجالهم المقاتلين . ولقد تعرضت العاصمة ذاتها للخطر ، وعانوا هجمات مستمرة من الطاعون ، والاضطرابات الداخلية فى وقت واحد دون أن يجيدوا عن طموحهم ، فشيدوا إمبراطوريتهم بوضعها الراهن خلال سبعة قرون من المتاعب والأخطار المضيئة ، وجنوا فى النهاية هذا الرخاء وهو جزاء أرباب السياسة .

إن هذه القصة ، التى تملأ رقعة أوسع من تاريخ الإمبراطورية المقدونية (أعظم الإمبراطوريات قبل روما) كتبها بالفعل مؤرخون هليونون ورومان كثيرون . وعلى أية حال ، فعندما بدأت دراستها كى أحصل على صورة كاملة لأعمال روما فى حالة كل أمة من الأمم التى اشتملت عليها ، وجدت نفسى دائماً ما أنتقل بمسئولياتى من قرطاجنة إلى أسبانيا ، ومن أسبانيا إلى صقلية أو مقدونيا ، أو إلى البعثات الدبلوماسية أو المحادثات التى اشتملت على الأمم الأخرى ، ومرة أخرى ، أعود إلى حلقة مفرغة ، إلى قرطاجنة أو صقلية ، وذلك حتى تزول مرة واحدة فقط من على هذه المسارح قبل أن يسدل الستار . وأخيراً ،

فقد جمعت لمنقطة الخاصة ، الأجزاء المتفرقة — على سبيل المثال ، جميع الحملات ، والبعثات الدبلوماسية والإجراءات الأخرى من جانب الرومان في سفلية حتى التاريخ الذى أقاموا فيه النظام الراهن فى الجزيرة ، وكذلك ، سائر حروبهم ومما هدهتهم مع قرطاجنة ، وكافة البعثات الدبلوماسية المتبادلة بين الدولتين ، وكافة الضربات المتبادلة التى وجهوها أو تلقوها ، حتى التاريخ الذى صرع فيه الرومان قرطاجنة ، وضموا أمة البربر ، واستعمروا بالتالى القرطاجنيين أنفسهم وأسسوا النظام القائم فى شمالى غرب أفريقيا . [واتبعت الإجراءات ذاته فى حالة كل أمة ، بقصد إثبات أن أعمال الرومان المعينة فى هذه الناحية — هى تحمل الغلوب أضعفه ، وشجاعة الغالبين وحسن طالعهم ، وكافة الأزمات والأحداث الطارئة] . اعتقاداً بأن الآخرين قد يفضلون مثلى أن يدرسوا تاريخ روما على هذه الصورة ، وأنا أكتبه الآن أمة أمة ، مفضلاً حذف كافة أعمال أية أمة أخرى تشوش الرواية وأنتقلها إلى قسم خاص بتلك الأمة . ورأيت ألا ضرورة لتاريخ كل حادثة ، إلا أننى سوف أشير إلى تاريخ الأحداث البارزة فى جمل اعتراضية . وفيما يختص بوضع الأسماء ، فلن الرومان يتسمون فى الأصل باسم منفرد لكل فرد ، شأنهم شأن سائر الأمم . ثم زاد عدد الأسماء بعد ذلك إلى اسمين ، ولم يمض وقت طويل حتى كان لهم اسم ثالث ، مشتق من العيب أو الكفاية الشخصية ، بدأ يضاف ككلمة مميزة فى حالات معينة ، تماماً مثلما اعتاد بعض الهلنيين أن يحملوا ألقاباً بالإضافة إلى أسمائهم . وغالباً ما سؤرد الاسم كاملاً ، خاصة فى حالة مشاهير الرجال ، حتى أحدد شخصيتهم ، إلا أنه فى الحالات العادية سوف أشير إلى شخصياتى بالأسماء التى إعتاد الرومان أن يعقبوها أكثر تميزاً ، سواء كانت تلك الشخصيات شهيرة أو غير شهيرة .

وسوف نجد فى المجلدات الثلاثة الأولى حكاية الرومان بأسرها فى إيطاليا ، ويمكن اعتبار هذه المجلدات الثلاثة كلها خاصة بإيطاليا ، على الرغم من أن ضخامة مادة الموضوع قد اضطرتنى إلى أن أضع تقسيماً فيما بينها . فيصف المجلد الأول أعمال الملوك السبعة فى ترتيب زمنى ، وأعطيت له عنوان [دراسات رومانية — كتاب

الملوك [ويتناول المجلد التالى ، بقية إيطاليا فيما عدا القسم الساحلى للخليج الأيونى ^(١)] وهو يسمى [دراسات رومانية — كتاب إيطاليا] وذلك حتى أميزه عن المجلد الأول . وكانت الأمة الإيطالية آخر ما كان على الرومان أن يتعاملوا معها ، كانت أعظم وأفظع اتحاد للسامنيت Samnites فى الجزء الساحلى للخليج الأيونى ودام الصراع ثمانين عاماً ، حتى نجح الرومان فى إخضاع السامنيين أيضاً ، وكذلك الأمم المجاورة التى كانت متحالفة معهم والمستعمرات الهلينية على طول سواحل إيطاليا الجنوبية . ويتميز هذا المجلد بعنوان [دراسات رومانية — كتاب السكث وصقلية وأسبانيا وهانيبال وقرطاجنة ومقدونيا] ... وهكذا ... فإن ترتيبها ترتيباً تاريخياً يتعلق ببداية كل حرب ، حتى على الرغم من أن النهاية الخاصة لتلك الأمة قد تقع فى تاريخ متأخر عن أمم كثيرة أخرى بدأت قصتها بعدها . إن الاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية فى روما نفسها ، والتى عانت منها بفضاعة أكثر من أى مضاعفات خارجية ، تقسم إلى مجلدات حسب قادة كل مرحلة — «ماريوس» Marius و «سوللا» Sulla و «بومبي» Pompeius و «قيصر» Caesar و «أنطونيوس» Antonius والقيصر الآخر الملقب «أغسطس» Augustus ، ومن بين هؤلاء اشترك الاثنان الأخيران فى حرب أهلية ضد قتلة قيصر الأول وبمبدئى حارب الواحد منها ضد الآخر . وى هذه الحرب الأخيرة من سلسلة الحروب ، خضعت مصر تحت سيادة روما وأصبحت روما نفسها ملكية .

هذه هى المجلدات التى قسمتها على أساس الأمم المختلفة ، والقادة الذين جمعت تحت أسمائهم الحرب الأهلية . وسوف يتعرض المجلد الأخير لكل القوى العسكرية التى يحتفظ بها الرومان ، وسائر الدخلى الذى يستخرجونه من كل أمة ، أو زيادة المصروفات الداخلية على التحصينات والحطاط البحرية وإصلاحات أخرى من هذا القبيل . إن المؤلف الذى يتطلع إلى أن يصف عظمة روما عليه أن يبدأ

(١) هذا الجزء من البحر الأبيض المتوسط الذى يحوطه خليج الأدرياتيک فى الشمال وشریط ضيق يلاصق المدود الصقلية فى أقصى الجنوب وبلوونيزيا فى الجنوب (المعلق) .

بوصف أصله هو. إن شخصية كاتب هذه السطور معروفة لقراء كثيرين وقد أوضحها هو بنفسه ، ولكن من أجل التحديد ، عليه أن يذكر أنه « آيان » من الإسكندرية وقد تولى منصباً قيادياً في بلده ، وترافع في محكمة الاستئناف في روما ، وكان يجوز شرف منصب في الخدمة الإمبراطورية . إن أى قارى يتوق إلى أن يعلم تفاصيل أكثر سوف يجدها في تاريخ حياة المؤلف لنفسه .

ديو كاسيوس كوكيانوس النقاوى

Dio Cassius Cocceianus of Nicaea

(١٥٥ - ٢٣٥ م)

تاريخ روما

(نص تاوخنتر Tauchnitz ، نسخة طبق الأصل ، المجلد الخامس ، الكتاب الثانى والسبعون . الفصل ٢٣) .

إن السبب الذى دفعنى إلى كتابة تاريخ الحروب العنيفة والاضطرابات الأهلية التى أعقبت وفاة « كومودوس » Commodus كان كما يلى : كنت قد كتبت من قبل ونشرت كتاباً عن الأحلام والتناول التى ألهمت « سيفروس » Severus أمل الوصول إلى كرسى الحكم . وقد قرأ هذا الكتاب الإمبراطور نفسه فى نسخة أهديتها إليه ، وقد كان عطوفاً بما فيه الكفاية فكافأنى بخطاب رقيق طويل . وقد وصلنى هذا الخطاب متأخراً فى المساء قبل أن أذهب إلى النوم مباشرة ، وقد كان موضوع تأليف عمل تاريخى يلج على نوى بقوة خلقة للطبيعة . وهكذا أخذت فى كتابة تاريخ الفترة التى وصلت إليها الآن . ولما كان هذا المقال قد قوبل بشكل مرض للغاية من جانب « سيفيروس » نفسه كما حدث من جانب الجمهور ، عند هذا دفعتنى رغبتي إلى كتابة تاريخ كامل لروما . وعليه قررت ألا أترك المقال الأول كجزء منفصل ، بل أضمنه فى هذا الكتاب الأوسع ، كي أتمكن من كتابة القصة كلها من البداية حتى النقطة التى يسمح بها (الحظ) ، وهى بمثابة

وصية للخلف . ولقد آزرني (سيدنا الحظ) في عمل ، مكافأة على الروح الوفرة الحبيبة التي تناولت بها العمل . ففي تمبي وكدي كان الحظ يواسيني بأحلامه . لقد قدم لي آمالاً مشرقة للمستقبل وأكد لي أنني سوف أعيش حتى أتم عملي وأنه سوف لا يلوثني بمار . لقد خصص لي ، كما بدا لي ، الملك الحارس في هذه الحياة ، وأنا بالمثل عايد له . إن مجموعة مواد عملي التي تشمل تاريخ روما بأسره من البداية حتى زوال « سيفيروس » استغرقت مني عشرة أعوام ، واستغرقت كتابة روايتي اثني عشر عاماً زيادة على ذلك . وسوف أكتب ما يجد بالسرعة التي تتطلبها الأحداث .

هيروديان السوري

Herodian The Syrian

(عرف في النصف الأول من القرن الثالث بعد المسيح)

تاريخ الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة ماركوس أوريليوس (*)
 . Marcus Aurelius

(نص توينر ا . بيكر J.I Bekker . الكتاب الأول . الفصل الأول) .

إن معظم الكتاب الذين شغلوا أنفسهم بالكتابة التاريخية وعنوا بإحياء ذكرى الأحداث القديمة ، التمسوا شهرة ثقافية خالدة . وخشوا إذا ما فشلوا في أن يعبروا عن أنفسهم ، أن يطويهم النموض الكبير المتضاعف ، إلا أنهم في رواياتهم التاريخية اتبها قليلاً إلى الحقيقة وكرسوا انتباههم الرئيسي للمحسنات البدئية ، متأكدين تماماً ، أنهم إذا أخطأوا في مجال الأسطورة ، فسوف يكافأون على سحر أسلوبهم ، وأن سياغتهم للحقيقة سوف لا تخضع لتحريض دقيق . وقد اندفع البعض فأسبق على الأحداث الطفيفة أو التافهة خطيرة مبالغاً فيها بفضل تألق فهم الأدبي وذلك بسبب عدائهم أو كراهيتهم للحكام المستبدين ، أو بسبب نظرتهم ،

سواء كانوا بدافع الاهتمام أو الأسالة ، إلى الملوك والبلدان أو الافراد . اما بالنسبة
لهدورى فإننى لم أكن مقتنعاً بأن أتناول بعد الآخرين موضوعاً تاريخياً غامضاً
لا يمكن أن يتحكم فيه ، إلا أننى جمعت مواد على بدقة متناهية فى وقت كانت
فيه ذكرى الأحداث التى تسجلها ما تزال حديثة فى عقول أولئك الذين ينبغى
عليهم أن يعمقوا فيها النظر . وإننى آمل أيضاً أن أدرس الأحداث الكبيرة التى
تجمعت فى فترة لا طرفة فيها لأجيال المستقبل . إن مقارنة هذه الفترة بكل الزمن
الذى انقضى منذ أن أصبحت الإمبراطورية الرومانية ملكية فى عصر « أغسطس »
سوف تكشف عن أنه تقريباً خلال القرنين اللذين يفصلان تلك الحقبة عن عصر
ماركوس أوريليوس ، لم تكن هناك سلسلة سريعة من التغيرات على العرس مثل
هذه السلسلة . كما أنه لم توجد تقلبات عنيفة فى الحرب الخارجية والأهلية ،
أو اتعجارات فى الأمم أو نهب المدن سواء فى عالمنا أو فى بلدان كثيرة غير متحضرة ،
وكذلك لم تشهد مثل هذه الهزات الأرضية أو حالات الجو الوبائية ولا مثل هذا
السلوك الشاذ للطفلة والباطرة (وهو سلوك لا نجد مثيلاً له إلا قليلاً فى سجلات
الماضى) وقد أبقى بعض هؤلاء الحكام على سلطاتهم لمدة طويلة من الزمن ،
وبعضهم إلى مدة أقل ، بينما لا يكاد الآخرون يتمتعون باللقب وشرف البقاء بعض
يوم قبل أن يهلكوا . لأن الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت خلال الستين عاماً
إلى عدد أعظم من الحكام أكثر من الزمن اللازم ، مع عواقب غريبة وعنيفة .
وكان من المفروض على مثل أولئك الحكام ، وقد طعنوا فى السن ، أن تمكنهم
خبرتهم من صيانة مصالحهم الخاصة ومصالح رعاياهم ، إلا أن الآخرين الذين كانوا
فى مستقبل العمر كانوا غير طبيعيين فى حياتهم الخاصة وتوريين فى إدارتهم . وهذه
الاختلافات فى العمر والمسئولية تبعتها بالضرورة اختلافات فى السلوك ، وسوف
أسارع الآن بربط تاريخ هذه الأحداث فى تفصيل ، وسأتناول الحكام التابعدين
فى الترتيب الزمنى .

يونانيوس السرديسى

Eunapius of Sardis

(٣٥٠ - ٤٠٥ م)

متابعة تاريخ دكسيبوس Dexippus الطبعة الثانية^(١)

(نص توير Historici Graeci Minores تحقيق ل. دندورف Dindorf)

(المجلد الأول ص ٢٠٧)

إن تاريخ « دكسيبوس الأثينى » مرتب حسب سنوات المحاكم السنوية لأننا منذ هبهم الأولى ، مع التنويه بمن يماثلهم من القناصل الرومان ، يرغم أن الرواية ذاتها تبدأ قبل أن يسمع عن أى من القناصل أو الضباط . إن السمة المميزة لعمل دكسيبوس هي أنه يغفل الفترة الباكرة التي تدخل في نطاق الشعر ، فهو يتركها لأقلام أكثر كفاية من قلبه في تأثيره على نفس القارى ، بينما يقوم بجمع أكثر الأدلة جهرية ، والذي يبرز بمضى الزمن ، ويركز في شكل من الدقة التاريخية والنقد الأصيل أكثر قابلية للتأثير . إنه يسوق روايته في قالب زمنى يتركزها في الأولمبياد وسنوات الحكومة الأثينية التي يقع كل أولمبياد فيها . إن المداخل التي يصدر بها كتابه مفعمة بالجمال ، وهو يظهر خلال عرضه مدخلا رائعا بإبعاده المحسنات الخرافية والقديمة (التي يرددها إلى الصيادلة الذين وصفوها في بداية الأمر ، لأنها من طراز قديم فقد شعبيته) . إنه يسمح لهذه المحسنات الخرافية والقديمة بالظهور ، عندما يكون بصدد عرض الحقبة المصرية ، وبصدد التركيز على سنوات الحكم الباكرة في كل بلد ، وبصدد ملاحظة مؤسسى التاريخ

(١) وهي الطبعة التي استبعد منها المؤلف لعددا الهجمات التي شنتها ضد المسيحية في الطبعة الأولى . دكسيبوس ، والذي كان يونانيوس امتدادا له ، كان مؤرخا أثينا شهيرا وكان رجلا متفاديا في القرن الثالث بعد المسيح (المحقق) .

وأبانه ، فإنه يحاول توضيح - إذالم يؤكده سيماء عبارات كثيرة - أن أسلافه ينتظرونه دائماً في مقدمة عناصر غير تاريخية. ونشبه روايته الحكمة المروعة غزن عطاره عام ، فيه تنسيق بديع ومناسب لبضائع تاريخية مستوردة فوراً بعد عملها على أيدي تشكيلة كبيرة من صناعاتها. ونجد كافة الأحداث ذات الأهمية التاريخية من وجهة النظر العامة أو الأحداث ذات الصلة بحياة أفراد مبرزين معينين ، نجدها معروضة بلا ملل ومنتظمة في عمل « دكسيوس » الذي يختتمه بالإمبراطور « كلوديوس الثاني »^(١) Claudius II . ويدخل « دكسيوس » في حساباته عدداً من الأولمبياد مع القناصل وموظفي أئينا المختصين ، متخذاً ألف عام كاملة أساساً لمشروعه . ويبدو أنه يخيم عليه الخوف من فشله في أن يجد قراءه بمدد كبير كاف من السنين .

أما وقد اتخذت هذا العمل موضع دراسة لي فقد تمكنت من أن أعلم من مثال « دكسيوس » نفسه وأن أقدر قيمة الأخطار الحقيقية التي تشتمل عليها كتابة التاريخ في شكل حوليات ، ولا سيما عندما يعترف المؤلف نفسه لقرائه بأن تقويمه ليس دقيقاً إنما هو موضوع مختلف حوله الآراء ، وعندما يكاد المؤرخ يتهم نفسه تهريماً ، كما فعل دكسيوس ، بأنه قد أوجد رواية مضطربة مكتظة بالمتناقضات (بمثابة اجتماع دون رئيس) خلال التزامه بسلوك النهج التقويي . ويتردد في أذني دائماً ، التل البيوتى الذى يقول (إنها ليست موسيقى) ، وقد ذكرت نفسى بأن الهدف المثالي وهدف التاريخ هو تسجيل الأحداث في ضوء الحقيقة مع تقليل عنصر الذاتية ، أما هذه الحسابات التقويمية الصارمة ، التي تندفع كتنفج لم توجه إليه دعوة ، فلا قيمة لها في هذا الصدد . فإذا يمكن أن يسهم به التاريخ الزمنى في حكمة « سقراط » Socrates أو في عبقرية « ثيمستوكليس » Themistocles ؟ وهل السيف هو الذى جعل العظاء عطاء ؟ أو هل لوحظ أبداً

(١) ٢٦٨ — ٢٧٠ (المخط) .

هذا في العام الأول من حكمه والذي بدأ فيه ذلك الحكم واتهى — كان كلوديوس قد حكم الإمبراطورية لعام واحد فقط ، على الرغم من أن بعض الثقات يعتبرون أن حكمه قد امتد عاماً آخر (المؤلف) .

أنهم يعمون أو يظلمون صفاتهم الخلقية طبقاً لفصول السنة كما يفعل الشجر ؟ [أو هل لنا أن نقرر أن صفاتهم الفطرية والفريزية كانت في كل حالة تمت ممارستها وحفظها في نشاطها بدون توقف أو انقطاع ؟] وإذا ما كان الأمر كذلك فأى مغزى في الهدف الحقيقي للتاريخ يمكن أن نجنيه من وراء معرفة أن الهلنيين قد كسبوا معركة عند ظهور كوكب الشعرى ؟ أو كيف تتحسن التربية التاريخية عند القارىء عندما يعرف أن فلاناً قد ولد في هذا اليوم أو ذاك ، هذا الذى أصبح فيما بعد شاعراً أو عازفاً شهيراً ؟ وإذا ما كان المعيار النهائي للقيم التاريخية هو القوة في عرض قدر لا حدود له من الأحداث في فترة زمنية قصيرة وفي مقرر سريع للقراءة ، أو أن نتوقع حكمة العصر في أيام شبابنا بمعرفة الماضى الذى يتلائم مع معرفة الخير والشر ؟ عندئذ فأننا مقتنع بأن هدف التاريخ قد أفسد مسماء الكتاب الذين يدمرون الغذاء الصحى الذى يقدمه التاريخ لهم في ثوب غريب من القصص الاستطراذية التى لا لزوم لها ، والذين يلوثون مياه قصبهم الحلوة بالأسلوب الأسف. وأيما كان الأمر ، فقد يكون من نافلة القول الإفراط في الحديث عن معرفة لا لزوم لها ، كما لاحظ « دكسيوس » نفسه أن التقاويم غالباً ما تكون متناقضة ، بينما لا يوجد اختلاف في الروايات المحلية الموغلة في القدم . وأية شخصية تطاول « ليكورجوس الأسبرطى » Lycurgus شهرة في جمهورية الآداب ؟ إن كل واحد يأنف شهادة السماء التى صار بموجبها « ليكورجوس » كاهناً بشكل واضح بسبب نشاطه التشريعى ، إلا أنه ليس هناك كاتب يبحث في هذه الأسطورة يتفق مع أى كاتب آخر فيما يتعلق بالتاريخ الذى سُن فيه التشريع . إنهم يشبهون ملاحظى مبنى أو عمود أو نصب تذكارى هندسى ، يتفقون جميعاً حول حقيقة وجوده ، إلا أنهم يملأون المجلدات بمناقشات منقحة حول تاريخ بنائه . إن « توكوديدس » وهو نموذج للدقة يسجل فلاناً الحرب العظيمة والشهيرة التى يؤرخ لها لس فيها نفسه النكسة ، وهى الأصل والناسبة التى اختلفت حولها الأطراف حول تاريخ الاستيلاء على مدن معينة ، فالؤرخ نفسه غير قادر على أن يحسم الموقف بدقة وبالتالي أن يبرز الحجج المختلفة لكل منها . وما إن يصل إلى مشكلة الأيام حتى يكشف

مضطرباً بطلان الدراسات والأبحاث التقويمية وعدم جدواها .

وبعد جدل داخلي لا بأس به ، وبعد التأمل في المخطوط البيبليآفيا، وصلت إلى نتيجة (أوصى بها بالتالى كل المتحمسين للتقويم) أن الملاحظة الدقيقة للأيام والفصول هي من عمل الذين يسمون في الأرض والحاسبين وبالطبع الذين يحملون في النجوم والذين يهتمون صراحة في الدراسات الرياضية أيضاً . وعلى هذا ينبغي أن أخذ قرأتى في الوقت المناسب من أننى بينما شرعت في مهمة تسجيل الأحداث الماضية والمعاصرة وأنا أثق تماماً بقدرتى الخاصة ، فإننى أستبعد اضطرارى إلى تاريخ السنة أو اليوم على اعتبار أنه ينافى روح التاريخ ، طالما ينظر إلى حكم الأباطرة ، على أنه وحدات زمنية علمية . وسوف يحدثنى قرأتى أسجل هذه الحادثة أو تلك التى وقعت إبان حكم هذا أو ذاك ، وأننى زكت للآخرين أن يقفروا في الهواء الكاذب لتحديد علم أو يوم . وعندما أعبر عن الثقة في قدراتى ، فإننى أعنى اتباع الثقة الذين كانوا لأمد طويل هم المستنيرين في عصرنا، والذين بدأوا مثلاً يحدثنى لإتقاد أحداث عصرنا من النسيان ومن الفترة التى تفصله عن النقطة التى ينتهى عندها تاريخ « دكسيوس » — وهى فترة لم يسبق أن أولاهها مؤرخ مرموق عنايته . وفى التكفل بهذا الأمر ، وهو شائع لى لدى من سبقونى ، أخذت حكم الإمبراطور « جوليان » Julian كوضوعى الرئيسى فهو يكتنف حياتى أنا .

لقد كان الجنس البشرى بأسره يبجل هذا الإمبراطور باعتبار أنه له .

(وعند هذا الحد يصبح المخطوط غير صالح . . . المحقق)

متابعة تاريخ ديكسيوس — الجزء الثانى

(نص توينر Historici Graeci Minores ، تحقيق ل. دندورف . المجلد الأول صفحه ٢١٥) .

في الفصول السابقة ، تم وصف الأحداث التى شغلت الفترة فيما بين النقطة التى انتهى عندها مؤلف ديكسيوس وأزمة جوليان ، تم وصفها بشكل مناسب في تناول موجز بقدر الإمكان . وتتناول قصتى هنا البطل الذى كان

هدفاً الى منذ البداية ، ويدفعنى الى أن أنتمس في عمله بكل عواطف الود التي أكنها له . هذا في حين أنني لم أراه أو أستمتع بميزة الاتصال الشخصي به . ف عندما كان جوليان على المرش كان كاتب هذه السطور مجرد طفل . إلا أن عواطف المجلس البشرى العامة ووحدة الآراء في الضريبة التي تدفع لذكراه لها تأثير غريب لا يقاوم ويذهب الولاء له . وكيف يتسنى لي أن أصمت إزاء موضوع لا يمكن لأى إنسان آخر أن يلتزم الصمت إزاءه ؟ كيف يمتنع المرء عن حكاية تستحسنها حتى شفاء غير المتعلم والجاهل ، اكتنزت عصر بطلي القهبي باعتباره موضوعاً لحلاوة لا يفوقها شيء ؟ إن الرجل العادى لا يشعر بأنه ملزم بأن يعبر عن عواطفه الشاملة في شكل أدبى ؛ ولكن في الحالة التي أنا بصدها فإن أكثر الأشخاص شهرة وتميزاً في العالم الأدبى أبوا إعفائى من مهمة أعنى أنا نفسى منها بسرور . لقد أظهروا الى التشجيع وعروض المونة ، ولقد عبر الصديق الحميم للإمبراطور « جوليان » « أوريباسيوس البرجاموسى » Oribassius of Pergamum الذى جعله تدرسيه في العلم الطبى مستشاراً طبياً عظيماً ، وما يزال يمارس الطب بشكل عظيم ، بين في لغة سهلة أنه من الجرم من جانبى إذا لم أباشر المهمة . وقد شرع « أوريباسيوس » لإرشادى ، في تأليف مذكرات تفصيلية عن أعمال الإمبراطور ، وكل ما يعرفه بمعلومات كاملة من جانب أول من شاهدها ؛ وعلى ذلك وجدت نفسى لا أعذلى لتخلص من العمل حتى إذا ما رغبت في ذلك .

ماركوس الشماس

Mercus The Deacon

(٣٧٥ - ٢٤٥ م)

حياة بورفيرىوس : أسقف غزة

(نص توينر تحقيق أعضاء مجمع الفيلولوجيا في بون : الفصول ١ - ٣) .

إن نضال الرجال المقدسين واشتياقهم الإلهى وغيرتهم هى بمثابة المنظر الذى يثبت عيون المتفرج . إن النظر إلى هذا النضال يوحى بالإعجاب . وبذات الوقت فإننا

قد نحصل على معلومات لا بأس بها من القصة إذا ما أعيدت روايتها ، عندما تلقنها لأرواح القراء عقول تلم بالحقائق إلماً دقيقاً . وعلى الرغم من أن النضال في صورته الأولى أكثر قابلية للتصديق من صورته الثانية ، إلا أن الأخير يحمل في طياته الإقناع إذا ما استمد من مصادر موثوق بها . وإذا ما بقيت سجلات الأحداث الزاخرة بالمعرفة دون عبث ولم يتسرب الزيف إلى الحق لبدت كتابة مؤلفات في هذا الموضوع لا لزوم لها . إن إشاعة الحق بين قلوب كل جيل عن طريق التراث الشفاهي من شأنه أن يكون في هذه الحالة كافياً لأغراض التشويق . وكذلك ، لما كان الزمن قد أفسد السجلات ، سواء بتقادم العهد على المذكرات ، أو العبث عمداً في الرواية ، فقد اضطررنا هذا إلى أن أتكفل بالمؤلف الحالي . وهدى هو إقناذ مذكرات رجل قديس مثل القديس « بورفيروس » من أن يطمسه مرور الزمن . فإن تسجيل ما قام به ليعتبر وقاية حقيقية لأوثك الذين يقرءون له ، ومن الأوضاع المتناقضة أن الكتاب السرحين والمؤلفين الآخرين يبدلون طاقاتهم الأدبية في الطرف وحكايات السيدات المسنات ، بينما ترك ذكرى القديسين للنسيان ، دون أى جهد لإقناذها من المصير الأخير الذى ينتظرها . إننى أرتجف عندما أفكر في الجريمة التى ارتكبتها إذا ما أنا فشلت في إعلاء شأن مصير رجل كهذا - محبوب من الله - في شكل أدب دائم مصير غيور على المدينة السماوية التى تستمد منها إدراك الحياة .

وسوف لا أنص على حروبه ومنازعاته ضد قادة عبدة الأوثان وأبطالهم فحسب بل ضد سكان بأكلهم يستحوذ عليهم الجنون في كافة أشكاله أيضاً . لقد تذكر القديس كلمات الحوارى المبارك ، التى يقول فيها : « أتكل على الله . حتى تكون قادراً على أن تقاوم في اليوم الخفيف ، وأن تقف إذا أكلت كافي الأشياء » . وهذا هو السلاح الذى تمنطق به التلميذ السالف الذكر عندما دخل في منازعاته ، وإن « بورفيروس » الذى ووجه بنضال في مثل فسوة النضال الذى واجه الحوارى ، ضد خصوم ممتلئين في المدد والفظاعة ، قد توج بنصر مجيد مثلما توج به الحوارى أيضاً . وقد شيد تذكار هذا النصر في قلب بلاد العدو ، في شكل كنيسة المسيح

المقدسة التي أسسها القديس في غزة . ولم تكن طبيعته الإنسانية هي القوة التي أحرزتها ، ولكنها الحكمة التي جلبت النعمة السماوية على هذا العاطق المحب للكنيسة ، والذي أعد ليقوم بكل الأمور ويقاسى في قضيته من أجلها . وكم من هجمة مريبة من أيدي الأعداء لم يصمد لها هذا الشخص المجيب وكم خدعة واستهزاء لم يصبر عليها ؟ وستطول رواية القصة الكاملة لهذا الرجل العظيم ، وقصات كثيرة فيها ينظر إليها على أنها مشكوك في حقيقتها . ولهذا سوف أحصر نفسي في رواية حقائق قليلة أتذكرها أنا شخصياً من الفترة الطويلة لإقامتي معه ، عندما كان لي حظ الاستماع بهذه الروح المباركة والوهبة التي كان صاحبها الحقيقون هم اللائكة . هذا القديس الذي وهب كل صفات الكمال جدير بقاء الجنس البشري كله ، وبينما أنا حريص على أن تلك الصفات لثل هذه الشخصية فوق التعبير عنها بكلمات ، فإن صلواته القدسية تشجمني حتى أشعر أن هذه المحاولة يجب أن تتم . وسوف لا تكون هناك مغرفة في اللغة التي سوف أسرد بها قصته الجميلة . والكتابات لا يمكنها أن تضيف إلى زينة حياة رجال يمثل هذه الشخصية زينة . بل على العكس ، فإن كمال سلوكهم يشرف الكلمات التي تسجله . وعلى هذا فإنني متشجع ، في حالي ، بصلوات القديس آف الذكر ، لتناول هذه المهمة الأدبية . وخلال شفاعة هذه الصلوات ، فإنني أصلي من أجل نعمة ربنا يسوع المسيح ومساعدته ليكنني بكافة الوسائل ، أن أصف كمال ذلك الرجل القدوس والتمس من قراء هذا العمل ألا يرتابوا بمحتوياته . لقد كنت شاهد عيان لكمال «بودفيريوس» باعتباري زميلاً له في الميشة والترحال والوقوع ضحية الاضطهاد حتى آخر يوم من حياته هنا على الأرض .

بروكوبيوس القيصرى

Procopius of Caesarea

(٥٠٠ - ٥٦٥ م)

تاريخ حروب جستنيان Justinian

(نص توينر .. مجموعة الأعمال . المجلد الأول تحقيق ج . هارى الكتلب الأول .
الفصل الأول) .

كتب بروكوبيوس القيصرى تاريخ شتى الحروب التى شنها « جستنيان »
إمبراطور الرومان ، ضد غير الرومانيين فى الشرق والغرب . وهدفه من ذلك إنقاذ
أعمال على درجة كبرى من الأهمية من أن تتعرض ، إذا لم تسجل ، لا كتنساح
الزمن المنتصر اللانهاى ، الذى يهدد بإلقائها فى خضم النسيان . حيث يندثر
ذكرها تماماً . ويعتقد المؤلف ، أن صيانة هذا التسجيل سيوف تكون لها آثار هامة
ومفيدة للأجيال الحاضرة والمقبلة ، فى حالة إذا ما وقع [الجنس البشرى] مرة
أخرى خلال التاريخ تحت ضغط موقف مماثل . وإن الأطراف التى تحفزها إرادة
الحرب أو تدفعها لتشرع فى تجربة القوة ، هذه الأطراف لها دروس قيمة تتعلمها
من النتائج التى تقدمها أبحاث من هذا القبيل ، وهذه النتائج قادرة فى حالة عرض
نضال مماثل فى الماضى على أن تلقى ضوءاً على مشكلة الحاضر محتملة الوقوع (على
افتراض أن الموقف يبالغ بمحكمة) . ويشعر المؤلف نفسه أنه أهل بصفة خاصة
لكتابة هذا العمل لسبب واحد وكاف ، هو أنه لما كان الناصح الأمين للجنرال
« بليزاريوس » Belisarius ، فقد كان من حقه أن يسهم شخصياً فى سائر
الأحداث تقريباً موضع البحث . وهو يعتقد بأن زينة الصحافة الحقيقية ، هى التائق
وزينة الشعر هى العواطف وأما زينة التاريخ فهى الحقيقة ولهذا السبب ، فإن المؤلف
لم يدار الجانب الظلم عند مناقشة حتى أقرب الأصدقاء إليه ، إلا أنه وصف

يأسباب سلوك كافة هذه الشخصيات (سواء كان موثقاً به لديهم أو العكس)
بدقة واعية .

وسوف يكون من الواضح ، بالنسبة إلى عقل غير متحيز ، أن أحداث هذه
الحروب كانت على الأقل بارزة ومهيبة مثل أى حادثة أخرى . لقد كانت هذه
الأحداث مسئولة عن وجود شخصية أكثر شذوذاً ، أكثر من غيرها ، من
الأحداث الباقية السجلة ، فيما عدا (على وجه الاحتمال) من وجهة نظر القارئ
الذى يصير على إعطاء الأولوية للقديم ويرفض أن يتأثر بأى شئ فى العالم المعاصر
والثال الأول الذى يتطرق إلى ذهنى هو تكلف الإشارة إلى الفضائل المصرية مثل
« رماة النبال » والاحتفاظ ببعض الألقاب (مقاتل يد فى يد) أو (رجال تحت
السلح) للمقاتلين القدامى ، متوهمين بشكل وثيق أن هذه الصفات العسكرية
منقرضة فى عصرنا . ومثل هذه الافتراضات إنما تكشف عن سطحية غادرة
ونقص مطلق فى خبرة القدين يفترضونها . ولم يخطر ببالهم أن رماة النبال فى شعر
« هومر » هم من شهر فى وجوههم السلاح دلالة على القلب الشين ، لم يكن
لديهم لحم خيول فى ركبهم ولا رماح فى أيديهم ولا سترة حديدية تغطيهم . لقد
ذهبوا للقتال على الأقدام ، وأجبروا على أن يستروا خلف درع واق لأحد
رفاقهم أو الاحتماء فى ضريح — أجبروا على أن يأخفوا وضماً حال بينهم وبين
انتشال أنفسهم من الهزيمة ومن مطاردة عدو يتقهقر ، وفوق هذا كله ، من القتال
فى العراء . ومن ثم فإن شهرتهم جاءت من قيامهم بدور مستور فى لعبة الحرب ،
بينما تحملوا قليلاً مع فئهم بمزلة عن ذلك كله ، الذى يقضى بأن يشدوا فى قديفتهم
خيطة القوس إلى الصدر ، وينتج عن ذلك بطبيعة الحال أن تنتهى التغذية ، ويطلق
تأثيرها بفضل الفترة التى تسلك فيها إلى الهدف . وقد كان هذا بلا شك هو المستوى
الذى وقت عنده النبال فى أزمنة باكورة . وعلى التقيض فإن النبال المصرية
تستخدم بمهزة بدرع وركب جلدية وجعبة سهام على الجانب الأيمن والسيوف على
الجانب الآخر ، بينما بعض الفضائل لديها رماح معلقة فوق أكتافهم وترس منفر

بلا مقابض^(١) على شكل قطر دائرة يغطي الوجه والرقبة . أما وقد أصبحوا فرساناً مرموقين ، فقد تدرّبوا على أن يشنوا قوسهم دون جهد على الجناح عند اتخاذ وثبة كاملة ، وأن يضربوا عدواً بطاردهم في مؤخرته كما يضرب العدو الذي يتقهقر في مقدمته . إنهم يشدون حبل القوس إلى الوجه ، في مستوى الأذن اليمنى تقريباً ، الذي يحمل للتذيفة قوة كهذه بحيث يكون اصطدامها قاتلاً حقيقة ولا يستطيع الترس أو الدرع أن يقاوم زخمته (قوته المتحركة) . وأياً كان الأمر ، فبعض الناس يؤثر تجاهل وجود هذه النضائل ويتأثر على تعلق مكشوف للقديم ويرفض أن يسلم بتفوق المخرعات المصرية . إن سوء فهم على هذه الشاكلة ، لا قيمة له بالطبع ، في سلب الحروب الصغيرة أهميتها الفائقة .

تاريخ لم ينشر

(نص توينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، تحقيق ج . هاري : تاريخ لم ينشر ، الكتاب الأول ، مقدمة .)

في كتابي (التاريخ الحربي للشعب الروماني) حتى التاريخ الراهن ، قد رتبت وصفي للأحداث تحت عناوين زمنية وجغرافية بأقصى ما في وسعي . وفي بقية عمل سوف أتبني مبدأ مغايراً في التأليف ، فسوف أسجل كل شيء حدث فعلاً في كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية . وسبب تثير هذا المنهج هو أنه كان من المستحيل أن نسجل هذه الأحداث بطريقة صحيحة ، طالما بقي أصحابها على قيد الحياة . كان من المستحيل بالدرجة الأولى ، أن نقلت من جيش الجواسيس أو أن نهرب من دمار الموت المرعب ، إذا ما اكتشف أمرنا ، فيما لا يمكن أن تكون هناك ثقة في ولاء حتى في أقرب

(١) (على وجه التخمين) يطلق على الكوع ولا يمتح به بقضة اليد . انظر لوجه الفارس البارز للملك خسرو الثاني ملك فارس (حكم ٥٩١ — ٦٢٨ م) في ناك — ي . بوستان ، الذي أعاد عرضه في Am Tor von Asien E. Herzfeld (برلين ١٩٢٠ ريمر) . الحق .

المقرين . وعلى هذا كنت مجبراً أن أحجب أسباب كثير من الحقائق المذكورة في مجلداتى السابقة ، ومهمتى في العمل الراهن من شأنها أن تفسر حقائق مرت حتى الآن في صمت ، وبالمثل أسباب حقائق غير واضحة حدثت بالفعل .

وعند الشروع في هذه المحاولة الثانية المسيرة التي لا تقاوم ، وهي محاولة كتابة تاريخ حياة « جستنيان » و « ثيودورا » Theodora فإننى أجد ملكاتى وقد شلت عندما أفكر أن محتويات العمل الراهن تبدو أنها ليست جذيرة بالثقة أو التصديق من جانب أجيال المستقبل ، ولا سيما عندما أضع في اعتبارى كيف أن مجرى الزمن الدائم يستنزف العمر الضعيف في كل رواية . إننى أخشى أصلاً اكتساب شهرة الروائى وأخشى أن أوضع في مصاف المؤلفين السرحيين أكثر من مصاف المؤرخين . وأيما كان الأمر ، فلدى سبب واحد للثقة بمنعنى من الإحجام عن تحمل عبء عملى ، وهذا السبب هو وجود شهود عيان على صواب روايتى . فإن الجيل الراهن هو شاهد يلم جيداً بالأحداث محل البحث ، وإننى قد أتركها لأيندى أمينة كي تنقل لقرائى في المستقبل اعتقادهم الخاص بصدق .

وأيما كان الأمر ، فهناك اعتبار آخر ، طالما عاقبى حينما استحوذ على حماس هذه المهمة الأدبية . وتشككت في أن يكون إتمامها ضاراً بالأجيال المقبلة . إن أكثر الجرائم فظاعة هى على وجه التحديد تلك التي يرغب في إخفائها عن الخلف ، حينما يتطلع الحكام المستبدون إلى عدم تكرارها كما يفعلون ذلك ولا بشك إذا ما وصلت معارفهم . إن حكام اليوم هم في العادة غير واهمين . إذ أنهم يجدون من الأوفى أن يروا الجانب السيئ من أسلافهم وقد ظهر في محادثتهم ، وأن خطأهم في المقاومة الأقل يعيد بشكل غير مغاير أخطاء الماضى . وأيما كان الأمر ، فقد دفعت هنا بالتالى إلى تسجيل تاريخ الأحداث مرتبطاً بالتأمل الذي يقضى بأن طاعة المستقبل سوف يتلقون منها دروساً مميّنة مفيدة — أولها أن الجزاء على رذائلهم ليس من المحتمل أن يصيبهم ، كما أصاب أشخاص روايتى ، بينما في المحل الثانى سوف يسجل سلوكهم وشخصيتهم إلى الأبد ، وهو اعتبار قد أوقف الباعث عندهم على الخطأ . إن عمل

« سميراميس » Semiramis الداعر وجنون « سردانا بالوس » Sērdānapalus
و « نieron » بعد هذا كله لم تكن ليعرفها فرد واحد في الأجيال المقبلة إذا لم
تكن السجلات قد تركت لهم من المؤرخين المعاصرين ، والجدير بالذكر في هذا
الصدد أن الرواية قد تبدو كلها مفيدة لضحايا طغاة المستقبل في ظروف مماثلة . إن
الكادحين يستمدون السلى عادة من إدراكهم أنهم ليسوا وحدهم في المصائب .
ولهذا سوف أبدأ بروايتي ، وسوف أصف فيها من البداية سلوك « بليزاريوس »
لسي . والسلوك المشين لجستينيان وتيودورا بعد ذلك .

أجاثياس الميرهنى

Agathias of Myrrhina

م (٥٣٧ / ٥٣٦ - ٥٨٢)

(تاريخ عصره)

(نص توينر Historici Graeci Minores تحقيق ل . دندورف — المجلد
٢ صفحة ١٣٢ . الكتاب الأول ، مقدمة)

ثم يريق نجاح يحيط بانتصارات الحرب وأكاليها ، ودمار الدول وعظمتها ،
وكافة زينات الأحداث الكبرى . وجوائز كهذه تجلب المجد والمتعة للمحظوظين
الفائزين بها ، إلا أنه ، عندما يترك هؤلاء الفائزون هذه الحياة الدنيا ويمضون إلى
العالم الآخر ، لا يجدون من يسير أن يحملوا أعمالهم معهم . فيتسلل التسيان
إليها ويلفها ، حتى تفسد السار الحقيقي للأحداث ، وحتى حينما يرسل شهود العيان
عن هذه الدنيا بدورهم ، فإن معرفة الوقائع تنطفيء معهم وتنشبت إلى لا شيء . إن
مجرد الذكرى بمثابة وهم لا طائل تحته فليس له صفة الدوام أو قوة البقاء جنباً إلى
جنب مع الزمن وامتداده الدائم . وفي اعتقادي ، أن الأبطال الذين جازفوا عامدين
بحياتهم في سبيل بلادهم أو تحملوا عبء الآخرين فوق أكتافهم ، هؤلاء ما كانوا
يفعلون ما فعلوا لو كانوا مثلكدين أنهم حينما يصلون إلى قبة العمل الإنساني ،

سوف تفتى شهرتهم معهم وتحلل إلى لا شيء خلال فترة حياتهم القصيرة ، فيما عدا ما يمكن أن يعتبر بمثابة العناية الإلهية التي قوت ضعف الطبيعة البشرية بتقديم نعم وآمال دافقة من فن التاريخ . وإننى أتصور أن الزيتون وأطراف البقدونس لم توح إلى الظافرين بالأوليب أن يظهروا عراة في الحلبة ، وكذلك فإن الرغبة في النعمة المباشرة من الجائزة المالية ليست هي التي دفعت بحيرة الجنود إلى أن يتحملوا مشاق الحرب المفروضة والتي لا يمكن الخطأ فيها . إن الجائزة التي كدح في سبيلها الفريقان هي المجد البراق غير القابل للتلف ، وهذا ما يمكن الحصول عليه فقط بالخلود المقصور على التاريخ ، الذي لا يحمل منهاجسه أى مشابهة لطقوس « زامولكسيس » Zamolxis وحماقات العقيدة الجيتية ^(١) Getic ، ولكنها وسائل إلهية - قديمة وخالدة وهي الوسائل الوحيدة التي يمكن بمقتضاها للكائنات الحية أن تعيش إلى الأبد . وإنه لمن الأمور غير اليسيرة أن تقدم قاعة مضية للنعم التي يملأ بها التاريخ حياة (الإنسان) ، إلا أننى لا أستطيع أن أنسها في عبارة بأن أعبر عن الرأى الذى لا يعطى الأولوية تماماً إلى الفلسفة السياسية وقد تكون صاحبة الفضل الأكبر من الاثنين . إن الفلسفة السياسية مربية عنيدة لا يمكن المساس بها ، توزع أوامرها وتضع أنظمتها إزاء الأهداف السليمة التي يبحثون عنها أو يتحاشونها . إن إقناعها لا يخلو أبداً من عناصر الإكراه ، بينما يعتمد التاريخ إلى أقصى حد ممكن على الجاذبية ، فيحيط دروسه بتنوع خصب من الإيضاحات ، ويقدم في شكل أدبى ، الأمثلة التي حصل بها الرجال على الثقة من وراء ممارسة الحكمة والاستقامة وتلك الأمثلة الأخرى التي انتقاد فيها الرجال إلى خطوة زائفة بسبب قرار أو فرصة مشؤومة وذلك حتى يفرسوا في النفوس برقة وبشكل غير محسوس الصفات التي يزدانون بها لحمد كبير ، والتي توضح أكثر الجذور عمقاً ودواماً حتى تصبح متجانسة في الطبع ويتقبلونها طواعية .

ونتيجة لتبصر طويل وتأمل في امتيازات التاريخ ، شمرت بأنه من المحتم أن

(١) كان زامولكسيس النبي المبهم للجيتيين أو الداقيين وهي قبيلة هاجرت (في القرن السابع ق . م على وجه الاحتمال) من أقاليم استبس أوراسيا إلى وادى الدانوب بين البلقان والكارين وقد جلبت معها عقيدة متقلبة عن الخلود نثنت بها الهلينيون (المحقق) .

أدفع له فريضة الإعجاب وأن أثنى على فضائل الإنسانية التي أنجزت بالفعل نتاج المؤلفات التاريخية، إلا أنني لم أشعر بأى إلزام فى أن أضع يدى فى هذه المهمة بنفسى حتى ولا مجرد أن أحاول ذلك . لقد كان حىي الأول ، منذ صباى، للشعر البطولى ، وإننى لمسرور فى خيلاء هى بمثابة التوابل للفن الشعرى . وأنا فى الواقع مؤلف قصائد قصيرة ذات تفصيلات ستة وبعنوان (Daphniaca) موشاة برومانسية عاشقة ومنعمة بمجازيات أخرى من النوع ذاته . وبدأ الى أيضا ، ذات مرة أنه عمل جدير بالثناء والشكر، أن أثقل مجموعة كاملة على قدر ما يمكن بقصيدة موسمية حديثة لم تكن حتى ذلك الحين ذات صفة عامة ، ولكنها كانت تتردد على شفاه قليلة دون اهتمام كبير بصحتها ، وأن أعد نسخة منقحة ومرتبة ترتيباً سليماً . ولقد كنت موفقاً فى تنفيذ هذا المشروع إلى جانب عدد آخر من المشروعات الأدبية ، التى يمكن أن تستحوذ على جاذبية مميعة وسحر خاص بها ، على الرغم من أنه يكاد يمكن القول بأن لها هدفاً عملياً . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الشعر شىء قدسى وخارق للطبيعة . فهو يلهب النفوس غير (كما يعبر الفيلسوف ابن أرسطون ^(١) Ariston) ويتولد عنه نتاج من الجمال الفائق ، إذا ما كان ملهماً فى الأصل واستحوذ عليه الهوس الإلهى . وعلى هذا كان قصدى أن أكرس وقتى للشعر وألا أترك باختيارى هذه الحرفة الرفيعة والبهجة ، سوى أن أتبع تعاليم دلتى وأن « أعرف شئونى الخاصة بى ^(٢) »

وأما كل الأمر ، فقد قدر لى أن أولد فى جيل نشبت فيه حروب كبيرة غير متوقعة فى أجزاء كثيرة من العالم ، وهاجرت بعض الشعوب غير المتحضرة إلى أوطان جديدة . وزخرت حياة الجنس البشرى كله بسلسلة من الأحداث الغامضة ولا يمكن تصديقها لأنها اتسمت بنهايات شاذة ، وبذبذبات الحظ العنيفة ، وإبادة الأجناس واسترقاق الشعوب وإحلال شعوب أخرى محلها ^(٣) . وقد أوحى إلى رؤية هذه الأحداث المشثومة وغيرها ببعض الشكوك المينة كذلك التى ينبغى على

(١) هو أفلاطون (المحقق) .

(٢) كان النقش المشهور فى دلتى هو (اعرف نفسك) المحقق .

(٣) تنويه منق بفقرة فى مقدمة ثوكوديدس (المحقق) .

الا أكون غططاً في حق (النور) إذ أتركها دون تسجيل أو دون ذكر ، وقد - كنت ممتناً لأقصى حد بأحداث كهذه ذات أهمية فائقة يجب أن تكون لها قيمة موضوعية للرخاء . ولقد وصلت إلى الخاتمة التي ينبغي ألا تكون بعيدة عن عنايتي لعمل بعض تجارب في كتابة التاريخ، حتى يمكن أن تنقضي حياتي كلها حول رومانسية الأدب وغرائبه ، ولكن يجب أن تحمل بعض الثمار العملية على خير وجه . وقد زاد الباعث عندي قوة وإثارة إلحاح كثير من أصدقائي وتشجيعهم ، وعلى الأخص من جانب الصديق الصغير «يوثيخيانوس» Euthychianus بينا المبادرة قد تمت من جانب رهي في الخدمة المدنية ، جعلت منه شخصيته السامية وذهنه التوفد وكال تعليمه زينة متألفة لبيت (فلوري) Florii . فهذا السيد الذي وضع مصالحي في قلبه وأولى تقديراً كبيراً سواء في الشهرة الأدبية أو الشهرة العلمية ، ثابر على أن يحفزني ويشجيني على النجاح . ولم يدع لي أن أعتبر المشروع صعباً أو في غير طاقتي ، ولا أن تثبط همتي بحجة التجربة كما يفعل رجل البر في رحلته البحرية لأول مرة . لقد أوصاني بأسلم وجهة نظر وهي أن التاريخ ليس بعيد المزال من الشعر ، وأن الفنين شقيقان في أسرة واحدة وليس بينهما ما لا يمكن إدراكه ، فيما عدا نظم الشعر الذي يفرق الواحد عن الآخر . وكان لي أن أعتبر نفسي في بيتي في كل من المسكرات وأن أتحرك وأبدأ العمل بثقة وطاقمة ثلاثين . لقد وصلت تعاويز أصدقائي إلى آذان صاغية فتقومني تفويماً مفناطيسياً ، وهكذا تكفلت بالملؤف الراهن . وإنني أثق بأن النتيجة قد تكون جديرة بغيرتي ، وقد تتطابق تقريباً في أهمية الأحداث المسجلة .

وعلى بادئ ذي بدء ، أن أفتق أثر التجربة المعتادة لكتاب التاريخ وأن أوضح هويتي . إن اسمي الخاص هو أجاثياس ، ومسقط رأسي هو «ميرينا» وأبي هو «ميمونيوس» Memnonius . ومهنتي هي القانون والحمامة . و (ميرينا) التي أشرت إليها ليست عاصمة البلاد في تراقيا ، كذلك فليس هناك مكان آخر في أوروبا أو أفريقيا يحمل هذا الاسم ، فيما عدا مستعمرة (أبوليان) Aeolian في آسيا ، التي تقع عند مصب نهر (بيثيكوس) Pythicus ،

الذى ينبع من بلاد ليديا ، L dia ، ويصب في الخلاء الداخلى لخليج الإلياتيك Eleatic . وآمل أن أرد إلى مسقط رأسى جزاء تربيتى الكاملة لى ، وأن أنشر تاريخاً مفصلاً جديداً لكافة أعمالها التاريخية الشهيرة من جيل إلى جيل . وأما فيما يتعلق بالوقت الراهن ، فآلمس منها أن تقبل ثنائى راضياً وفى نعم حماسى أقدم وأمضى به إلى الأحداث الكبيرة ذات الأهمية العظمى .

وسوف لا يتمثل كتابى فى طبيعته بعض ما سلكه المؤرخون المعاصرون . فهناك بالطبع ، آخرون فى الوقت الراهن شرعوا بالفعل فى المهمة ذاتها ، إلا أنهم أولوا اهتماماً ضئيلاً فى معظم الأجزاء للحقيقة أو رواية الأحداث كما تشكأت فعلا من جانب الحظ ، وآثروا بدلا من ذلك أن يتملقوا ويمجاملوا عسداً من ذوى المناصب العالية بطريقة لا يمكن لأحد أن يصدقها ، حتى إذا ما تصادف أن قالوا الحقيقة . وإيما كان الأمر ، فقد أعلن الخبراء أن المبالغة فى جدارة الفرد هى من وظيفة الصحافة ، والصحافة وحدها ، بينما التاريخ ، على الرغم من أنه لا يرفض من ناحية المبدأ ، الإشادة بالأعمال الناجحة ، ونمى الانهيارات ، وأظن ، أننى أقبل هذا كهدف للتاريخ وخاصة له ، إذ أن سياء الأحداث تقترض الملح أو الدم ، فالتاريخ ليس مطلق اليد فى أن يصنى الأحداث أو يوشىها . إلا أن هؤلاء المؤلفين الذين يدللون على أنهم يكتبون التاريخ ويسمحون بأن يكون هذا الأمر واضحاً فى اعترافات الصفحات الأولى ، قد اقتنموا نتيجة لفحص ممارسة سريعة ومنسابة ، اقتنموا بالاسم الذى ينتحلونه لمؤلفاتهم . وهم ، فى تناول الأحياء (سواء حدث هذا بالنسبة للحكام أو لرجال آخرين مرموقين) لا يثنون عليهم فى رواية أعمالهم فحسب (التى قد تكون خطأ يفتقر إلى حدما) ، ولكنهم يعملون أيضاً على إيضاحها لكل قارى بحيث أن اهتمامهم الوحيد قد زاد عن الحد الضرورى لملاح أبطالهم وتمجيدهم . ومن ناحية أخرى ، فعند تناول الأموات ، أياً كانت شخصيتهم الحقيقية ، فإنهم إما أن يقدموم باعتبارهم مجرمين ومن مصائب المجتمع ، وإما يسلكون مسلكاً معتدلاً فيتجاهلونهم وينكرون كل ذكر لوجودهم . وهذا هو تصورهم لمعالجة المصالح المؤقتة وتأمين النافع الشخصية بالخنوع للسلطات القائمة . وهم لا يدركون أنه حتى أولئك الذين يكيلون لهم الثناء

لا يرضون أنفسهم بهذا الاهتمام ، واضعين في الاعتبار كيف أن هذا الخيط الدقيق من الملق يمكن أن يعزى إلى شهرتهم . ويجب على هؤلاء المؤلفين أن يكتبوا كإشير عليهم الاتجاه والتعود ، إلا أنني في حالي ، أصمم على أن أضع الحق في اعتباري الأول ، أيًا كانت الظروف .

وسوف أسجل عمليات ذات أهمية عامة عند الرومان والجزء الأكبر من العالم غير الروماني حتى تاريخنا الراهن (دون إهمال أى شيء هام) ، وسوف لا أقصر روايتي على أعمال الأشخاص الذين ما زالوا أحياء ، ولكن سوف أفسح حيزاً أكبر لأى شيء أو شخص رحل الآن ، وعلى هذا فعلى الرغم من أنني أتعرض لتاريخ الفترة التي تلت وفاة جستنيان ، حينما مانجح « جستن » justin الأصغر في التربع على المنصب الإمبراطوري ، إلا أنني سوف أرجع إلى الفترة السابقة وجل هي أن أبحث عن أية أحداث لم يسبقني إليها مؤرخ آخر . إن الجزء الأكبر من أحداث عصر « جستنيان » قد سجل بالفعل وبتفصيل على يد « بروكوبيوس القيصري » ^(١) وبالتالي سوف أتركها ، مطمئناً إلى أنها لقيت تناولاً دقيقاً على يديه . ومهمتي الوحيدة أن أتناول القصة حيث تركها بروكوبيوس ، إلى أقصى حد من قدرتي ...

[يلي بعد ذلك جدول بمحتويات تاريخ بروكوبيوس]

إن الأحداث المشار إليها في الجدول السابق تصل بالرواية حتى العام السادس والعشرين من حكم « جستنيان » ^(٢) ، وهذه (إن لم أكن مخطئاً) هي المسألة التي ختم عندها « بروكوبيوس » مؤلفه وأنها عندها . وعلى هذا سوف أنتقل الآن إلى الجزء التالي وهو ما كان هدفاً لي منذ البداية

(١) الخافي (المؤلف) .

(٢) ٥٥٢ م (المحقق) .

تاريخ عصره : مقدمة للمجلد الثالث

(نص توينبر Historici Graeci Minores تحقيق ل. دندورف . المجلد

الثاني صفحة ٢٣٦ الكتاب الثالث . الفصل الأول)

ناقشت في المجلد السابق أنظمة فارس ، وثوراتها السياسية المعقدة ، والمسائل الأساسية (كما أراها) والتي تتعلق بـ « خسرو » Chosroes وأسرته . وعلى الرغم من الحيز الذي لا بأس به والذي خصصته لتناول هذا الانحراف ، والارتباطات الطفيفة المقارنة مع ما سبقها ، فإنني على ثقة بأن أحداً سوف لا يشعر بأنها من نافلة القول أو لا طائل تحتها ، إلا أن قرأني سوف يتفقون معي في أن فيها ارتباطاً سعيدياً من البهجة والمعرفة . ومقصدي ، كما هو مفتور عندي ، ومسعى الحاد هو أن (أمزج بين ربات النعم Graces وإلهات الفنون الجميلة Muses) ، إلا أن هموم هذا العالم كانت تشدني إلى اتجاه آخر دائماً ، وتضطرنني الحاجة إلى أن أسير ضد كافة ميولي . إن مؤلفي التاريخي يعتبر أكثر الأعمال أهمية ورفعة يمكن أن يحوزه إنسان ، إنه أرفع من أي عمل دنيوي آخر ؛ إلا أنه (مصداقاً لمنشدي بيوتيا العذاب) قد وضع قسراً في المرتبة الثانية من حجة الحياة ، وقدمت أن أحيا الحياة كاملة في عالم رغبتني . وبيني أن أعد دراسة تكميلية لأدب الماضي حتى أتخذها نموذجاً لي ، كما ينبغي أن أتأمل وأخص في تفضيل التجمعات المختلفة للمادة التاريخية ، وأن أطلق ذهني يتفرغ ويركز بمجهوده لهذا النشاطات . وبدلاً من هذا قبعت في التفرقة من الصباح حتى المساء الذي أكتب موجزات لأحصر لها وأوراق لأعد لها . وإنني حائق على الموكلين الذين يزعجونني ، كما أنني أحس بالدهشة عندما لا يزعجونني بدرجة كافية ، لأنني لست قادراً على أن أكسب قوت يومي دون متاع وعناء . وأيما كان الأمر ، فهما كانت المعركة شاقة فسوف لا أكف عن العناء الذهني طالما كان اتعالى يعضدني ، أيا كان من المستغرب أن تهدف للارتفاع جداً (أو أن تسعى لتجد مكاناً في وعاء الفخار) . وقد يكتب النقاد عن عملي أنه جنين عقل كاذب وغر ممكن إدراكه وحائر بفعل شتات مصالح كبيرة ، إلا أنني آمل على الأقل

وأن أكون واحداً من المنشدين غير الموسيقيين الذين يقدمون متممة مركزة لأنفسهم .
إيما كان الأمر ، فقد حان الوقت أن أرجع الى روايتي ، لأنه اذا ما انقسمت في
انحراف أبعد فقد أنهم في إرتكاب ذنب لا يطاق .

ميناندر الديديبان *

Menander the Guardsman

(عرف في النصف الأخير من القرن السادس بعد المسيح)

تاريخ عصره

(نص توينر Historici Graeci Minores تحقيق ل . دندورف المجلد ٢
صفحة ١)

لم يتمتع أبى ، « يوفراتيس » Euphrates ، كان مواطناً بيزنطياً ،
بميزة اسليم العالي ، أما أخى « هيرودوت » فقد اضطر ، عندما تنوَّق التعليم
القانونى في البداية ، إلى الثورة ضد المستقبل القانونى . ولم يسمح لى وعيى الذاتى أن
أجبر القانون حتى أعمت دراستى ، وعلى هذا فقد أعمتها على أفضل ما أستطيع ،
إلا أننى لم أمارس العمل القانونى أبداً . ولم أجد العمل فى المحاكم من نوع واحد ،
وما زال فى الاتجاه المنتظم فى القاعات والمجھود الذى من شأنه أن يوجد تأثيراً
صالحاً على المتقاضين بالتألق الذهنى أقل مرتبة . وعلى هذا أهملت مستقبل بسبب
مواصلة الاستهتار والتبذير بشكل كبير غير مرغوب فيه . لقد كان قلبى ينتظم فى
الفرق الملونة ^(١) ، واضطرابات السباق ومنظر الباليه . وقد دخلت الحلبة أيضاً ،
وقت مجامعتى بصعوبة على الصخور حتى إننى نزعنت عنى ممطنى ، ومعه ذوقى العام
وآداب الحياة .

* يعرف فى التاريخ المسيحى بميناندر العراف ، إذ قال إنه (الخمار) وإن اللاشككة
خالقة العالم (المترجم) .

(١) هما الفريقان (الأزرق والأخضر) اللذان يؤيدان الحيل المختلفة فى السباق ، وكانا
منظمين بإتقان حتى إنهما أصبحا ، فى القرن السادس بعد المسيح قوة سياسية فى القسطنطينية
(المحقق) .

وقد استمر هذا حتى تقلد «موريس» Maurice التاج الإمبراطورى ،
الذى لم يظهر قلقاً وراثياً فحسب إزاء رعاياه ، ولكنه كان أيضاً محباً للأدب ،
وقارئاً غيوراً للشعر والتاريخ لدرجة أنه اعتاد أن يقضى الجزء الأكبر من المساء
فى متابعة هذه المتعة ، وبالتالى يشجع الأذهان التراخية وبثيرها بمشروعات مالية .
وفى ذلك الوقت اضطررتنى ضيق المؤلم للوسائل غير الكافية ، والتى كانت عقوبة
لأنجرائى فى الخيال ، اضطررتنى إلى أن أضع فى اعتبارى أيضاً تذبذرى الذى لا طائل
تحتة . وعلى هذا قررت أن أضع هدفاً مالحياً بتحويل طاقاتى إلى العمل الراهن
الذى اتخذت فيه وفاة سلفى «أجاثياس» استهلالاً لتاريخى ..

وقد أقت آمالى فى النجاح على أهمية موضوعى أكثر من امتياز أسلوبى ، لأنه
لا يمكننى أن أبلغ ، بشكل معقول ، ذلك المستوى من الثقافة الذى يبرر تمرضى
للتأليف الأدبى ، واضحاً فى اعتبارى الحياة التى لا أهمية لها والمضطربة التى
عشتها حتى الآن .

ثيوفيلاكطوس سيموكاتا^(١) المضرى

Theophylactus Simocatta The Egyptian

(٥٦٠ - ٦٣٠ م)

التاريخ الكونى : حوار بين الفلسفة والتاريخ

(نص تويينر تحقيق لـ . دى بور C. de Boor)

الفلسفة : ما هذا يا بنى ؟ هلا حلت لى هذه المشكلة التى أطلع لمرفة سرها ،
يخيط ذهبي من ضوء الحقيقة يرشدنى خلال البعد عن التاهة الخرافية . إننى لأجد
تناول التأملات بالغ الصعوبة فى تداوله .

(١) معناه (القط أفضس الأت) - المحقق .

التاريخ : أيتها الفلسفة ، يا مليكة الكون : إذا ما كان يصح حقيقة أن
أكون مطلقاً لك ، وتكونين تلميذة لى ، لأجبت بقدر ما يسمح به ذكائى . إننى
أتفق مع فيلسوف بركة^(١) Cyrene فى رغبته ألا أجعل شيئاً تجدد معرفته .

الفلسفة : أود أن أسألك يا بنى ، ما هى الوسائل بالتحديد التى جلبت بها
الحياة للأمس وأول من أمس ، إلا أن عباراتى تنمثر مرة أخرى ، وكما لو كان
العنان يلزمنى الصمت ، معتقدة بأن الرغبات يغمرها الحياء . هل ضللتنى خدعة
مشعوذة ؟ يا طفلى ، لقد مت لأمد طويل . منذ أن تم غزو البلاط الإمبراطورى
على يدى الطاغية الكاليدونى^(٢) Calydonian المكسب بالفولاذ ، وشبيه
الفول المتوحش الكوكلوبس Cyclops والكتنور Centaur الذى لوث جلال
رداء الإمبراطور وحط من شأن التاج الإمبراطورى لقاء جائزة من الدعارة . وأنا
لا أستطيع أن أذكر جرأه الأخرى إذا ما أنا راعيت وقار القارى وكرامته .
وبهذا الصدد نفسه ، فقد كنت أيضاً قد أقصيت عن النطاق الإمبراطورى ولم أجد
مأوى فى أنيسكا ، حيث كان سيدي سقراط قد أعدمه « أنيتوس التراقى »
The Thracian Anytus . وفى الوقت المناسب جاء « بنو هرقل »^(٣) بالخلع ،
وأعادوا الدستور وطهروا القصر من الدنس ، وأعادونى مرة أخرى فى النهاية إلى
الأراضى الإمبراطورية . وزدد صدى صوتى فى الأماكن الإمبراطورية كما لو كنت
ألحن اللحن الأنيبكى القديم . كما هو الحال الآن ، ولكن ، يا بنى ، كيف تم
إنقاذك ، وعلى أيدي من ؟ .

التاريخ : أيتها الملكة ، ألا تعرفين الكاهن الأعلى العظيم وسيد المعمورة
بأسرها^(٤) ؟

(١) ربما كان أرسطوبس أو كاليماخوس — المحقق .

(٢) هو الإمبراطور فوكس الذى حكم من ٦٠٢ — ٦١٠ م (المحقق)

* (أصحاب العين المستديرة) عمالقة متوحشون يأكلون لحوم البشر (الترجيم)

(٣) المقصود هرقل وأسرتة التى أطاحت بفوكس وذريته (المحقق) .

(٤) بطريرك القسطنطينية (سرجيوس) المحقق .

الفلسفة : لماذا يا بني ، إنه من أقدم أصدقائي وذخري الخالص .

التاريخ : إذن أيتها الملكة ، قد وجدت بنفسك الرد على تساؤلك . إنه هو الذي رفعتني من مقبرة الجبال وتفتح في أنفاس الحياة . لقد كنت كالمملكة الكستيس Alcestis . وأعادتني هو بكل حماية هرقل . وبكرم الأمراء أخذني إلى منزله وألبسني ملابس زاهية وزينني بمعدن ذهب . وهذه النريجة التي ترينها قد رشق عليها جندياً ذهبياً^(١) ، قد ألبسني إياه المحسن العجيب ، والذي جعلني أشع بوهج عقل الراهن ، وقدم لي منبر خطابة شيد عن طيب خاطر لاستمالي الخاص ، وأطلق لي حرية قول الحق دون خوف من الأخطار .

الفلسفة : يا بني .. إنني أجمل الرئيس النبيل لشهامته التي أبداها . مأصعب مرتقي الأعمال الذي تسلفه ، حتى احتل مكانه على قمة اللاهوت الشاهقة وأقام مأواه على سمت الفضائل . إلا أنه لم يحتقر النجاحات الضئيلة . وقد كرس حياته إلى أسمى النشاطات الذهنية ، لأنه لا يمكن أن يتحمل أن يبقى هذا العالم الأرضي في فوضى . فهل يوليني كل أحيائي ثقتهم كما يفعل هو . بكل تأكيد ، فإن الفكر إذا لم يكن قد تقلب على الأرض في شكل غير هيولي ، لأصبح متجسداً وعاش شيئاً بالإنسان بين الناس .

التاريخ : يا مليكتي ، ما أجل نسج إكليل ثنائك ، ولكن إذا ما تنفصلت ، هلا جلست قليلاً تحت جذع هذه الشجرة الفارعة ؟ إذ أن فروعها تنتشر بشكل جذاب ، وارتفاع شجرة الصنصاف وظلالها هذه لجذيرة بالإعجاب أيضاً^(٢) .

الفلسفة : فليبدأ الطريق يا بني ، وقدم للتاري الخالي مقدمة كنقطة بدء للرواية . وسوف أمتحك فكري كأي ملك من (إتاكا) Itaka وسوف لا أصم أذني ، وإنما سوف أصغي لصوتك الفاتن وأنت تحكي قصتك .

(١) إشارة لا معنى لها إلى عبارة في مقامة توكوتيدس (الحق) .

(٢) تنويه ساذج بمعاورات أفلاطون (الحق) .

التاريخ : أيها الملك ، سوف أطيعك وسوف أهرق قيثارة التاريخ . ولتتنازلي فتصبحين قوساً لي - أكثر الأقواس الموسيقية في أى قيثارة . إنك محيط معرفة ومنهل فصاحة . فيك تكس كل نعمة (جزيرة محاطة ببحر لا نهائي) .

التاريخ الكوني مقدمة

(نص توينر تحقيق ك. دي بور . الكتاب الأول)

كان من اللائق أن يتحلى الإنسان باكتشافاته تماماً كما يتحلى بهيات الطبيعة لأن بقاءها معه هو المبدأ الإلهي العجيب للعقل . إذ أنه تعلم من العقل أن يجعل الله ويمبده ويتأمل التأملات المرئية من الطبيعة التي حوله ، وقد تزع جهالته عن تركيبه البدني . وبالعقل يتمايش الإنسان مع الآخر ، وينفذ من السطح الخارجي إلى العقل الداخلي ، ويكشف أسرار وجودهم . وقد أمطر العقل نعماً لا حصر لها على الناس وهو مساعد عظيم إلى جانب الطبيعة . فإن ما لم تفعله الطبيعة ، أكمله العقل حتى تمامه — فيجعل الأشياء بهجة للناظرين ، ويجعل الشيء حلوا المذاق ، ويرقق ملمسه أو يخشبه ، ويجعل أموراً أخرى متجانسة للأذن ، ويغلب النفس ويجذب انتباهها بسحر النغم . أليس هو العقل أيضاً الذي له حق الإدعاء بأنه خالق الفنون ؟ فن الصوف نسج أقشة الملابس ، ومن الخشب صنع النجار مقبض القأس ، ومجداف البحار وترس الجندي والدرقة وهي خير معين له في الحرب . وأكثر أهمية من هذا ، فقد نظم العقل التباين الذي لا حدود له في التاريخ حتى يهيج القارى ويشغف النفس . وكى تسبرغور النفوس ، ليس هناك أكثر جاذبية من التاريخ ، كما هو واضح بما فيه الكفاية بالرواية الواردة في أوراق هومر .

لقد استمتع ابن «لاثرئيس» Laertes بالضيافة في بلاط الملك «انكينوس» Alcinous بعد أن ألقت به أمواج البحر أخيراً على الشاطئ ، وقد غمر «أوديسيوس»

Odysseus بالشفقة . لقد قدم لصحبة السفينة المحطمة الصارى ملابس مشرفة ليضعها على خصره ، وكان ضيف الشرف على المائدة الملكية ، وقد وهب الغريب حرية الحديث وحرية إنهاء روايته . وابتهج الفياكيون * من دراسة التاريخ حتى إنهم طردوا الذين كانوا يهتمون ، وغيروا شكل الأدبة في المسرح ، وتفتحت آذانهم وحلقوا فاعترن أفواههم للراوى دون أن يملوا طول الرواية — هذا على الرغم من أن غالبية الحوادث كانت تجعلهم يفضون بأبصارهم ، إذ أن المجموعة قد اهتزت للمغامرات الخطرة حتى عاشوها مرة أخرى .

والعقل البشرى منهم لا ينبع عندما يولم إلى حكايات شاذة ، وهذا يوضح لماذا كان الثمراء أول من أحرز هيبة كقوة تربوية . فقد وجد الثمراء تقوس الرجال فضولية وتوافقة إلى أن تتعلم متمطشة دائماً إلى القصص الغريبة ، واخترعوا الرواية لصالحهم ، وكسوا مادتهم بالأسلوب ، وغطوا كاذبيهم بالثقافة ، وانطلقوا في شعوذتهم بالبحر السحري . وكانت هذه هي قوتهم في سحرهم حتى إن الناس اعتبروهم لاهوتين .

وكان من المعتقد أن الآلهة تزودهم ، وأنها تفصح أسرار قلوبهم عن طريق شفاء الثمراء التي تروى الكوارث التي وقعت في حياتهم . ولهذا سوف نجد التاريخ هو العلم العالمى للجنس البشرى ، يطرح أمامنا ما ينبغي أن نفعل وما ينبغي أن نتجنب طالما كن من غير المحتمل أن ينجح . ومن الواضح أن استشارات التاريخ تعطى الجنود التمرس في فهمهم ، طالما يعرفون كيف يظهرون قواهم وكيف يراوغون العدو (بحيل الحرب) وتجعلهم يتوقعون مقدماً كوارث الآخرين وذلك بمعرفة أخطاء أسلافهم ، بينما تريد من فلاحهم في حالة النجاح وإقامة قمم شاهقة لأعمال عظيمة من بدايات صغيرة .

* الفياكيون شعب بحارة ، كان ملكهم يسمى الكينوس . وله ابنه نسمى (ناوسيكاس) وجدت أوديسيوس عريابا ، وطلبت منه أن يتبعها حتى أبواب المدينة ، وأخذ أوديسيوس يقص على مسامع الملك متامرا به إبان رحلته ثم يعود إلى جزيرة إيثاكا (المترجم)

وهو بالنسبة للمبتدئين ممرض ومزمار سليم ، وللشباب معلم فائق الذكاء يدير
رءوسهم بخبرة المشيب . وهكذا يسهم بالمعرفة التدريجية التي تأتي مع الزمن .
ولقد قررت أن ألقى بنفسى فى أحضانها ، حتى ولو كان المشروع فوق طاقتى بسبب
خشونة أسلوبى ، وسخافة أفكارى ، وارتباك تعبيرى وعدم مهارة تأليفى . وإذا
ما وجد أى قارئ هنا وهناك لسة من غبطة فى روايتى ، فينبغى أن يرجع هذا
للصدفة ، لأنها بكل تأكيد لا تعزى إلى كفاية الكاتب .

الجزء الثاني
فلسفة التاريخ

القسم الأول - القلب

أوراق ورجال

(هوميروس : نص أكسفورد : الإلياذة، الكتاب السادس الأبيات ١٤٦-١٤٩)

انظروا إلى ورق الشجر ، فالتاس هكذا ،
والأوراق عندما تذوها الرياح في دوامة التراب
سرعان ما تفرخ الغابة الخضراء ملايين جديدة ،
ثم انظروا ، جمال الريح على العالم
يجيء ويمضي . وهكذا سائر بني الإنسان

جلبرت موري

الفناء

(هيرودوت : الكتاب السابع : الفصول ٤٤ - ٤٦)

حينما وصلوا إلى (أيدوس)^(١) Abydos ، رغب « كسر كسيس » Xerxes
في أن يستعرض جيشه . وقد شيدت منصة للرقابة من الرمر مقدماً على ربوة
في المكان المجاور^(٢) ، ومن هذه النقطة التي أشرفت على منظر الشاطئ ،
استعرض « كسر كسيس » القوات البرية والأسطول . وبينما هو يستعرضها ،
راوده الرغبة في مشاهدة مناورات بحرية ، وحين أجريت هذه المناورات وانتصر
الفينيقيون من (صيدا) Sidon ، انتهج بالمناورات وبالحملة بأسرها . وحين رأى
أن سطح الدردنيل Dardanelles يغطي الأسطول ، وأن سائر دؤوس الأراضي

(١) هي المدينة التي تسيطر على مضائق الدردنيل على الجانب الآسيوي (الحقق)

(٢) شيكما شعب أيدوس بناء على أمر سابق من الملك (المؤلف) .

الناتئة في البحر والأغوار في منطقة أبيدوس تخرج بالقوات، أسرع « كسر كسيس »
 بتهنئة نفسه ، ولكنه بكى بعدها . ولاحظ خاله « أرتابانوس » Artabanus
 دموعه ، وكان خاله قد عبر عن رأيه أسلا بشكل صريح في غير صالح الحملة
 ضد هيلاس .

أما وقد رأى أن « كسر كسيس » ينخرط في البكاء فقد حسب « أرتابانوس »
 أن فرصته قد واثته فقال : « مولاي ، ثمة تناقض شاذ في سلوكك الآن ومنذ
 لحظة خلت ، لقد هنأت نفسك في بداية الأمر وبعدئذ تبكى . فأجاب كسر كسيس ،
 « لقد أذهلتني الشفقة إزاء فكرة قصر الحياة الإنسانية بأسرها ، وعند ما تحققت
 من ذلك ، فمن بين هذه المجموع كلها ، ليس هناك فرد واحد سيظل على قيد الحياة
 من بعد مائة سنة منذ الآن . »

وأجاب أرتابانوس « لدينا في الحياة خبرات أخرى تدعو للرثاء أكثر من
 ذلك . إذ أن مدة حياتنا قصيرة حقاً كما تقول ، ومع هذا فليس هناك فرد واحد ،
 سواء في هذا الجيش أو في العالم ، يكون سعيداً بصورة طبيعية حتى إنه في فترة قصيرة
 كهذه ، لا يجد نفسه راعباً ، لامرة واحدة بل عدة مرات أكثر ، في أن يموت ولا
 يحيا . إن ضربات المصائب ، وتخريب المرض جعلت الحياة القصيرة تبدو طويلة ،
 وعلى هذا يأتي الموت إكراماً مباركاً للإنسان من الوجود الشرير ، فيما يعتبر الرب
 أنه إله غيور في معاملته للإنسان عن طريق تذوق حلاوة الحياة التي يضمن
 بها عليه . »

الكارثة الأثينية في صقلية

(٤١٦ - ٤١٣ ق . م)

(توكوديدس : الكتاب السادس : الفصول ٢٤ - ٢٦ و ٣٠ - ٣٢ .

الكتاب السابع ، الفصول ٤٣ - ٤٤ و ٨٤ - ٨٧)

القرار

قدر « نيكياس » Nicias في خطابه متطلبات الحملة برقم كبير ، معتقداً أنه
 بذلك إما أن يموق الأثينيين نهائياً عن الحملة أو أن ينجع على أية حال في تقليل

الخطر إلى أدنى حد إذا ما اضطرت للقيام بالحملة . وأبما كان الأمر ، فلم يكن التسليح المطلوب ليثنى الأتنيين عن رغبتهم في الحملة ، إذ أنهم شعروا بياث أقوى من أى وقت آخر . وكانت نتيجة حديث « نيكياس » عكس ما يريد تماماً . إذ أن نصيحته قد أخذت على أنها نوفر هامشاً فسيحاً يضمن سلامة الحملة .

واستحوذت على الجميع دون استثناء عاطفة صادقة إزاء الغامرة . فاعتقد الرجال المسنون أنهم إما أن يهزموا معارضهم وإما على أسوأ الفروض ، يظل جزء من هذه القوى يمتأى من الكارثة ، أما الرجال في سن الجفدية فيدفعهم الشوق إلى رؤية أراضى غربية وإلى دراستها ، وهم على يقين من أنهم سوف يعودون في أمان . بينما تطلعت الجماهير^(١) والجنود المختارون إلى اكتساب المال في المستقبل القريب وإلى اكتساب أراضى جديدة ومنها تتدفق الضرائب بشكل دائم . إن رغبة الأغلبية المفرطة قللت من الانشغافات الفردية التي تدعو إلى السلبية ، خوفاً من أن ينظر إليهم على أنهم غير وطنيين إذا ما أدلوا بصوت معارض . وترتب على هذا ، أن ثار عضو معين بمترض على « نيكياس » بسبب مراوغاته والتأجيلات غير الجائزة ، ودعاه إلى أن يعلن مرة وأمام الجميع في هذه الجمعية من بنى وطنه ، أى تسليح يبنى على البلاد أن تصوت لنيكياس من أجله . وأجاب « نيكياس » ، على مضض ، بأن ذلك الموضوع في حاجة إلى مشاورات أكثر مع زملائه وإلى متسع من الوقت ، وكان تقديره الأولى للقوات المطلوبة لا يقل عن مائة سفينة حربية (حتى يقرر فيها بعد رقم السفن الأتينية الصالحة فعلا للاستخدام في النقل ، على أن تجلب البقية من الحلفاء) ، ويبلغ أقل مجموع للرجال خمسة آلاف أثيني ، وقوة من المشاة التحالف التي يبنى زيادتها عددها ، إذا كان ذلك في الإمكان . أما بقية القوة الحربية التي تزود الحملة ، وتشتمل على دماء القلاع والنبال وهم من الوطنيين والكريتيين وأى سلاح آخر يلزم للحملة ، يبنى أن يكون بقدر مناسب ولم يكسد ينهى من الحديث حتى صوتت الجمعية على إعطاء الجزالات سلطة مطلقة ،

(١) الذين عملوا كجند في الأسطول (المحقق) .

وتقويضهم حتى إقرار قوة القوات وكافة تفاصيل الحملة مع حرية التصرف. وبدأت الاستمدادات منذ هذا الوقت ، وطلبت الاستمدادات من الحلفاء ، وقد سجلت الفصائل في أثينا . وكانت البلاد قد شفيت لتوها من الطاعون والحرب الدائمة ، واستمدت المدينة قوتها البشرية من جيل جديد ؛ وتوافر احتياطي في الخزانة ، وعلى هذا كانت هناك صعوبة قليلة في الطرق والوسائل .

الانطلاق

كان الوقت صيفاً عندما أبحرت الحملة إلى صقلية . وقد حددت مواعيد غالبية القوات المتحالفة، وسفن الحنطة ، والتجارية بقية الأسطول الصغير، منذ تاريخ مبكر في (كورفو) Corfu ، بهدف أن يعبأ الأسطول كله البحر الأدرياتيكي من تلك النقطة عند عقب إيطاليا في قافلة واحدة . وقد توجه الأثينيون أنفسهم وسائر الأمم المتحالفة التي تعادف وجودها في أثينا ، إلى (بيرايوس) في اليوم المحدد ، وشرعوا في إعداد سفنهم للرحلة . وقد صممهم إلى البناء سائر سكان المدينة فعلاً ، سواء المواطنون أو الأجانب . فقد كان المواطنون يودعون أصدقاءهم وأقاربهم وأبناءهم حسبما يقضى الحال ، بمزيج من إحساسات الأمل والأسف — الأمل في الانتصار الذي ينبغي أن يحرزوه، والأسف بفعل أفكار تراودهم بأنهم قد لا يرون أصدقاءهم مرة أخرى ، واضمين في اعتبارهم بمد الشقة بين موطنهم والأهداف التي يقصدون إليها . وعند هذا الحد ، حين أشرفوا على الرحيل من هدف إلى هدف آخر في ظروف خطيرة ، تحققوا من الأخطار التي برزت بشكل أكثر مما كانت عليه في الوقت الذي صوتوا فيه للحملة . وأما كان الأمر ، فإن ما شاهدوه بأعينهم قد شجعهم ، حيناً رأوا قوة الحملة في مجموعها وتفاصيلها . أما بالنسبة للأجانب وبقية الحشود فقد جاءوا يتفرجون على ما يمكن اعتباره تماماً مشروعاً مفروضاً وشاذاً ؛ لأن هذا الأسطول كان أكثر الأساطيل الهلينية إسرافاً ونخامة من القوات التي سبقته حتى ذلك الحين ، والتي تبجر من سواحل بلاد واحد . والحملة والتي أبحرت مع « بركليس » إلى (إبيدوروس) Epidaurus وبمدها مع

« هاجنون » Hagnon إلى (بوتيدايا)^(١) Potidaea ، لم تكن أقل من الحملة الحالية بما فيها من مراكب وفصائل . لقد اشتملت على أربعة آلاف من مشاة الوطنيين الأثينيين ومعهم ثلاثمائة فارس ، ومائة سفينة حربية ، وخمسون سفينة حربية لسبائية وحيثينية وقوات متحالفة إضافية كبيرة . وأما كان الأمر ، فقد كانت أهدافهم قرية المنال وأجهزتهم ضعيفة ، بينما كان من المتوقع أن يعمل الأسطول الحربى الحالى طويلاً ، وعلى هذا زودت الحملة بكل المتطلبات من الأسلحة اللازمة لكافة عمليات الفرق . لقد أصبح الأسطول كاملاً بتكاليف باهظة بالنسبة إلى الربانة^(٢) والدولة على السواء . وقدمت الخزينة إلى كل بحار (دراخما) إضافية يومياً ، وأمدت السفن — وهى ستون سفينة كبيرة وأربعون ناقلة بيحارة مختارين وأعطى الربانة أجوراً إضافية من الدرجة الأولى للبحارة العاديين علاوة على الأجر الرسمى^(٣) ، وزودت السفن بشعارات ومعدات باهظة ، ولم يدخروا وسماً فى أية لحظة فى أن يجملوا سفنهم تفوق سائر السفن الأخرى سرعة وخفة . وقد اختبرت القوات البرية بعملية دقيقة ، وكانت هناك منافسة بين الأفراد فى شئون الأسلحة والمعدات . وقد سادت روح المنافسة بين الفصائل نفسها فى أعمال كل منها ، واعتبرت الحملة بمثابة عملية استعراض لقوة أثينا وسلطانها ولصالح بقية هيلاس أكثر منها عملية حربية . ومجموع البالغ التى صدرت عن أثينا فى هذه المناسبة تصل إلى رقم ملفت للنظر إذا ما أخذت إحصائية لنفقات الدولة العامة ونفقات خدمات الأفراد الخاصة . وتشتمل النفقات العامة على الصندوق الحربى للقيادة العليا ، كما تشتمل على المصروفات التمهيدية ، بينما من المفروض أن تشتمل النفقات الخاصة على ثمن اللوازم الشخصية (وفى حالة القباطنة ، تشتمل على ثمن ماصرفوه بالفعل ،

(١) فى ربيع وصيف عام ٤٣٠ ق : م على التوالى (المحقق) .

(٢) لا يصرف ربانة السفن الحربية الأثينية عليها عادة عندما تكون فى مهمة ، وكانوا طرازاً خاصاً من المواطنين يجهزون السفن ويدفعون للبحارة من جيوبهم الخاصة كنوع من الضريبة الإضافية (المحقق) .

(٣) كانت الدرجة الأولى من البحارة تتكون من الأثينيين عادة ، أما الدرجات الأدنى فهى من الأجانب المقيمين (المحقق) .

والمقرّر صرفه بعد ذلك على سفنهم) ، ونحن المخازن أيضاً . انتظاراً لاستمرار الحملة فترة طويلة . ومن الطبيعي ، أن كل فرد سوف يزود نفسه بما يفوق مصروفه . إن الإحساس الذى خلقه الأسطول الحربى بفعل جسارته الهائلة ومظهره البراق ليس أقل من سيادة قواته الساحقة على العدو المرتقب ، وإنما يعزى أساساً إلى أن تلك الحملة كانت أعظم حملة وراء البحار عن أى حملة قاموا بها من قبل .

وبعد أن جهزت السفن وكافة المعدات التى عزموا على أخذها معهم فى نهاية الأمر على ظهر السفن ، ترددت صيحة السكينة فى البوق والصلوات المألوفة قبل إلقاء الرساءة - لا فى كل سفينة على حدة ، وإنما فيها جميعاً كوحدة واحدة ، بقيادة النادى . وامتلات^(١) الكتوس من أقصى الأسطول الحربى إلى أقصاه ، وانسكب التبيذ من الأنداج الذهبية والفضية بواسطة الجنود^(٢) والضباط . وصلى الحشد على الشاطئ ، وانضم إليه المواطنون مع متفرجين أجانب . وبعدئذ أديت التحية العسكرية ، وتبعها الشعار الدينية ، ورفعت المراسى ، وسارت السفن فى حط عمودى تجاه جزيرة (أيجينا) Aegina حيث انطلقت بأقصى سرعة إلى (كورفو) التى كانت بمثابة (المياد) لبقية الأسطول الصغير .

الهجوم الأخير

قرر « ديموستينيس »^(٣) Demosthenes أنه من المستحيل الاقتراب من

(١) المعنى الحرق « امتزجت » لأن الهيلينيين اعتادوا أن يمزجوا التبيذ باللاء كما فعل فى المصروبوات الروحية (المحقق) ،

(٢) كان المشاة الراقين قد تقلوا على السفن الحربية التى تتبع طبقة أكثر ثراء من البحارة (المحقق) ،

(٣) القائد الأثينى الثانى ، الذى كان قد وصل بالإمدادات إلى نيكياس عندما شارب حصار سيراقوزة على الفشل من جانب قوات الحملة الأصلية . أمال المرتفعات التى كان ديموستينيس يصدد الاستيلاء عليها تشرف على سيراقوزة بنفس الطريقة التى تسطر بها مرتفعات أبراهام على كوبيك (المحقق) .

(المرتفعات) وتسلفها في ضوء النهار دون أن يراهم أحد . وعلى هذا أصدر أوامره بأن تقدم الجراية إلى الفصائل طيلة خمسة أيام ، وأغرق كافة المهندسين بإمدادات الذخيرة والمواد المطلوبة لتحصين وضع جديد في حالة النجاح ، وأستعرض الجيش كله في الساعات الأولى من الليل تحت قيادته . مع « يورميديون » Eurymedon و « ميناندر » باعتبارهما زميليه ، وتقدم نحو المرتفعات ، وبقي « نيكياس » في الاحتياطي داخل الخطوط الأثينية . وضربوا المرتفعات عند « يوريلوس » Euryelus ، حيث كانت الطلائع الأولى للحملة قد تسلفها أصلا ، وأخذوا حراس (سيرا كوزة) على غرة ، وهاجموا المركز السيرا كوزي المقام عند هذه الحدود واستولوا عليه وتسيبوا في مقتل عدد من رجال الحامية وأبما كان الأمر فإن غالبية الحامية تشتت على الفور في اتجاه محطات الجند الثلاث التي أقيمت على المرتفعات في معاقل الخط الرئسي . والتي أقيمت على التوالي على أيدي السيرا كوزيين والهلينيين الصقليين الآخرين وحلفائهم غير الصقليين . وجلب الهاربون معلومات عن الهجوم معهم وأبلغوها إلى الفصائل السيرا كوزية السائمة التي كانت في الخطوط الأولى على هذا القطاع من المرتفعات . وتحركت هذه الفصائل إلى الأمام على الفور وهي مدعمة ، ولكن رجال « ديموستينيس » والأثينيون تصدوا لها واضطروها إلى التراجع بعد أن أبدت مقاومة شديدة . وواصل الأثينيون تقدمهم على الفور ، كي ينطلقوا إلى أهدافهم قبل أن تتبدد الرغبة في الاندفاع ، بينما وزعت بعض الفرق الأخرى لهذا الغرض عندما بدأ الهجوم الأول وبدأوا في الاستيلاء على القوة المعترضة التي أقامها السيرا كوزيون من قبل وأوقفوا فيها الاضطراب ، وهي الحامية التي فشلت في أن تحافظ على قاعدتها ، وعندئذ بدأ السيرا كوزيون وحلفاؤهم والقوة التي يقودها « جليپوس »^(١) Gylippus في الحركة قداماً ممززين من مخافهم ،

(١) القيم العسكري الإسبرطي في سيرا كوزة والذي أخذ الموقف (المحقق) .

إلا أن جسارة هجوم الليل قد أخذتهم على غرة ، لقد كانوا فى حالة من الهلع عندما اصطدموا بالأتينيين ، وكانوا فى بداية الأمر قد فاقوم قوة واضطروهم إلى التراجع . وأيما كان الأمر ، فى خلال تقدمهم ، كان الأتينيون يهجرون مؤسساتهم ، فمن ناحية ، على افتراض أنهم قد كسبوا المعركة فعلا ، ومن ناحية أخرى يبدلون جهداً فى التخلص بأسرع ما يمكن من سائر قوات العدو التى لم تكن قد اشتركت فى المعركة بعد والتى قد تجد فرصة لتعيد تشكيلها إذا ما كان هناك أى رآخ فى المهجوم الأتيني . وعند هذه اللحظة الحرجة قام البيوتيون فى بادى الأمر بصد تقدم الأتينيين ؛ وواجهوا هجوماً مضاداً ، وأجبروهم على التراجع ، وعادوا أدراجهم مهزومين .

وعندما حدث هذا ، اخطل نظام الأتينيين كل الاختلال وفقدوا صوابهم إلى درجة أنه لم يكن من السهل أن تحصل على رواية متكاملة لما حدث بعد ذلك من الجانبين . حتى فى العمليات التى تمت نهاراً ، وهى أقل بلبلة ، فإن الأفراد القتالين وجدوا أنه من الصعوبة أن يواصلوا تقدماً عاماً للعمل فيما وراء قطاعهم الخاص ، وعلى هذا فمن الصعب أن تتوحد معلومات متعددة من جانب الشركين فى عمليات المساء فقط فى الحرب الأخيرة والتى استخدمت فيها قوات لا بأس بها . وعلى الرغم من ضوء القمر الساطع ، فلم تكن هناك سوى إمكانية الرؤية على مستوى منخفض وهى من خصائص ضوء القمر ، وتمكن العين من أن تميز هيئة الإنسان عندما يدخل فى نطاق الرؤية ولا تمكن من تمييز العدو من الصديق . إن جماهير جنود المشاة التى تنتمى إلى كلا الجيشين كانت تقوم بمناوراتها فى مكان محصور ، واستسلمت بعض الفصائل الأتينية بالفعل ، بينما كانت القوات الأخرى تتقدم ظافرة فى الاندفاع الأول من هجومها . وكان قسم لا بأس به من الاحتياطي الأتيني يتسلق أو فى سبيل أن يتسلق المرتفعات ، ولهذا لم يعرفوا أية نقاط يتخذونها كأهداف لهم . ومن لحظة بدء الانهزام ، فقدت القوات فى الجهة أنظمتها تماماً ، وجعلت الضجة من الصعب أن تميز الصديق من العدو . وكان

السيرا كوزيون وحلفاؤهم يهتف^(١) الواحد منهم للآخر حتى يتابعوا انتصارهم ، بينما يقاتلون كل من يصطدم بمخطوطهم . وكان الأثينيون يحاولون أن يتصل الواحد منهم بالآخر ، وكانوا يعاملون كافة القوات التي تأتي من الاتجاه المعادي على أنها قوات معادية ، في حين أن قوات جليفة فعلا قد تكون مترجمة من المؤخرة . وكانوا دائماً يتحدثون أيضاً بعضهم البعض حول كلمة السر ، والتي كانت وسيلتهم الوحيدة التي يتحقق بها الواحد من شخصية الآخر ، وكان من شأنها أيضاً أن توقع صفوفهم في بلبلة عندما كانوا يواجهون بعضهم للمرة الأولى . وتصادف أن أدى هذا إلى أن انتقلت كلمة سر أثينا إلى العدو بينما لم يكن من السهل على الأثينيين أن يكتشفوا كلمة سر أعدائهم ، لأنهم أبقوا على تشكيلهم كمتتصرين ، وعلى هذا كانوا قادرين على أن يتحقق الواحد من الآخر بسهولة أكثر . وبالتالي ، عندما حاصروا جزءاً أضعف من العدو ، تمكن هذا الجزء من الهرب لأنه يعرف كلمة سر الأثينيين بينما حين فشل الأثينيون في أن يردوا على تحدى العدو ، أفنوا جميعاً . وأما كان الأمر ، فقد فاسوا من الصباح أكثر من أى شيء آخر ، الأمر الذي أوجد اضطراباً في كلا الجانبين . وعندما تعالى صياح قوات الأرجيفين والكوريكوريين Corcyraeans وبعض الفرق الدورية^(٢) الأخرى التي عملت مع الأثينيين ، وقع الأثينيون في هلع ، وحدث الشيء نفسه بين صفوف العدو . وعندما حدث وفقد تنظيمهم ، اصطدم الأصدقاء وزملاؤهم بنى وطهم الواحد مع الآخر في عدد من النقاط على الخط ، حتى إنهم في النهاية لم يفقدوا أعصابهم فحسب ، بل تضاربوا فعلاً واستطاعوا أن ينفصلوا بصعوبة . ومات الكثيرون أثناء فرارهم من الترات المطاردة لهم ، وذلك بإلقاء أنفسهم من أعلى الصخور ، بسبب ضيق الطريق المنحدر من المرتفعات ،

(١) لم تكن ثمة وسيلة اتصالات عملية في الظلام (المؤلف) .

(٢) « الدورية » كان اسم مجموعة من الجهات اليونانية في العالم الهليني ، التي قد تقابل بعض مجموعات (الرومانية) و (النيتونية) في أوروبا الحديثة (المحقق) .

وعلى الرغم من أن أغلبية الذين بقوا على قيد الحياة والذين وصلوا إلى السهل نجحوا في الهرب إلى المعسكر^(١) ، فقد ضل الطريق عدد معين من القادمين الجدد^(٢) ، وهاموا في البلد حتى طلع عليهم النهار ، وهاجمهم فرسان السيرا كوزيون وأنقوهم .

الموقف الأخير

ومع عودة ضوء الشمس ، بدأ نيكياس يحرك قواته ، وهاجم السيرا كوزيون وحلفائهم ، وكما حدث من قبل ، هاجموا يوابل من حمم القذائف . واندفع الأثينيون إلى الأمام نحو نهر (أسيناروس) Assinarus ، من ناحية تحت تأثير يابل هجمات فرسان أقوياء تساندتهم أسلحة أخرى ، وتوقموا من وراء هذا الاندفاع بعض الراحة إذا ما نجحوا في عبور المجرى ، ومن ناحية ثانية تحت ضغط الإيهام وتأثير المطش . وعندما وصلوا إلى الشاطئ ألقوا بأنفسهم فيه وانتهى كل نظام . وقرر كل جندي على حدة أن يكون أول من يعبر النهر ، في حين أن هجمات العدو جعلت العبور عسيراً تماماً . وقد أجبروا على أن يندفعوا على شكل كتلة متراكمة ، وتمشوا فداًس الواحد على الآخر ، وقتل بعضهم للآخر بأطراف أسلحتهم ، بينما توغل الآخرون وجرفهم التيار . واصطف السيرا كوزيون على الشاطئ المقابل للنهر وكان شديد الانحدار ، وأمطروا الأثينيين شواظاً من نار ، وكان معظمهم يشرب بشراسة واصطدم الواحد بالآخر في قاع النهر المخوف . وجاء البلويونيزيون واتخذوا مراكز قريبة وبدأوا المذبحة ، ولا سيما أولئك الذين كانوا

(١) ولا سيما الفصائل التي نفيح في الأصل قوات الحملة ، والتي كانت تلم بالطوبغرايا جيداً (المؤلف) .

(٢) أعضاء قوات حملة ديموستينيس الثانية ، التي وصلت أخيراً فقط (المحقق) .

فى النهر . وتلوث المياه فى لحظة ، ومع ذلك استمرت الاغلبية فى شرب الماء ،
 موحلة ودامية كما هى ، بل تقائلوا أيضاً للوصول إليها . وبالتالي ، عندما تكومت
 الجثث فى النهر وقطعت القوات إلى أجزاء — الجزء الرئيسى فى مجرى النهر ،
 والفارين على أبدى الفرسان — واستسلم « نيكياس » شخصياً إلى « جيليبوس »
 الذى وثق فيه أكثر مما فعل السيرا كوزيون ، وتوسل إليه وإلى الأسبرطين أن
 يفعلوا ما يشاءون به شخصياً على أن يوقفوا المذبحة فى رجاله . وبعد هذا ، أمر
 « جيليبوس » بوجوب استسلام ذلك المركز ، وألا يخفى من كان قد بقى على قيد
 الحياة وأخذوا أسرى وسجناء (وكانوا عدداً كبيراً) ، وكذلك الثلاثمائة رجل
 الذين اقتحموا حصار الحرس أثناء الليل أسرهم القوات التى أرسلت لتطاردهم .
 ولم تكن نسبة القوة الأثينية التى جمعت كسجناء رسمياً كبيرة ، بينما كان عدد
 أولئك الذين فروا كبيراً للدرجة أن صقلية امتلأت بهم ، فلم يصبخوا مسجونين
 نتيجة الأسر الرسمى . وقد قتلت نسبة كبيرة فعلا بشكل غير رسمى ، ولم تزد
 الأشلاء المربعة زيادة كبيرة كهذه فى أبة مناسبة أخرى فى الحروب الأخيرة . وقد
 قتلت أعداد لا بأس بها من قبل فى الحملات الدائمة التى صاحبت سير الحملة .
 وعلى أية حال ، فقد نجح الكثيرون فى النجاة بأنفسهم — وقد نجح بعضهم فور
 أن وقع فى الرق ، وبعضهم بالفرار بعد ذلك . وكان من جراء هذه الأعمال
 وجود مستشفى للمجاذيب فى (كاتانا) Catana .

وقد ركز الآن السيرا كوزيون وحلفاؤهم قواتهم ، وأعدوها لنقل المواد
 المستولى عليها وأكبر ما يمكن من الأسرى ، وكروا راجعين إلى المدينة . وقد أودع
 جميع الأثينيين وحلفاؤهم المواطنين الذين وقعوا أسرى والمهاجر على اعتبار أنها
 أسلم طريقة لديهم ، فيما عدا « نيكياس » و « ديموستينيس » الذين أعدما — على
 غير إرادة « جيليبوس » . وكان « جيليبوس » يرغب فى إحضار قادة الأعداء إلى
 إسبرطة على اعتبار أن هذا نصر شخصى له . على الرغم من أن أحدها وهو
 « ديموستينيس » ، قد وضع ضمن مراتب أعظم أعداء إسبرطة بسبب أحداث

(بيلوس) Pylos وجزيرة (سفاكتيريا ^(١)) Sphacteria بينما اعتبر الآخر كواحد من أعظم أصدقائها . وكان هذا بفضل جهاد نيكياس في حض الآثينيين على السلام ، حتى إن الإسبرطيين الذين أسروا في الجزيرة ضمنوا إطلاق سراحهم . وفي مقابل هذه الخدمة تصرف الإسبرطيون بلطف معه ، ويعود استسلامه لـ « جيليوس » لحد بعيد إلى ثقته في هذا الاعتبار . وأما كان الأمر ، فقد قيل إن بعض السيراكوزيين الذين كانوا على اتفاق معه ، خشوا أن يمتد تحت تأثير التمييز . وهذه الاعترافات من شأنها أن تعكر صفوهم ، بينما الآخرون ، وعلى الأخص ، السكوريفثيون ، كانوا يخشون أن يستخدم ثروته في أن يشتري هروبه لقاء رشوة . وبعدئذ يكدر سلامهم مرة أخرى ، فحنت هذه الأطراف الحلفاء على أن يلتقوا حول الاتفاق على اعدامه ، وأصبح الدافع على الجريمة هو الأساس كما أوضح . إنه آخر واحد من الجيل الهليني يستحق مثل هذا المصير ، واضعاً في اعتباري الدقة التي انتظمت فيها حياته على أعلى المبادئ .

وقد عامل السيراكوزيون في البداية السجونيين معاملة بربرية . وعندما كانوا محشورين في بئر منجم ضيق ، ظلت الشمس والحرارة الخائقة تعذبهم في البداية ، وتعرضوا لها دون سقف يقيهم ، بينما هجمات ليالي الخريف الباردة ، مع تغير درجات حرارتها العنيفة ، أضرت أجهزتهم وتولد عنها المرض . واضطرتهم شدة الازدحام إلى أن يقضوا حاجاتهم في المكان نفسه ، أما جثث الضحايا الذين ماتوا متأثرين بجراحهم وبتغير درجة الحرارة والأسباب الأخرى ، فقد تكومت جثة على جثة ، ونشأت رائحة كريهة لا تطاق . وبالإضافة إلى ذلك ، تضايقوا من عضه الجوع والعطش ^(٢) ، ولم يفتلوا من أحد الآلام التي تنتج لا محالة من السجن في مثل هذا الفخ المميت . وكان عليهم أن يتحملوا هذه الميشة إلى سبعين يوماً ، مكومين معاً

(١) حيث كان قد أسر قوة بيبوبغريه عام ٤٢٥ ق.م . (المعلق) .

(٢) كان غذاؤهم الدوى لفترة تزيد على ثمانية شهور أقل من نصف (بنتو *) من الماء والحبوب (المؤلف) .

* (البنتو ١٢٥ درهم) المترجم

بشكل مختلط ، وسيقوا جميعاً في نهاية تلك الفترة إلى سوق النخاسة ، فيما عدا
الأتينيين وهلينى صقلية وإيطاليا الذين انضموا إلى الحملة . ومن الصعب تقديم
رقم دقيق عن مجموع عدد الأسرى إلا أنه لا يقل بالتأكيد عن سبعة آلاف .

وهذه المأساة التي كانت أعظم مأساة حدثت في الحرب الأخيرة (وفي رأي ،
في سائر التاريخ الهليني المسجل) ، أضفت مجداً لا نظير له على الغزاة ، وجلبت
كارثة لا مثيل لها أيضاً على المغلوب . لقد هزموا تماماً في كل طريق ، لم يكن
هناك شيء في آلامهم على أسفرتطاق ، فالأسطول ، والجيش ، وكل شيء آخر اندثر
تماماً بكل معاني هذه الكلمة ، وعادت قلة إلى مواطنها من ذلك العدد الكبير
الذي غادرها .

عبد مقدونيا

(بوليبيوس : الكتاب التاسع والمثرون ، الفصل ٢١)

اتخذ أحد مسير مقدونيا بشكل قوى إلى ذهنى كلمات « ديمتريوس
الفاليري ^(١) » Demétrius of Phalerum . ففى مؤلفه عن الحظ ، الذى
كان يهدف فيه إلى أن يبين إلى زملائه بشكل لا لبس فيه قلب هذا المبدأ ، يقطع
« ديمتريوس » روايته عن حقبة الإمبراطورية الفارسية التي أطاح بها الإسكندر ،
ليسجل الملاحظات التالية :

ولست فى حاجة ، حتى تتأكد من الطابع المثير للحظ ، إلى أن تأخذ فى
اعتبارك فترات كبيرة من الزمن تمتد إلى أجيال كثيرة . فإن نصف القرن الماضى
يقدم مثلاً كافياً . فلنفترض أن قوة إلهية منذ خمسين عاماً مضت ، أنبأت
الفرس وملك فارس بالمستقبل ، وفعلت ذلك أيضاً للمقدونيين وملك مقدونيا ،
فهل تتصور أنهم فى ذلك الحين كانوا يصدقون أن اسم فارس — وكانت وقتئذ

(١) فيلوف وسباس أنيو ، حكم أثينا لصالح مقدونيا من عام ٣١٧ — ٣٠٧ ق. م.

(المحقق) .

سيدة الممورة كلها - سوف يطلع تماماً ، وأن المقدونيين - ولم يكن اسمهم معروفاً من قبل ، سوف يركع العالم تحت أقدامهم ؟ وأيما كان الأمر ، فإننى أعتقد ، أن هذه واحدة فقط من العلامات والمجائب التى يبين بها الحظ دائماً قوته للجنس البشرى ، إذ أنه عندما وضع مقدونيا مكان فارس القوة ، فهو يدلل بذلك على أنه عندما يقلد مقدونيا وسامات الإمبراطورية فإن هذا من أحكامه التى لا راد لها وتتفق مع حرية تصرفه .

وفى حالة « برسيوس »^(١) Perseus فقد حدث هذا الطارىء فعلاً . وأثبتت عبارات « ديمتريوس » أنها موحى بها وكلمات أنبياء ، والآن ، وقد وصلت إلى روايتى إلى تلك الحقبة التى أطيح فيها بملكة مقدونيا ، فإننى أشعر بصفتى أول شاهد للحادث ، بأنه سوف لا يكون لى عذر فى أن أمر عليها دون أن أحدد المغزى ونسبته إلى ديمتريوس ، والأمر عندى أن فى قوله تنبؤاً خارقاً للعادة . لقد توقع بدقة مسار الأحداث قبل قرن ونصف تقريباً .

عبد روما

(بوليبيوس : الكتاب السادس . الفصل ٥٧)

إن التفكير والتحول الذى يتعرض له كل شئ فى العالم يمكن اعتباره فى الحقيقة قضية مسلماً بها من حيث إنه وضع يتفق فى ذاته مع وحدة الطبيعة . وأيما كان الأمر ، فهناك عمليتان ممكنتان قد يتم عن طريقهما تفكك أى شكل من أشكال الكومونولث - إحداهما خارجية والأخرى داخلية ؛ وبينما تكون العملية الخارجية غير مطلوب دراستها علمياً ، فإن العملية الداخلية تخضع لقوانين ثابتة . ولقد فرغت من وصف الأطوار المتتابة للتطور السياسى ، والانتقال من طور إلى طور ،

(١) آخر ملوك مقدونيا التى هزمته وعزله روما عام ١٦٨ ق.م . (المحقق) .

بما يكفى لتسكين القارى . ليستخلص الاستدلالات المنطقية من البحث الحالى بحيث يتوقع مستقبل نفسه . وى رأى ، أن المستقبل واضح . ففى حالة أى كومونولث يصد سلسلة من الأخطار الحادة ، ومن ثم يبلغ إلى مركز من السيادة والتفوق لا منازع له ، فمن الجلى أن الفيض الغزير من الرخاء من شأنه أن يوجد مستوى معيشة أكثر بذخاً ، و يوجد منافسة حادة للغاية بين الأفراد من أجل النصب ومظاهر طموح أخرى . وإذا تقوى مثل هذه الميول ، تبدأ عملية انحلال عن طريق التمتع إلى النصب والسلوك فى حياة لا ميزة لها ، كما هو الأمر فى مظهر الغرور والبذخ فى مستوى المعيشة . ويقع عبء هذا التحول على الجماهير ، عندما تمتلئ شعوراً بالظلم من جراء الجمع المادى لدى بعض سادتهم ، وعندما تنشأ خيلاء زائفة من جراء عدم إخلاص الآخرين طمعاً فى مستقبل سياسى . عند هذا الحد ، تشمر الجماهير بالحقن البالغ من هذا كله ، وتستحيل إلى أداة طيعة فى أيدي الماطفة ، فإذا هم يطرحون عنهم كل تبعية للطبقات العليا ، بل وحتى المساواة معهم ولا يلبثون أن يبرقوا المصلحة العامة على أنها مصلحتهم . وإذا بلغ الأمر هذا الحد ، فإن الكومونولث يكتسب ألغاباً زائفة من الحرية والديموقراطية ، بينما هو فى حقيقة الأمر يرزح تحت عبء (استبداد الجمهور) .

مصدق الكتاب المقدس

(بوليبيوس الكتاب الثامن والستون : الفصل الثانى والعشرون ^(١) ، بروكوبيوس : الكتاب الخامس . الفصل الثانى والعشرون ١٢ — ٢٢) .

قرطاجنة : ١٤٦ ق . م

لقد ازدهرت قرطاجنة طيلة سبعة قرون منذ تأسيسها الأول ، وكانت سيدة أراض واسعة وجزر وبحار ، ونافست أعظم إمبراطوريات العالم فى قوتها الحربية

(١) بعد صياغته مرة أخرى ، من الشرح الذى قدمه آكيان (دراسات رومانية — كتاب أفريقيا الفصل ١٣٢) المعلق ،

ودخلها وعدد أفيالها وصفها ؛ وفاقت تلك الإمبراطوريات في الطاعة والشجاعة لأنها ، حتى بعد أن جردت من السلاح تماما ، صمدت لمدة ثلاثة أعوام في حرب مروعة وحصار قاس . وعندما شاهد « سكيبيو » Scipio هذه المدينة القديمة العظيمة تواجه الفناء الكامل إلى الأبد يقال إنه ذرف الدمع ولم يخف أنه يبكي على العدو . لأنه ظل لمدة طويلة متمسكا بأفكاره الخاصة ، وتحقق من إن المدن والأمم والإمبراطوريات كتبت لها الإرادة الإلهية أن تزول ، وتذكر أن هذا مصير (إليون) Ilion التي كانت مدينة مزدهرة في عصرها ، وأن هذا كان مصير الإمبراطوريات الأشورية والميدية والفارسية ، وكانت كل إمبراطورية منها أعظم إمبراطورية في العالم في دورها ، وهو مصير الإمبراطورية المقدونية ، آخر الإمبراطوريات وأكثرها تألقا . وبمدئذ كرر بصوت عال سواء عن قصد أو بلا وعى هذه السطور :

سوف يترغ يوم الديونة ، وفي ذلك اليوم

سوف تزول مدينة إليون المقدسة ،

ويزول برام الرماح العظيم ، ورب

شعب برام في نظامه الأبى .

وقد سأل « بوليبيوس » وكان تلميذا له ، في عبارات كثيرة عما يقصده بالسطور السابقة . ويقال إن « سكيبيو » طرح كل تحفظ . ونطق باسم بلده الذي كان ينظر إليه بتشاؤم كبير بسبب رأيه في مصير الإنسان ^(١) .

روما : ٥٣٧ م

وفي هذه الأثناء شن القوط حملة ثانية ، سوف أشرع في وصلها ، وهي الحملة ضد بوابة (أورليان) Aurelian ويقوم هناك ، خارج هذه البوابة ، وعلى بعد

(١) كان بوليبيوس أول من سجل هذا (آيان) .

رمية حجر ، ضريح الإمبراطور « هادريان » Hadrian ، وهو أحد عجائب الدنيا . وشيد من رخام من نوع جيد وصبت المعابد دون ثمرات بين كتل الأخشاب أو عن طريق سد المادة السفلى بين الأوجه الخارجية والداخلية . وله أربعة جوانب متماثلة يبلغ طول كل جانب مسافة رمية حجر ويرتفع إلى أعلى من سور المدينة . وعلى القمة هناك تماثيل لرجال وخيول ، منحوتة من الرخام نفسه وبمناغة تقيسة . وكان هذا الضريح يعتبر بمثابة معقل للمدينة وعلى هذا أحاط به القدماء واعتبروا مضمن التحصينات ، وذلك ببناء جدارين حاجزين يمتدان إلى الضريح من السور . والحق أن الضريح يشبه برجاً شاهقاً إلى جانب البوابة في هذا القطاع

وبإدراك القوط بشن هجومهم على بوابة أورليان وبرج هادريان . دون أن يستخدموا المدفعية ، ولكنهم أحضروا عدداً من السلام المتحركة ، على أمل أن يشلوا حركة العدو بشكل أكثر فعالية بتركيز إطلاق نيران الأسلحة الصغيرة وذلك كي يقهروا الحامية الضعيفة دون صعوبة . وتقدموا متسترين وراء تروسهم ، التي كانت كبيرة كذلك التي تستخدم بين صفوف الفرسان ونجحوا في الوصول إلى مدى قريب لمقاومة القوة قبل أن يكتشف أمرهم ، وذلك بالاحتماء بالدير الذي يمتد إلى معبد « بطرس الرسول » Peter the Apostle . لقد كشفوا النطاء وأطلقوا هجومهم فجأة حتى إن المدافعين لم يكونوا غير قادرين على أن يجعلوا (مقاليعهم)^(١) تقوم بدورها (وهي أسلحة تصيب فقط أهدافها على مستوى مرتفع) أو حتى أن يردوا على المهاجمين بأسلحتهم الصغيرة إذ أن تروسهم أبطلت مفعول هذه الأسلحة وشدد القوط من هجومهم ، وواكتسحوا الماقل بقذائفهم ، وكانوا عند الحدود التي يضعونها السلام على الجدران . إن المدافعين عن الضريح وجنوا أنفسهم محاصرين تقريباً ، ولا يعرفون أى طريق يسلكون ، وواجهتهم القذائف من الجناح والمؤخرة ؛ وظلوا لحظات حارين

(١) مثل ... المدفعية الثقيلة التي ترمى كتلا كبيرة من الأخجار . (المحقق).

لا يدرون كيف ينقذون أنفسهم من وضمهم المخوف بالخطر دون كوارث ، وأما كان الأمر ، فلم يلبثوا طويلا ، قبل أن يفيقوا بدرجة تكفى لتحطيم غالبية التماثيل التى كانت ذات حجم كبير ، ورفضوا قطع الرخام الكبيرة فى كلتا اليدين ، وأسقطوها بشكل عمودى على رهوس السدو التى تهشت فور الاصطدام بالأحجار .

الموت ينهى المشكلة

(بلوتارك الخبرونى Plutarch of Chaeronea ٤٦-١٢٠م- حيوات متوازية نص توينر تحقيق لك. سنتينس C. Sintenis المجلد الثالث ص ٢٧٠ - ٤ حياة بومبيوس ماجنوس الفضول ٧٧ - ٨٠) .

عندما استنفدت خطة البحث عن مأوى فى مصر طوال اليوم ، أبحر « بومبيوس » وزوجته من قبرص فى سفينة حربية سليفونية Seleucian ، وكان جزء من الحاشية يصحبه على سفن حربية أخرى وجزء آخر على سفن تجارية . وبعد رحلة هادئة عبر البحر المكشوف ، تلقى تعليمات تقول بأن الملك « بطليموس » بمسكر فى (الفرما) Pelusium مع القوات المسلحة ويباشر عمليات حربية ضد أخيه . فأقام هو أيضاً (بالفرما) ، بعد أن كان قد أرسل مبعوثاً إلى الملك سلفاً ليشرح مركزه ويسأله المونة . وكان « بطليموس » نفسه لم يزل طفلاً ، إلا أن وزيره « بوثنوس » Pothinus الذى كانت فى يده كل السلطات ، استدعى مجلس الدولة ، وكان به مستشار خاص يمثل صورة أخرى من « بوثنوس » ، وأعلن فتح باب المناقشة لكافة الأعضاء الحاضرين . وإنها لإهانة بالغة أن يصبح مصير بومبيوس ماجنوس موضع جدل بين خصى مثل « بوثنوس » وأستاذ بلاغة أجبر مثل « ثيودوتس الحيوسى » Theodotus of Chios ومصرى مثل « أخيلاس » Achilles الذين كانوا المستشارين الأساسيين فى هذه المجموعة النبيلة من رؤساء الحجاب والخدم الخصوصيين ؛ وبينما هو ينتظر هذه المحكمة حتى يتلقى حكمها اضطر « بومبيوس » الذى أبت عليه كرامته أن يهب حياته لتبصر ، إلى أن يرسو على مرأى من الشاطئ . وقد

انقسم المجلس في مجموعه إلى رأيين ، أحدهما إلى جانب رفض التجاء بومبيوس والآخر إلى جانب دعوته واستضافته . وأيما كان الأمر ، فإن « ثيودوتس » Theodotus ، آثر أن يعلن قدرته الجدلية والقانونية فأدان الاقتراحين على اعتبار أنهما ينطويان على مخاطر بالغة . فإذا ما استضافوا بومبيوس ، فإلهم يجلبون على أنفسهم عداة قيصر ويصير بومبيوس بمثابة السيد لهم ؛ وإذا ما رفضوا إيواؤه ، فسوف يصبحون مسئولين أمام بومبيوس نفسه لأنهم طردوه ، ومسئولين أيضاً أمام قيصر لأنهم فشلوا في القبض عليه . فأفضل مسلك هو استدعاؤه للحفاكة وبعدئذ يتخلصون منه — وهو حل من شأنه أن يستميل إليهم أحد الجانبين ويريحهم من كافة مخاوف الجانب الآخر . ويقال إن الخطيب أضاف قائلاً وهو يبتسم « إن الوقت لا يعضون » .

وتبنى المجلس اقتراح « ثيودوتس » وأوكل تنفيذه إلى « أخيلاس » . فأخذ « أخيلاس » معه أحد ضباط بومبيوس القدامى ويدعى « سبتيموس » Septimus وضابطاً على الاستيداع يدعى « سلفيوس » Salvius وثلاثة أو أربعة جنود اتصال ، وأبحروا نحو سفينة بومبيوس . والذي حدث ، أن جميع الأعضاء المرموقين تقريباً من حاشية بومبيوس صعدوا إلى ظهر السفينة ليعرفوا ماذا يجب أن يفعلوا ، وعندما لم يروا شيئاً ينم عن الاستقبال اللائق بالتقاليد الملكية والتي علق عليها « ثيوفان »^(١) Theophanes آماله ، ولم يجدوا سوى نفر قليل يجذفون في قارب صيد ، أحسوا بأن عدم الجاملة لها دلالتها ، فنصحوا « بومبيوس » بأن يجذف عائداً وأن يقف ليرامهم وهم بعيداً عن متناول أيديهم . وأيما كان الأمر ، فقد اقترب القارب وقتئذ بدرجة مكنت « سبتيموس » أن ينفرد من دونهم ويرتفع على قدميه ويحى بومبيوس باللغة اللاتينية ويناديه بلقب (الجنرال) . وحياء « أخيلاس » أيضاً باليونانية ودعا إلى أن ينتقل من السفينة إلى قارب الصيد . وأوصح أن هناك مسافة طويلة من الماء الضحل مليئة برمال مترسبة بحيث إن سفينة لها مثل قوة

(١) سكرتير بومبيوس المينلي (للتحق) .

السفينة الحربية لا يفسر لها أن تعبها . وعند هذا الحد ، لاحظ أن بحارة بعض سفن الأسطول المصرى يتحركون إلى مرا كزهم ، والشاة يحتلون الشاطئ ، وعلى هذا لم يكن هناك وقت للهرب ، حتى لا يغيروا رأيهم ، وكان هناك اعتبار آخر وهو أن أى محاولة لعدم التزام الهدوء قد يكون من شأنها أن تعطى أى رانسب فى القتل عذراً لتنفيذ خطته المريعة . وعلى هذا طلب بومبيوس أن يودع « كورنيليا » Cornelia ، التى شاركت زوجها نهايته متأسفة ، وأمر اثنين من ضباطه على الاستيلاء واحد رجاله وكان قد أعقبه ويدعى « فيليب » Philip وأحد أتباعه « نيكيتس » Scythes ، أمرهم أن يسبقوه إلى القارب . وكان أخيلاس وصحبه يحمونه من القارب ، وعندما استدار إلى زوجته وابنه كرر أبيات « سوفوكليس Sophocles :

من يتعامل مع الطاغية ، فهو

عسده دائماً ، أيا كانت درجة حرته

وكانت هذه آخر عبارات نطق بها إلى أسرته قبل أن يرحل .

وعلى الرغم من أن المسافة من السفينة إلى الشاطئ كانت لا بأس بها ، إلا أنه لم توجه إليه بادرة واحدة ثم على صداقة من معه ، فنظر بومبيوس إلى سبتيموس قائلاً : « لملنى بالتأكد كيد غير مخطئ . فى أنك رفيق قديم فى السلاح ؟ » واكتفى سبتيموس بأن أوماً بالإيجاب دون أن يضيف كلمة أو يبدد منه ما يتم عن الصداقة . وأعقب ذلك فترة صمت أخرى ، كان يدرس فيها « بومبيوس » حديثاً باللغة اليونانية كان قد أعدده فى مفكرة صغيرة واعتزم أن يلقيه أمام بطليموس . وعندما اقتربوا من الشاطئ ، بدأت « كورنيليا » التى كانت مع أسدقائها على ظهر السفينة الحربية ، تترنح وهى ترتب باضطراب بالغ تطور الأحداث ، بدأت تشجع عندما رأت عدداً ضخماً من الحرس الملكى يتجمع فى مكان الرسمى وكأنهم يشكلون حرس شرف . وفى تلك اللحظة ، تلقى بومبيوس ، الذى كان يستند إلى بد فيليب لتساعده على الخطو ، أول طعنة فى ظهره من سيف سبتيموس ، التى كانت بمثابة

إشارة إلى سالفينوس وأخيلاس بأن يمتشقا أسلحتهما . فدفع بومبيوس عبائته بكلتا يديه إلى وجهه ، وزفر آنة واحدة وتلقى الضربات المستمرة ، دون أن يقول كلمة أو يأتي عملاً لا يتفق مع شخصيته وكان في عامه الستين ، ومات في اليوم التالي لميلاده .

وعندما رأى انطونيوس الذي كان على ظهر السفينة جريمة القتل ، أطلق ولولة صمت من الشاطئ ، ورفعوا المرساة بسرعة ليضمنوا نجاتهم . وأنعشتهم نسمة باردة عندما أصبحوا في عرض البحر وأعاقوا المصريين من الباعث الأول لمطاردتهم . وقطع القنلة رأس بومبيوس وألقوا بالجثمان عارياً خارج قارب الصيد على الشاطئ . حيث تركوه ليشاهده الحشد الفضولي للرؤية . وظل فيليب يحرسه حتى شبعت عيونهم من رؤيته . وغسله في البحر ولفه في بعض ثيابه الداخلية . وما أن وجد نفسه دون أي مطالب أخرى ، فقد بحث حول الشاطئ فوجد بقايا قارب صيد صغير ، وعلى رغم تأكله ، كان يكفي ليكون الوقود اللازم لنهاية جثة عارية معطية . وبينما هو يصنع هذا كله في كومة ، اقترب منه رجل عجوز له جنسية رومانية ، كان قد خدم في صدر شبابه في حملة بومبيوس الأولى ، وقال له « سيدى ، أرى أنك تنأهب لدفن بومبيوس ماجنوس ، فهل لي أن أسألك من أنت ؟ وعندما أخبره فيليب بأنه كان عبداً وأعتقه بومبيوس ، استطرذ الرجل العجوز قائلاً : « ولكن عليك ألا تنفرد بهذا الشرف ، وأتوسل إليك أن تقبل ممنوتى فهذا ليس واجباً مقدساً فحسب ولكنه ثواب لم أكن أتوفقه ، ومن شأنه أن يعزبنى بعض الشيء في منفاى عن وطنى . وإن التجارب التى مررت بها قد ردت لى الجزء الوحيد كى أشرك مع هذه الأيدي فى المراسم الاخيرة لأعظم جنرال خدم الرومانيون تحت إمرته . . . » وهكذا لقي بومبيوس شعار الدفن ووصل فى انيوم اتالى « توكيوس لنتولوس » Lucius Lentulus من قبرص وهو مجهل ماحدث ، وكان يحوم حول الشاطئ ، عندما رأى جثمتاً يحترق على محرقة ويقف فيليب إلى جواره . وقبل أن يتمكن من التعرف عليه ، صاح « من ذاك الذى أوى مصيره ووجد راحته فى هذا المكان البائس ؟ » واستطرد بعدهنية

قصيرة بأنة مؤلة: « لملك أنت يابومبيوس ماجنوس » . وذهب بعد دقائق قليلة إلى الشاطئ ، وألقى القبض عليه ، وواجه مصير قائده .

وهكذا كانت نهاية بومبيوس . وعندما وصل قيصر بعد ذلك بفترة ليست طويلة إلى مصر يفوح منه دنس هذه الجريمة النكراء استدار في اشتزاز من الشخص الذى جاء يقدم له رأس بومبيوس وبكى عندما وضع فى يديه خاتم بومبيوس . وكان الشعار على الخاتم هو أسير يحمل سيفاً . فأعدم قيصر أخيلاس وبوثنوس ، بينما هزم الملك فى البلاد المجاورة للنيل ولم يعد يشاهد مرة أخرى . أما « ثيودوتس » (مصلح العقول) فقد أفلت من عدالة قيصر بالهرب من مصر وأصبح منبوذاً مشرداً . وبعد ذلك ، فإن « ماركوس بروتس » *Marcus Brutus* الذى قتل قيصر وتولى زمام السلطة اكتشف ثيودوتس فى آسيا الصغرى وأعدمه بالتعذيب المتواصل . ووضعت بقايا بومبيوس تحت تصرف « كورنيليا » وقامت بدفنها فى ألبانو *Albano* .

ختال الزمن

(بوليبيوس : الكتاب السادس : الفصول ١٠٥٢ - ١٠٥٤)

يملك الإيطاليون تفوقاً فطرياً على الفينيقيين والبرابرة سواء فى القوة البدنية والشجاعة النفسية ؛ إلا أنهم أيضاً يستثيرون بشكل كبير نحو شبابهم فى هذا الاتجاه بالتدريبات التى يقدمونها إليهم . ووصف نظام واحد يكتفى كخال على الجهود التى تبذلها مجموعة الحكومونات الرومانى لتربى الرجال الذين تعدم لتحمل كافة الأمور من أجل اكتساب الشرف والمجد فى نظر مواطنيهم .

ف عندما يرحل أحد رجالهم البارزين عن هذه الحياة ، يشتمل احتفال الجنازة على موكب يكون فيه الجثمان - وغالباً ما يكون متصباً ومكشوقاً ، ونادراً

ما يكون مضجماً - محمولاً على ما يسمى عندهم (بالرأس) Rams^(١) في (الساحة) . ويتجمع حوله كل الناس ، ويمتلئ الخطيب^(٢) النصّة ويلقى خطاباً عن شخصية الفقيه وحياته . وهو بهذا السرد يثير ذكرى حياة عن الماضي في أذهان الجمهور ، بما فيهم أولئك الذين لا تربطهم صلة بالتوفى ومن شاركه أعماله ، ويخلق مثل هذا التعاطف قوة لدرجة أنهم يشعرون بأن المصاب خسارة عامة ليست مقصورة على النأحين . وعندما تنفض الجنازة بعد ذلك ، تمام الشعائر المعتادة ، ويضعون (نظيراً) للمتوفى ، داخل تابوت صغير من الخشب ، ويضعونه في مكان الشرف بين الأسلاف . وهذا النظير عبارة عن النصف الأعلى وقد تم تصميمه بطريقة واقعية دقيقة ومصادقة في الخطوط الخارجية والنمط . وكانت هذه السلسلة من (النظائر) يرفع عنها الستار في مناسبة الأعياد العامة التي تزدان بعبارة رقيقة ، وعندما يتوفى عضو بارز من المجلس النيابي ، يستعرضون هذه (النظائر) في المركب الجنائزي ، ويختارون أشخاصاً من أكبر الناس شبهاً بالتوفى الأصلي ، في الطول والهيئة ، ويحظى هؤلاء بشرف ارتداء هذه (النظائر) . ويتقلد هؤلاء المشخصون الأزياء المناسبة - فإذا ما كان الشخص الأصلي قنصلاً أو قاضياً كانت الملابس بيضاء ذات أطراف قرمزية ، وإذا ما كان رقيباً فهي قرمزية كاملة وإذا ما كان المتوفى قد اشتهر بنصر رمحي أو حصل على أوسمة الشرف فيرتدى الشخص نيشاناً أبيض مذهباً . ويركب المشخصون أنفسهم في عربات ، تسبقها الصولجانات والفئوس والشعارات الأخرى التي هي من لوازم مناصب الدولة العليا ، بما يتفق مع المرتبة الرسمية التي حصل عليها في حياته الشخصية التي يقومون بتمثيلها . وعندما يصلون إلى النصّة يأخذ الجميع أما كنهم حسب الأولوية على عروش عاجية ، وليس من اليسر أن تتصور مشهداً يدخل السرور على الشاب ذي الأخلاق الطيبة والطموح السليم أكثر من هذا المشهد . ومن ذا الذي لا يتأثر

(١) هي منصة مزينة بمناجيق سفن الفراطيجيين الحربية المستولى عليها . (المحقق) .

(٢) عادة ما يكون ابن الفقيه إذا ما كان على قيد الحياة وتصادف وجوده في روما .

أو ينوب عن الابن ، أي قريب آخر . (المؤلف) .

برؤية نظائر الرجال موضع التبجيل والحقارة في الماضي ، تتجمع أمام عينيه بكل ألقاس الحياة الفعلية ؟ أو أي مشهد يمكن أن يكون أكثر تأثيراً من هذا المشهد ؟ وبعد ذلك ، فإن الخطيب الوكول إليه أن يلقي الخطاب المنائزي لا يقصر حديثه على الفقيد ، وإنما يتعداه ، بعد أن يوقى الفقيد حقه ، إلى سرد النجاحات وأعمال الأسلاف الأول ، بادئاً بالأولين ، الذين يخلد لهم هذا التذكير الدائم لمجد التوفى ، وشهرة جميع الذين امتازوا بأى عمل نبيل ، وأما قصة أولئك الذين استأهلوا خير بلد ثم فإنهم يصبحون كلة وطنية تتلقاها الأجيال المقبلة . واهم هذا كله ، أنهم يستثيرون الشباب إلى تحمل كل الأشياء من أجل الصالح العام ، على أمل اكتساب الشهرة التي لا تفشل في أن تلحق بأولئك الذين يستحقونها .

القسم الثاني

الكبرياء والقصاص والحسد عند الآلهة

(Hybris, Ate, Phthonos)

(هوبريس وآت وفثونوس)

(الرواية المتعمدة)

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصل العاشر) .

من « أرتابانوس » Artabanus إلى « كسر كسيس » Xerxes :

« إن الحكم الحق ، حسب خبرتى ، أكثر قيمة من أى عمل آخر . فإذا ما طرأ أمة خطأ ، فإن سوابب الحكم الأصيل يظل دون أن يتأثر ، ويعزى فساد مساه إلى الخطأ . وعلى النقيض ، فإن الحكم السيئ قد يبنى ثمرة غير متوقعة إذا ما آثر الخطأ أن يكون فى صالح النتيجة ، إلا أنه لا يعدوا أن يكون حكماً سيئاً . فانت ترى كيف أن الرب يقصف بصاعقته الحيوانات التى تفوق زميلاتها وكيف أنه لا يتحمل أن يراها تبرز على السطح ، بينما الحيوانات الصغيرة لا تتأثر اهتمامه أبداً ، وانت ترى أيضاً كيف أنه يوجه سهامه بشكل ثابت إلى أعلى النازل وأطول الأشجار . فإن الرب يحب أن يقصف

كل شيء يستعمل على نوعه . وبهذه الطريقة ، فإن جيشاً كبيراً يدمره جيش صغير في ظروف معينة — على سبيل المثال عندما يرسل الرب ، في حالة تقمته ، الملح أو البرق إليهم . عندئذ يهلكون ، ولا تكون نهايتهم متفقة مع بدايتهم . إن الله لا يقبل أن يرى أحداً متكبراً سواء .

حكمة سولون Solon

(هيرودوت : الكتاب الأول . الفصول ٣٢ — ٣٤)

كان « كرويسوس » Croesus حاتقاً للغاية من ملاحظات « سولون » التي تتعلق بالسعادة الإنسانية حتى إنه قال : « سيدى العزيز ، هل سعادتي تافهة بهذا الشكل الخفير بالنسبة إلى عقلك الآثني إلى حد أنك تضعني بالفعل في درجة أقل من أفراد بذاتهم ؟ فأجاب سولون « مولاي ، إنني أعلم حقيقة أن الطبيعة الإلهية تنتقم بشكل ثابت وهي مدمرة أيضاً ، وبعدئذ فأت تسألني عن الحياة الإنسانية ، إن مرور الزمن يجلب مناظر كثيرة غير سارة وخيرات كثيرة غير سارة إنني أقدر فترة الحياة الإنسانية العادية بسبعين عاماً : وتبلغ هذه السنوات السبعون (بعد احتساب الشهور جميعاً بثلاثين يوماً) إلى ٢٥٢٠٠ يوماً ، أو بدلا من ذلك ، إذا ما حسبت كل سنة ثانية على أن بها شهراً أطول ، من أجل أن تبقى السنة التقويمية متطابقة مع السنة الفلكية ، وأن عدد الشهور الكبيسة ، خلال فترة سبعين عاماً تبلغ ٣٥ شهراً ، تحترق على ١٠٥٠ يوماً . ومن بين هذه الأيام كلها التي تكون السبعين عاماً والتي تبلغ في مجموعها ٢٦٢٥٠ يوماً ليس هناك يوم واحد يفتح عنه أي شيء يشبه تماماً نتاج يوم آخر ، وعلى هذا ، يا مولاي ، فإن الإنسان ليس شيئاً سوى البلاء . وإنني أنصوّر أنك شخصياً غنى جداً وأن لديك عدداً كبيراً من الرعايا ، إلا أنني لا أستطيع أن أمنحك بعد اللقب الذي تهدف إليه من تساؤلك ، قبل أن أسمع أنك معظوظ في نهايتك . . إن المليونير ليس أكثر سعادة بأية حال من جاره الذي يعيش من يده إلى فمه مالم يحالفه الحظ ويقوده إلى نهاية سعيدة دون ظل على أفقه . وكثير ممن تراكم لديهم

اللايين غير سعداء ، وكثير من متوسطى الحال محظوظين . إن المليونير غير السعيد له ميزتان ، وميزتان فقط أكثر من الرجل المحظوظ حقيقة . حيث إن الأخير ميزات لا تخص على المليونير غير السعيد . وأمام المليونير فرصة لإرضاء رغباته وتحمل ضربات الكارثة الكبرى ، إلا أن الميزات التالية يتمتع بها الآخر . فالكوارث والرغبات التي لا يكون الأخير مهيباً لها مثل المليونير تتحول عنه بفعل قائله الحسن . يضاف إلى ذلك نعم البدن الكامل ، والمناعة من المرض ، والبعد عن المتاعب ، وأسرة ذات أطفال لطاف ؛ وحنن المشر . وإذا مانجح في تنويع هذه النعم بأن يصادف نهاية طيبة ، عندئذ يمولاي ، فإنه هدف لبحتك أو عبارة أخرى ، يحق أن يقال عن هذا الرجل إنه سعيد . وأما كان الأمر ، فعلى أن احتفظ بحكمي حتى أرى نهايته ، وأن أطلق عليه لقب (محظوظ) لا (سعيد) . إن قائمة النعم كلها المذكورة آنفاً لا يمكن أن تتجمع بالطبع لدى كائن بمفرده كما أن أى قطعة من الأرض لا يمكن أن تحوى على كل أنواع الإنتاج . إن قطعة الأرض قد يكون بها أحد الضروريات وتفتقر إلى الأخرى . وأفضل قطعة أرض ببساطة هي تلك التي يكون بها أكبر عدد من الميزات . وكذلك فإن الفرد الإنسانى ليس وحدة ذات اكتفاء ذاتى ، بل قد يمتلك إحدى التوازم ويفتقر إلى الأخرى ، والإنسان الذى يحوز أكبر عدد من الضروريات لأطول فترة ، وبالتالي يصادف نهاية طيبة ، سوف يكون له ، يمولاي ، حسب تقديرى الحق فى لقب السعادة . ولكى نقيم أى ظاهرة ، يجب أن نوجه الانتباه إلى الظروف التي نصادفها فى نهايتها . ولقد أعطى الله ، أناساً كثيرين قبس السعادة كي يحطمهم أصلاً ونوعاً .

ولم تلق ملاحظات سولون ميولا على الإطلاق من جانب كرويسوس الذى طرد الفليسوف بازدهاء ، باعتباره رجلاً ليس لديه أية فطنة ، بسبب مبدأ ، فى عدم اعتبار القيم الحالية ومدح كل ظاهرة حسب نهايتها . وأما كان الأمر ، فبمدر حيل سولون ، أخذ الله كرويسوس بعقاب شديد — ويحتمل أن يكون ذلك لأنه جازف فاعتبر نفسه أسعد أبناء الجنس البشرى .

درس بوليقراط Potyocrates

(هيرودوت : الكتاب الثالث : الفصول ٣٩ - ٤٣ و ١٢٢ - ١٢٥)

فرض « بوليقراط » بن « أيكس » Aeaces نفسه سيداً على (ساموس) Samos نتيجة انقلاب . وفي البداية قسم البلاد إلى ثلاثة أقسام وأعطي منها قسمين إلى أخويه « بانتاجنوتوس Pantagnotus » و « سيلوسون Syloson » ، ولكنه بعد ذلك قتل الأول ، ونعى « سيلوسون » ، أخاه الأصغر ، وفرض نفسه سيداً على (ساموس) بأسرها ، وشرع عن طريق تبادل الهدايا في عقد (اتفاق) مع « أمازيس » Amasis ملك مصر . وفي فترة صغيرة لا تذكر أقام بوليقراط دولة امتدت رهبتها على كل (أيونيا) Ionia وبقية هيلاس . وأياً كانت الأهداف التي اختارها لحملاته فقد كانت ناجحة بشكل ثابت . ونظم مائة سفينة من ذات (الحسین مجداف) وألغاً من رماة السهام ، ونهب جميع القادمين دون تمييز ، ولعل من العلامات الصالحة لهذا ، أنه كان يقدم متعة أكثر إلى الصديق بأن يرجع له ما أخذ منه بدلاً من أخذه إلى النهاية . لقد استولى على جزر عديدة ومدن برية كثيرة . وكان أحد منافع أنه هزم وأسر كل أسطول (لسبيا) ، الذي جاء لمساعدة (ميلتوس) Miletus . وقام هؤلاء المسجونون ، وهم في القيود ، بحفر الخندق كله الذي يحيط بمدينة (ساموس) . وأبما كان الأمر ، فإن نجاح بوليقراط الكبير لم يخف تماماً عن أعين « أمازيس » ، ولكن المجلس الهب انتباهه ، وعندما استطرد النجاح يزداد يوثباته وقفزاته كتب « أمازيس » في النهاية إليه الخطاب التالي ، الذي أرسله إلى (ساموس) :

« يقدم أمازيس الملاحظات التالية إلى بوليقراط . إن نجاح صديق وحليف يعتبر خيراً ساراً ، إلا أن نجاحاتك الكبيرة لا تسرنى ، إذ أنني أعلم حقيقة ، أن الرب له طبع حدود ، إن الوضع كما أتصوره ، بالنسبة لنفسى كما هو بالنسبة لأولئك الذين أهتم بهم ، هو أن تنجح في بعض الأمور وتفشل في الأخرى ، وأن تمر في تقلبات الحظ خلال الحياة أكثر من أن تستمتع بسلسلة لا تنقطع من النجاح.

ولم أسمع بعد عن أى واحد تمتع بنجاح غير منقطع دون أن يأتى بعد ذلك إلى نهاية سيئة وأنه اقتلع من جذوره وفروعه فخذ نصيحتي وأمن نجاحاتك بالطريقة التالية . « ابحث في أفكارك حتى تمر على الشيء الذى ادخرت له أعظم الأمور والذى إذا خسرته يسبب لك كربة حادة ، وبعدئذ تخلص من ذلك الموضوع بطريقة فعالة حتى لا تراه بعد ذلك عيون البشر . وإذا لم تجد أن نجاحاتك قد تبدلت بسبب ذلك إلى فشل ، فاستمر في البحث عن علاج في الحدود التى اقترحها عليك . »

وعند قراءة هذا ، أيقن « بوليقرات » أن « امازيس » يقدم له نصيحة حققة ، وبدأ يبحث في أفكاره حتى يكشف فيما يكتنز ، عما يحزنه إذا ما فقد . وقاده بحثه إلى أن يتوقف . عند خاتم ذهبي مطعم بالمرد ، يرتديه عادة ، وصنمه « تيودور » بن « تلسكيس » الساموسى . وقرر أن يتخلص من هذا الخاتم ، ونى النهاية اتخذ الخطوات التالية . أعد سفينة ذات خمسين مجدافاً بالجند ، وركب السفينة ، وأمر بأن تقف به فى أعرق مكان من البحر . وعندما وجد نفسه بعيداً عن الجزيرة ، خلع الخاتم وألقى به فى البحر العميق على مرأى من حاشية السفينة كلها . وبعد هذه العملية عاد إلى الميناء ، وإلى البيت ، وكان أسفاً جداً على نفسه ، على أية حال فبعد خمسة أيام أو ستة حدث أن جاء صياد كان قد التقط سمكة لطيفة كبيرة ، واعتقد أنها هدية تليق لبوليقرات . وعلى هذا حضر بها إلى الباب ، والتبس أن يتأيل لبوليقرات شخصياً ، وعندما تم له هذا ، قدم السمكة لبوليقرات قائلاً : « مولاي ، على الرغم من أننى أعيش على الصيد ، حرفتى ، فإننى لا أشعر بأننى أخفى فى أن آخذ هذه السمكة التى اصطدتها إلى السوق . وهى جديرة بجلايتك يا مولاي ، ولهذا فقد أحضرتها هدية إليك . » وأتبع بوليقرات بالحديث وقال « لقد أتيت أمراً طيباً فعلاً ، وأنا مدين لك مرتين ، مرة على هديتك وأخرى على بلاغتك . فأدعوك للعداء معي » وعاد إلى بيته ممنوناً جداً ، إلا أن الخدم عندما فتحوا بطن السمكة ، وجدوا اتفاقاً فى ممتها — وهو خاتم بوليقرات — فقدموه له وشرحوا كيف وجدوه . وأذهل الحديث لبوليقرات على اعتبار أنه عمل

الطبيعة ، ولذا فقد كتب كل ما فعله وما حدث بعد ذلك في خطاب ، أرسله إلى مصر . وعندما قرأ « أمازيس » خطاب « بوليقرات » ، تأكد أنه من المستحيل على كائن بشرى أن ينقذ كائناً آخر من مصير يرتقبه ، وأن بوليقرات تنتظره نهاية غير سارة ، فنجاحه متصل ووجد ما ألقى به بعيداً . وعلى ضوء هذا ، أرسل مذكرة إلى ساموس ينقض الاتفاقية ، وكان يهدف من هذا التصرف أن يبرأ مشاعره من الأشجان ، إزاء صديق وحليف ، عندما تصيب بوليقرات كارثة ماحقة .

وأرسل « أوروبتيس »^(١) Oroetes ، وكان قد اتخذ مراكزة في مدينة ماجنيزيا (Magnesia على (مايندر) Maeander ، أرسل « مرسيس الليدي Lydian Myrsus بن « جيبيس » Gyges في بثة إلى ساموس . وكان « أوروبتيس » قد قرأ أفكار « بوليقرات » ، إذن « بوليقرات » كان أول هليلي في الأزمنة التاريخية يتطلع إلى السيطرة على البحر^(٢) . وبارك « أوروبتيس » هذا التطلع وجعل مبعوثه يحمل الذكرة التالية :

« يقدم أوروبتيس الملاحظات التالية إلى بوليقرات . لقد غنا إلى على أن لديك مشروعات هامة في تناول اليد ، إلا أن مواردك المالية لا تتناسب مع مطامحك وعندى اقتراح ، في قبوله كافة وسائل النجاح لك والخلاص لي . ولدي معلومات تفيد بأن الملك « قبيز » Cambyses يتآمر على إعداي . ويمكنك أن تنقذ شخصي وكنزي من هذا المصير ، وسوف يكون لك جزءاً من هذا الكثر إذا ما تركت جزءاً لي ، وعندما يتوفر المال سوف تكون سيد هيلاس بأسرها . وإذا كنت غير واثق بمحدي عن الكثر ، فأرسل أكثر مستشاريك ثقة ، وسوف أقدم له برهاناً عياناً . وأبهجت محمولات هذا الخطاب بوليقرات ، والهبت عزيمته . . وقد كان

(١) الزوال الفارسي ، أو باشا ليديا ، حاكم (ايدن) Aidin الحالي . (الحق)

(٢) وإذا ما تركنا جانباً « مينوس من كنوسوس » وكافة الآخرين الذين قد يكونون قد سيطروا على البحر من قبله . وفي الفترة غير الأسطورية فإن بوليقرات كان هو الأول ، وكانت لديه آمال جادة لإقامة سيطرته على أيونيا والجزر . (المؤلف) .

يستويه المال جداً ، فأرسل سكرتيره ، السامياتى « ما يندروس » Macandrus ابن « ما يندربوس » فى بعثة تمهيدية للتفتيش^(١) . وما إن سمع « أورويتيس » بأن المستطلع فى الطريق ، حتى أعد عدته ليخذه فلا تخافه سناديق بالحجارة ، فيها عدا مسافة قليلة أسفل جوانبها ، غطاها بطبقة من الذهب . وأغلقت الصناديق بعد ذلك ، ووضعت مهياة لاستخدام « ما يندروس » ، الذى حفر على التو ولخص الصناديق وأعد تقريره إلى بوليقرات .

وتنبأ « بوليقرات » ليقوم فوراً بالرحلة بنفسه ، متجاهلاً تحذيرات كهنته^(٢) وأصدقائه ، وكذلك الرؤيا التى رأها ابنته ، ومؤداها أنها حلت أنها رأت والدها معلقاً فى الفضاء ، وزيرس يسلطه والشمس تدننه . وجعلها هذه الرؤيا تمل كل شئ . مستطاع حتى تمنع أباه من الذهاب لزيارة أورويتيس ، وذهبت إلى أبعد من ذلك فتفوهت بعبارات سيئة الطالع^(٣) عندما كان والدها فى طريقه إلى سفينته (ذات الخسفين مجدافاً) فزجرها بوليقرات مهدداً ، بأنه إذا ما عاد آمناً وسليماً ، فلن تتوقع زواجاً مبكراً — فأثرت الفتاة أن تصدق هذه العبارات ، لأنها كانت تود بسرور أن تؤجل زواجها مقابل عدم فقدان والدها . وأيا كان الأمر ، فإن بوليقرات أصر على الإبحار إلى بلد أورويتيس على الرغم من كل نصيحة ، وأخذ معه طاقاً كبيراً ، ضم الطبيب « ديموكاديس » Democades بن كاليفون الكروتونى Calliphon of Croton ، أحسن طبيب فى عصره . وعند وصوله إلى (مننيزيا) ، لقي بوليقرات مصيراً رهيباً لا يتفق مع شخصيته وآماله^(٤)

(١) انه ما يندروس ، الذى قام بعد فترة ليست بعيدة بعد ذلك ، بإهداء الجهاز النفسى لمجالس دولة وليقرات إلى معبد (هيرا) (المؤلف) .

(٢) اعتادوا أن ينبأوا بالمستقبل بفص هيئة العظام وأعضاء الذبايح . (المحقق)

(٣) (قص) بالمعنى القبيح (سى- الطالع) وكان اعتقاداً حليماً شائعاً ، أنه فى الأوقات المرحجة ، تكون الكلمة المنطوقة لها تأثير خارق للطبيعة أو تدخل فى تقرير مجرى الأحداث بشكل آلى . (المحقق) .

(٤) مع استثناء وحيد لطفاً سيراكوز ، فلا يمكن مقارنة أحد من الطغاة الهلنيين ببوليقرات فى فضائه . (المؤلف) .

ويعد أن تم إعدامه^(١) (وهذه تفاصيل تخطيطها) صلب «أورويثيس» جثمانه ،
وإذ هو معلق على الصليب ، تمت رؤيا ابنته بمخاضها . لقد غسله «زيوس» عندما
أمطرت الدنيا ، ودهنته الشمس عندما أفرز الندى من جسده . وكانت هذه
نهاية نجاح بوليقرات الذي لا يمكن حصره .

الرواية المنقحة

(إيسخولوس الأثيني Aeschylus of Athens)

٥٢٥/٥٢٤ - ٤٥٦/٤٥٥ ق.م . الأعمال . نص

أ. كسفورد ، تحقيق سرجوك A. Sidgwick أ. ج. ممتون

(آيات ٧٥٠ - ٧٨١)

كلمة شياء تعيش على السنة البشر

منذ صباح زمن غابر

سوف تذوب ثروة الإنسان لأنها من الشمع الخالص

وهي لا تأخذ معها الأطفال فحسب وإنما الأبناء أيضاً

والدموع التلقة والقلب الكسير

تولد بسعادة بالغة

وفكرت بمفردى وبأفكار أخرى غير خادعة ؛

وها هو ذا العقل غير القدس ، متولد طفل على طفل ،

وخطيئة على خطيئة ، كمن ولدها . وستكون كما كانوا .

(١) أعتق أورويثيس الأعضاء السامين في حاشية بوليقرات وأمرهم بأن يشكروه على
تحريرهم ، إلا أنه أبى على حيازته للقباء والأرقاء ، الذين عاملهم على اعتبار أنهم من الأمتة .
(للؤلف) .

ولكن مجدوا الإنسان المستقيم ، وبيته وحياته

مجدوه أيضا ... فأطفاله عادلون

وعندما تأتى الساعة مرة أخرى ، فإن الخطيئة القديمة تود أن تأتى بمجديد .

حيث يضحك القوى بين دموع الناس

وحيث لاحتان يا صديقي ، ولا أحد

يتدفق ولا يهلك ، ويتجرا أكثر فأكثر

مصدرا أنه لا يخشى أى شيء مقدس

ونيران الفلة فى البيت تله الحقيقة

مثل ربيما القديم

غير أن المعدل يشع فى بيت متواضع

والدخان يلطخ الجسد

والشرف يأخذ مكانه

إلا أن اليد القذرة على النجم النهى

والعيون تهرب نافرة تبحث

عن أمور غير بريئة ولا تمبأ تماماً

بثروة الرجال غير الأبحاد . وتسوق

الجميع إلى ساعتها المحتومة

(ترجمة جليبرت مري)

يوم الدينونة

(كسينوفون الأثيني Xenophon 430 - 354 ق.م. — تاريخ الشئون
الميلينية نصر اكسفورد تحقيق ك. مارشات E.C. Marabant . الكتاب
الثاني — الفصل الثاني 3 - 4) .

كان وصول (بارالوس) ^(١) Paralus إيثاناً بإعلان الكارثة ^(٢) في أثينا
وانتشر عويل من (البرايوس) Peirreus خلال الجدران الطويلة في المدينة ،
بانتقال الخبر من شخص إلى آخر . ولم يبق أحد في تلك الليلة . فكانوا ينوحون
على أنفسهم بمرارة أشد ، إلى جانب نحيبهم على الموت ، لأنهم توقعوا أن يحمل بهم
الصير الذي أزلوه بالميلين Melians (الذين كانوا يستعمرون الإمبرطيين) عندما
حصروا مدينتهم واستولوا عليها ، وأزلوه بالميستائين Histiaeans والسيكونيين
Sicionians والطورنيين Toronians والأيجينييتيين Aeginetans وشعوب
هليفية أخرى كثيرة . وفي الصباح التالي عقدوا اجتماعاً ، قرروا فيه إغلاق كافة
للوانى ، ما عدا ميناء واحدة ، وليركوا للتحصينات فرصة العمل ، وتوزيع الفرق
وتزويدها بالرجال ، وجعل المدينة في حالة دفاع تام للحصار المنتظر .

الجبار في السرج

(بوليبوس : الكتاب السادس الفصل ٥٦)

أعتقد أن المسألة التي يظهر فيها الدستور الروماني تقوّه العظيم هي الموقف
التي يتخذها إزاء الدين . وفي اعتقادي أن الطبع المستهجن في البلدان الأخرى هو
بأفضل مفتاح النظام الروماني ، وأعني به الخرافة . ففي روما بولغ في هذه السمة

(١) (بارالوس) و (سالاجيا) كانتا أسرع باخرتين في الأسطول الأثيني ، وكانتا
تستخدمان في نقل الإمدادات . (الحق) .

(٢) معركة (إيموسبوتاي) ، في الدردنيل وفيها سحق البليونيزيون آخر أسطول
أثيني في عام 40٥ ق.م .

استطاعاً وأدخات إلى الحياة الخاصة كما هو الحال في الشئون العامة إلى أقصى حد ممكن إحداه . وما لاشك فيه أن قرأى سوف يجدون أن هذا غريب ، إلا أن الرومانيين ، في رأيي ، قد فعلوا هذا عن قصد بسبب النظرة إلى الجماهير فإذا ما كان مجتمع يتكون إلى أقصى حد ممكن من المتقين ، فإن سياسة كهذه تبدو إلا ضرورة لها ؛ إلا أن الجماهير في الواقع متقلبة في كل مكان وتتاثر بشكل هوائى بمثل هذه المواطن غير الاجتماعية على اعتبار أنها مزاج لا عقل وغضب قاتل ، وعلى هذا ، ليست هناك وسائل يمكن أن تقيمها سوى الرعب المظلم وعجون الخرافة . ومن هذه الزاوية ، أشر أنه ليس هناك شيء اعتباطى أو عدم مسئولية في سياسة آباءنا السالفين عندما قدموا للجماهير مفاهيم الدين ومفاهيم (الجحيم) ، ومن غير المقول وغير مطلوب من الجيل الراهن أن يراجع هذه الأفكار . ويمكن إهراك إحدى النتائج السيئة لهذه الخطوة الزائفة في حقيقة مؤداها أنه في البلدان الهلينية ، يوكل إلى ذمة أشخاص في مناصب رئيسية ، مبلغ طفيف من النقود ، وهؤلاء يلتزمون بعشرة توقيعات وأختام كثيرة وضعف هذا المبدد من الشهود ، ومع كل ذلك فهم جديرين بالثقة ؛ بينما في روما ، فإن الناس الماديين لديهم مقادير كبيرة من المال في الإدارات أو البعثات الدبلوماسية ليجرد ضمان قسمهم الخاص ، وما زالوا موضع ثقة . وفي بلدان أخرى ، من النادر أن نجد فرد يتقاضى يديه من الخزينة العمومية وأن يظهر سجلاً نظيفاً بهذا الخصوص وكذلك ، من النادر في روما ، أن ترى أمراً رهين مثل هذه الإجراءات السيئة .

الاتجاه العقلى

(بروكوبيوس : الكتاب الخامس الفصل الثالث - ٥ - ٨)

وعند هذا الحد زارت بمشة من (بيزنطة) Byzantium كاهن (١) روما

(١) ... رئيس الأساقفة . (المحقق) .

المسيحي الأكبر، وتتكون البعثة من « هيباتيوس » Hypatius كاهن^(١) (إفسوس) Ephesus و « ديمتريوس » Demetrius كاهن (فيلبي) Philippi في مقدونيا . وقد أشارت البعثة إلى نقطة عقيدية يختلف حولها المسيحيون ويتنازع الواحد مع الآخر ، إلا أنه ، على الرغم من أنني أحطت علماً بالمجادلة ، فليس في نيتي المناقشة . إن محاولة البحث في طبيعة الله تبدو لي على أنها نوع من الضلال والخلل العقلي . والذهن الإنساني ليس كذلك ، فإني أصل عن طريقه إلى المفهوم الدقيق حتى في الشئون الإنسانية ، وعلى هذا ، فبالأحرى ، تلك المشاكل المتعلقة بطبيعة الله . وفي مثل هذه المسائل أقترح أن اتحفظ احتياطياً ، وسوف أشير فقط إلى أنني لست كافراً بالمبادئ السلم بها . وأياً ما كان الأمر ، فإني أردد شخصياً في أن أقول أى عبارة عن الله فيما عدا أنه كامل الخلق وكلى القدرة مادياً .

وأتارك هذا الأمر للآخرين ، الكهنة والمعلمين ليصوغوا في عبارات ، المعرفة اللاهوتية التي يعتقدون بأنهم يملكون ناصيتها ..

القسم الثالث التطور

الاضمحلال

(هسيود الإسكاري Hesiod of Ascara. نص توينر تحقيق أ. رزاخ A. Rzach)

(الأعمال والأيام، الأبيات ١٠٩ - ٢٠١)^(٢)

في البدء ، صنع الآلهة الخالدون الذين يسكنون على جبل أوليمبوس ، جنساً ذهبياً من أناس فانيين . وعاش هؤلاء الرجال في أيام « كرونوس » Cronus ، عندما كان ملكاً في السماء . عاشوا على نحو ما يعيش الأرباب . وقد خلت قلوبهم

(١) ... أسقف .

(٢) إن ترجمة المترجم م. كورغورد أعقبتها بعض التعديلات ، معظمها في ترتيب العبارات ، وهي تميل بشكل عام إلى مستوى أسوأ . (المحقق) .

من الهموم والأشجان ، دون قليل أو كثير من العمل والأسى . ولم يتطرق إليهم ظل من شيخوخة ، فسوا عدم وأرجلهم في قوة دائمة ، يجدون متعهم في الولائم ، بعيداً عن كل الشرور . فإذا ماتوا ، فكأنما قد غلب عليهم النوم . وسائر الأشياء الطيبة موفورة لهم ، والثمار الطيبة تفلها الأرض السخية من تلقاء نفسها ، فتكون ثماراً طيبة في غير ما حقد أو ضغينة — بينما عاشوا هم في بطاحهم هاتين سالين وقد توافرت لهم الطيبات . فالآن ، وقد طوى الثرى هذا الجنس ، تحولوا إلى أرواح طيبة بفعل إرادته « زيوس » Zeus العظيم — أرواح على الأرض تحرس البشر ، وتهب الثروة (إذا كانوا قد منحوا ذلك الشرف للملكى) .

ثم ، صنع بعد ذلك ، ساكو جيل أوليمبوس ، جنساً من النضة ، أقل نبلاً — جنساً لا يماثل الجنس الذهبي جسماً وروحاً . كلن الطفل يشب في كنف أمه الحنون لمائة سنة ، طفل ، لاحول له ، يلهو في بيته ، بيد أنهم ما كادوا يصلون إلى ريمان الشباب ، واقتربوا من الشيخوخة ، كان الزمن الذى يعيشونه مقيداً ، يحيمونه في آلام بسبب حماقتهم . إذا لم يكن في مقدورهم كبح جماح أعاسهم عن أذى بعضهم بعضاً ، بل امتنعوا عن خدمة الآلهة الخالدين ، وأهملوا تقديم المحرقات فوق مذابح الآلهة الباركين كما كلن يقضى الواجب في كل مكان يقيم فيه البشر . ولكن ذلك الحال لم يطل ، إذ إن « زيوس » بن « كرونوس » عا آرم أخيراً ، في سورة غضبه ، لأنهم ما كانوا يؤدون فرائض الولاء للآرباب الباركين الساكنين في جبل أوليمبوس . والآن ، بعد أن طوى الثرى هذا الجنس كسابقه ، وأطلق عليهم البشر لقب أرواح العالم السفلى الباركين — كلن الشرف يلزمه رغم كونه في المرتبة الثانية من المجد .

حتى خلق الأب زيوس جنساً بشرياً ثالثاً — جنساً بروزيّاً ، لا يمت إلى الجنس الفضى بأية صلة ، صنه من (الدردار) ^(١) قوياً ومرعباً . وكانت ملذاتهم في أعمال « آريس » Ares المحزنة وفي أخطاء الكبرياء . لم يدخل إلى شفاهم

(١) شجر الدردار ، الخشب الذى كانت تصنع منه نبال المرباب . (المحقق) .

شره غير أن أقدسهم في صدورهم كانت قوية وكآتها قدت من الصخر، وهابهم الجميع . كانت قوتهم هائلة كما كانت أذرعتهم التي تنمو من أكتافهم فوق قوامهم المشوق لانتهزم . وكان النحاس معدنهم يصنعون منه منازلهم ، وبالبرونز كانوا يفلحون الأرض (إذ لم يكن قد عرف الحديد القاتم حتى ذلك الوقت) وقد صمروا هذه الممدات بأيديهم حتى انتقلوا إلى زمهرير هاديس Hades الوطيس غير تاركين ما يخلد اسمهم . وعلى الرغم من جراءة خارقة أمسك الردى بهم بقبضته السوداء ، وتركوا نور الشمس الساطع .

والآن ، وقد غطى الثرى هذا الجنس أيضاً ، مالبث أن خلق جنساً رابعاً مرة أخرى ، على الأرض الخصبية ، منهنه زيوس بن كرونوس — جنساً أفضل وأكثر استقامة ، ليشبه جنس أبطال الآلهة ، للفتين بأنصاف الآلهة ، الجنس السابق لجنسنا على الأرض الترابية الأطراف . وهؤلاء قضت عليهم الحرب الضروس والمركة الخفية — بعضهم قرب طيبة Thebes ذات الأبواب السبعة في أرض كادموس Cadmus وهم إذا كانوا يقاتلون من أجل قطع أوديبوس Oedipus ، بينما نقلت السفن الآخرين عبر خليج البحر الكبير — ليقاتلوا في طرواده ، من أجل « هيلينا » Helen ذات الشمر الأشقر . وهناك لقوا نهايتهم وطوام الموت ، وبعدئذ بعيداً عن الجنس البشرى منحوا حياة وإقامة إلى جانب زيوس بن كرونوس ، الذى جعلهم يكثرون عند نهاية الأرض . ومن ثم فهم يكثرون هناك ، بقلوب تملو من المموم ، في جزر المباركين بجوار دوامات مجرى المحيط العميقة — أبطالاً سعداء ، تغل لهم الأرض السخية فآكتها حصاداً من شهر المسل ، ثلاث مرات في العام .

والآن ، ليتنى ما تلسكأت لأعيش مع الجنس الخامس ، بل وباليثنى مت قبل ذلك ، أو باليتنى ما ولت إلا بعد ذلك الجيل ، لأننا الآن في الأيام التأخره زمن الجنس الحديدى . ولن يكف البشر عن العمل قط ولن تقارقه المموم بالهار ، ولا من قبضة المهلك بالليل ؛ وما أفسى الهجوم الذى سوف تلوهم به الآلهة . ويوم ينفر الأب من ابنه والابن من أبيه ، والضعيف من ضيفه ، والصاحب من صاحبه ،

ولا يشد الأخ إزر أخيه كسابق عهده . وسرعان ما يشيخ الوالدان وتقل قدرتهما ،
 إذ ينهرم بنوم ويقرعونهم بغليظ الكلم . بؤساء من لا يعرفون انتقادات الآلهة !
 مثل هؤلاء ما كانوا يردون جيل أبائهم لسابق أطعماهم . إذ الرجل المستقيم أو
 الصالح والذي يحفظ عهده لن يجد لقاء حسناً ، إذ إنهم يكرمونه الخطي والتعجرف
 الوقح . سوف يكون الحق في القوة وتذهب الرحمة من الوجود . وسوف يفعل
 الشرير أقصى ما يمكنه من أذى وبكلمات ملتوية يتوجها بأغلظ القسم . وسائر
 بني الإنسان المهموم سوف يجدون من يعينهم على خصامهم - وبصوت لارفي
 فيه ووجه كربه يلذله الشر .

ثم ، في خاتمة المطاف ، سوف تذهب تلك الأرواح في طريقها إلى أوليمبوس ،
 الأرض ذات المناكب الفسيحة ، وقد ستر وجوههم الجميلة لباس أبيض ، لتنضم
 إلى مصاف الآلهة الخالدة ، غلظة وراءها البشر - حتى أرواح الرحمة والقصاص .
 إن الألم والحزن من نصيب البشر ، حيث لا دفاع أمام يوم الصوء .

عمل

(سوفوكليس الأثيني ٤٩٥/٤٩٤ - ٤٠٥/٤٠٦ ق . م . نص كبردج
 تحقيق ر . ك . جيب R. C. Gebb أنتيجونا Antigonal أيات ٣٣٢-٣٧٥)

كثيرة تلك المعجائب ، ولكن ليس أغرب
 وأشد وطأة ، من ابن الإنسان
 فهو يطوف على بحر متقلب
 ويرسم خطته من رياح الشتاء
 وحول مسيره تنبسط الأعماق
 ويتكاثف الغمام ، إلا أنه يسير بوضوح
 آه ، إن الأرض علية ، والأرض عجوز
 وهي أم الآلهة ، ولكنه يروضها
 ذهاباً وجيئة مم مواكب الحث

عزق الأرض عاماً بعد عام .
خفيفة تلك الطيور ، ونسرع بأجنحتها
إلا أن يده تموطها وتجذبها إلى أسفل
إنه يأسر فصائل حيوانات الغابات البرية
والذين يمومون في البحار الملحة يندفون ويتأججون
ويلقى بشباك نسجه بعيداً
ويدور فكره في وسطها
حتى تسود أدواته سائر الوحوش
حيث تشرب الخيول من البركة المهجورة
ويهتز عرقه بمحنا عن الخلاص
والكتف الذي لا يتعب لمجمل الجبل
لقد علمه الحديث والفكر السريع
والطبع الذي بنى جدار المدينة
حتى أقواس الشتاء أطلقها إلى لاشيء
والثلج الذي لا ينفو والمطر يهطل دائماً
إنه مسلح وغير مسلح
يواجه الخطر في تجواله
نعم ، إن مهنته تهدي طباع كل وحش ثائر
ويتطلب على كل شيء ماعدا الموت
لقد خطرت مهنة آلاته له في الحلم
في سرعة إلى هدف الخير أو الشر
وأمسك واحد بقانون المدينة الساي

وقسم الله في أعماق روحه
لنا الدن المالية ، والآخر لامدن له
الذى يكده ، ويمسك بالعدم
على الطريق الممنوع . أخف منه
النار المريحة وضوء الفكر .

(دجلبرت زى)

عجلة الوجود

(أفلاطون الأثيني ٤٢٧ - ٣٤٧/٣٤٨ ق . م - مجموعة الأعمال نص
أ كسفورد تحقيق . ج . بيرن Burnet . المجلد الأول . . السياسة ص ٢٦٩
و ٤ - ١٢٧٠ - ٢٧١ و ٤ - ٢٧٢ - ١ - ٢٧٢ د ٦ - ٢٧٣ ٤ ، ٢٧٤
ب - د) .

شخصيات التمثيلية : الغريب وسقراط الصغير

الغريب : ها هي الحكاية . إن هذا الكون يسيره الرب في طريقه أحيانا
ويوجهه في مداره ، بينما في أحيان أخرى ، عندما تصل دورات زمانه المئين إلى
تمامها ، فإنه يفلت من قبضة الله ويبدأ في الدوران في اتجاه مضاد من تلقاء نفسه
(وهذا ممكن حدوثه لأنه مخلوق حي وربه الكائن الذى أنشأه في الأصل الذكاء)
إن الميل تجاه هذه الحركة المضادة ميل فطرى لا محالة في الكون . . بموجب البداية
الذى يقضى بأن له قوامه الدائى وهويته الخاصة وهى خواص مقصورة على نظام
الوجود الإلهى ، والمادة التى لاتتصل به بحكم طبيعتها . وإن ما نسميه بالسموات
والأرض قد اختصها موجدنا بنعم كثيرة ، إلا أن هذه البركات لاتشتمل على
حرية ذات جوهر مادية .

ولهذا السبب فمن المستحيل على الكون أن يستثنى دائماً من التغير ، على رغم
أنه يفضل أقصى ما يمكنه في حدود قدراته على أن يتحرك بإيقاع دائم وغير متغير

في المكان نفسه ؟ وعلى هذا سمح له (عندما يتغير) أن يدور في الاتجاه المضاد .
 على اعتبار أنه أقل انحراف ممكن عن حركته الصحيحة . وأياً ما كان الأمر ،
 فإن الدوران الذاتي الدائم ، فوق طاقة كل كائن فيما عدا الكائن الذي يحرك به
 كل الأشياء ويسيرها . وأحياناً يكون هذا الكائن محروماً من تحريكها في اتجاه
 واحد وأحياناً في اتجاه مضاد . وينتج عن هذه المقدمات المختلفة أن الأرض لا تدور
 هي ذاتها دائماً ولا تتحرك تماماً ودواماً من جانب الله في دورتين متضادتين ،
 وكذلك فليس هناك إلهان يديران الأرض لأغراض متضاربة ، ولكنها تسير
 (كما بينا وهو البديل الوحيد الباقي) في بعض الأحيان بفعل سبب إلهي خارج
 عنها ، وتتلقى في أطواره لسة من الحيوية وتجديد للخلود من خالقها ، بينما في
 أوقات أخرى تفلت من التحكم وتتحرك من تلقاء ذاتها . وهي تتحرر عند نقطة
 تمكنها من أن تمر خلال مئات الألوف من الدورات المتضادة — وعمل باهر أمكن
 تحقيقه من الحجم الدقيق للقاعدة التي يتحرك عليها جرمها الهائل على توازن دقيق .
 سقراط الصغير : أخبرني عن الحياة التي تمزوها إلى حكم « كرونوس » . في
 أي من الحقتين نفع ؟ إذ إنه من الواضح طبعاً أن التغيرات في مسار النجوم
 والشمس تحدث في كلتا الحقتين .

الغريب : لقد تابمت حاجتي بشكل يدعو للإعجاب ؛ إلا أن التوالد التلقائي
 لكل الأشياء لفائدة الإنسان ، تعني ما تسألني عنه ، هي غريبة تماماً على الحركة
 السائدة الآن ، وهي إحدى ظواهر الفترة السابقة . ففي الفترة السابقة كانت الحركة
 الدائرية نفسها ، بالدرجة الأولى ، كانت تخضع لإشراف الله ، وهذا الموضوع
 للإشراف نفسه قد نتج محلياً عن تفويض كافة أجزاء الكون للإلهة التحكمة الأخرى
 وكذلك فإن المخلوقات الحية ، حسب أنواعها ، قد أخذتها الأرواح الإلهية بعين
 الاعتبار ، وكان كل من هؤلاء الرعاة الطيبين ، جديراً بأن يعني بالمخلوقات التي
 تحت رعايته الخاصة ، وعلى هذا ليس هناك استرقاق أو ميزة لأحد على آخر ،
 وليست هناك حروب فيما بينها على الإطلاق . والتسمات الأخرى لهذا التقسيم
 أكثر من أن تحصى ، إلا أن مسار القصة بين الجنس البشري فيما يتعلق بالإنتاج

التلقائى لوسائل المعيشة قد نشأ للسبب التالى . إن الله ذاته ، فى ذلك الوقت ، رعى الجنس البشرى وراقبه ، كما يفعل الإنسان الآن ، الذى يتشبه بالله ، بين زملائه من المخلوقات ، ويعمل راعياً للأجناس الأخرى التى هى أدنى منه فى الدرجة . وعندما كان الله راعياً ، لم تكن هناك دولة ولا مال لك للنساء والأطفال . إذ جاءت كافة الكائنات البشرية مرة أخرى من الأرض ، دون أن تسترجع خبراتها السابقة مرة أخرى . ولم تكن سائر ظروف الحياة موجودة ، بينما استمتع البشر من جهة أخرى بنهار ، دون أن تكون هناك أشجار ونباتات أخرى ولم تكن هذه نتاج زراعة ، وإنما نبتت تلقائياً من الأرض ذاتها . وقد عسكروا أغلب الأزمنة فى المراء دون ملابس أو فراش ، وكان المناخ لطيفاً فلم يسبب لهم إصابات ، ووجدوا مئوى طرياً فى الحشائش التى أنبتتها الأرض كيفما اتفق .

وأياً ما كان الأمر ، فإنه عندما اكتملت فترة التجزئة وكان من الضروري أن يحدث تغير ، أو بعبارة أخرى ، عندما أستنفذ كل نتاج الأرض ، لأن كل نفس قد آتت قصة مولدها وغرست فى الأرض عدد المرات المفروضة على كل منها ، عندئذ أهمل القائم على إدارة دفة الكون التحكم فيها وانصرف إلى موقف المتفرج وترك العالم يتحرك فى الاتجاه المضاد بفعل القدر والرغبة الكامنة . ومنذ ذلك الحين والآلهة المحلية التى شاركت الروح العظيم فى المسئولية تأكدت مما كان يحدث وأهملت على التوالى الإشراف على هذه الأجزاء من الكون التى كانت تحت رعايتها المباشرة . وبمسد أن قلب الكون حركته ، عرف هزة أحدثتها قوة جسمين متحركين فى اتجاه متما كس ، وكانا يبدآن وينتهيان فى وقت واحد . لقد هزته بركة عميقة فى باطنه وأحدثت خراباً جديداً بين كل أجناس المخلوقات الحية . وبعد ذلك ، بدأ الكون باتقضاء الزمن ، يخرج من هذه الجلبة والاضطراب ليحصل على فترة راحة من هذه العواصف الزلزالية ، وأن يستقر فى رتبته المعتادة ، والتى مارس فيها إشرافه وسلطته ، على نفسه وعلى كل شئ هناك ، واتباع تعليمات خالقه وأبيه وعلى أفضل وجه يتذكرها به . وقد مارس وظائفه فى البداية بشكل دقيق نسبياً ، وبعدئذ بخشونة متزايدة . كلما اقتربت من الطور الأخير وكان سبب هذا التحلل المنصر المادى فى تركيبه ، والذى كان واحداً

من جواهر طبيعته وفي حالة فوضى تامة ، قبل أن يفرض عليه النظام الراهن للكون . ولقد وهبه الذى سواء صفات طيبة . ومن جهة أخرى أودث نفسه من الحالة السابقة وأوجد في مخلوقاته الحية كل ما هو شر وغير مستقيم . وطالما كان الكون يستمتع بتعاون مدير الدفة في تغذية مخلوقاته الحية ، فقد زرع فيهم نقائص تافهة فقط مع استملاء بالخير ، وعندما يرحل في محبته ، فإنه يقوم بوظيفته خير قيام خلال الطور الذى أفلتت من تحكمه . وأياما كان الأمر ، فيغزوها النسيان ، بمضى الزمن ، وتبدأ علة عدم تناسقه الأصيل في اكتساب اليد الطولى حتى ينفجر بشكل صريح في الطور الأخير . وعندئذ يخلق الكون في تركيبه فقط عنصراً طفيفاً من الخير ومزيجاً كبيراً من الشر حتى إنه يصبح في خطر أن يطوى نفسه وكل الأشياء فيه في دمار شامل . وعلى هذا ، فإن الله الذى نظمته في الأصل ، يدرك عند هذا الحد ، العثرات التى تردى فيها الكون — وخشية أن ينفجر تحت ضغط الضربات الوحشية للاضطراب وقد يستقر في هاوية لا يدرك غورها حيث كل الأشياء لاقية لها فباشرة مرة أخرى تحكمه في دفة الأمور ، وحول الميول تجاه المرض والتحلل التى ظهرت في الفترة السابقة عندما ترك الكون يتولى أمور نفسه ، ونظمه وصحح الخطأ ووهب العالم الخلود والشباب الدائم . . .

وقد وصلنا الآن إلى الهدف الذى تسعى إليه قصتي منذ البداية . وسوف أنخطئ الحيوانات ، لأنها تستغرق منى الكثير في إحصائها وعدّها بسبب تنقلاتها وسوف أقصر على الإنسان ، الذى يمكن أن تكون حالته واضحة بإيجاز وأكثر ملاءمة للموضوع . وعندما حرم الجنس البشرى من عناية الروح الذى كان راعيها فإن غالبية الحيوانات الوحشية التى كانت كذلك بطبيعتها تحولت إلى أصلها ، بينما أصبح الإنسان ضعيفاً ولا حول له ونتيجة لهذا روعته الحيوانات الوحشية ، وكان في الطور الأول مجرداً من الأدوات والموارد ، طالما كان مورد طعامه التلقائى قد فشل في أن يزود نفسه ، قبل أن يتعلم تحت ضغط الحاجة . ولجميع هذه الأسباب ، وجد الإنسان نفسه في مأزق مروع ، وهذا هو أصل كل الهبات الأسطورية للآلهة

والتي قدمت إلينا ، معاً مع تعليم وتدريب لازمين لاستخدامها — فالنار من « بروميثيوس » Prometheus والفنون والحرب من « هيفايستوس » Hephaestus وزوجته والبذور والنباتات من أصحاب فضل آخرين . وكل حجر في أساس الحياة الإنسانية قد نحت من عجره . إن الحراسة (التي ذكرت من قبل) والتي وضعتها الآلهة على الإنسان قد فشلت الآن على حين غرة ، وكان عليه أن يعيش بمجهوده الذاتية وأن يحرس نفسه ، تماماً كالكون جميعه ، الذي قلده وتبع خطاه في أطوار حياتنا ونغونا التبدلة .

دورات الحضارة

(أفلاطون : مجموعة الأعمال ، نص اكسفورد ، المجلد الرابع : تيبايوس
Timaeus من ٢١ - ٢٣ د)

كريتياس يتحدث :

في الدلتا المصرية ، وحول الرأس التي يتفرع عندها مجرى النيل ، هناك إقليم يطلق عليه (سايس) Sais ، وله عاصمة إقليمية تحمل الاسم نفسه ^(١) . وشعب هذه المدينة له ربة تحميه واسمها في اللغة المصرية « نيث » Neith — وهي تقابل فيما يجزمون ، الربة الهلينية أثينا . ويزعّم أهل سايس بشدة أن لهم أصلاً أثينياً ، وإلى حد ما فهم ينتمون خاصة إلى الأمة الأثينية . وقد رحل « سولون » (حسب روايته هو) إلى سايس وقوبل هناك بتكريم ممتاز . وإبان إقامته وافته فرصة استشارة الخبراء البرزين بين الكهنة حول التاريخ القديم ، واكتشف أنه هو نفسه وزملاء الهلنيين في حالة يجهلون فيها الموضوع تماماً . وفي إحدى المناسبات فكر أن يقوم إلى مناقشة حول التاريخ القديم وذلك بمرض أكثر روايات هيلاس قديماً والتي تتعلق بما يطلق عليه « فلروينيوس » Pharoeneus و« نيوب » Niobe الأول ، وعندما وصل إلى مرحلة ما قبل الطوفان ؛ قص التاريخ الأسطوري ل « دو كاليون » Deucalion و« بيرها » Pyrrha فسر دأنساب سلالته وحاول

(١) موطن الملك أمازيس . (المؤلف) .

أن يوجد أساساً تنوعية لتأريخ الأحداث في قصته . وقد استخلص الكلمات التالية من كاهن طاعن في السن من بين محدثي سولون : « سولون ، سولون ! انتم معشر الهلينيين أطفال دائماً . لا يوجد شيء ما يعرف بالهليينيين القدامى » . فأضاف سولون « ماذا تعنى ؟ » فاستطرد الكاهن المجوز « إنكم جميعاً صغار العقول . ليس في أذهانكم تراث قديم ولا معرفة تشيخ مع العمر . وثمة سبب لهذا ، سوف أوضحه . فقد حلت سلسلة من المصائب في أشكال مختلفة ، وسوف يستمر حدوثها ، والجنس البشرى ، أعظم كائن تأثر بفعل النار والماء ، بينما الكائنات الأخرى ، التي هي أقل عنفاً ، قد وجدت بفعل أسباب مختلفة لانهاية لها . وثمة رواية لديكم في هيلاس وهي أن « فايثون » Phaethon ، ابن الشمس ، حدث أن أعد ذات مرة عربة والده وأثبت أنه غير كفؤ لقيادتها بأسلوب والده . فأحرق كل شيء على وجه الأرض قبل أن ينتهى مصيره إلى الأبد بواسطة الصاعقة . وعلى الرغم من أن هذا التراث يروى بشكل أسطوري ، فإنه يحفظ الحقيقة العلمية التي تقضى بأن مدة طويلة من الزمن ، حدث فيها انحطاط في مدار الأجرام السماوية التي تدور حول الأرض وأن كارثة لحقت بالحياة في هذا الكوكب في صورة احتراق هائل . وعند هذا الحد فإن سكان الأقاليم ذات التضاريس الجبلية ، دفعوا عتياً أثقل من سكان المناطق النهرية أو البحرية ، وفي هذه المناسبات فقد أفتقدنا النيل في مصر ، تخلصنا الوبى ، من حالة عصبية هو محصن منها . وهناك مناسبات أخرى طهر الآلهة فيها الأرض بطوفان من المياه ، وبقي الرعاة في هذه الظروف على الجبال ، بينما اكتسحت الأنهار سكان مدنكم في هيلاس إلى البحار . وإما كان الأمر ، فإن الماء لم يهبط أبداً ، في مصر على الحقول من فوق — ليس هذا في فترات الطوفان هذه فقط — وإنما ارتفع من أسفل بقانون [الطبيعة] الذي لا يتغير . وهكذا ، فإن التراث المحفوظ في مصر ، للأسباب السابقة ، هو أقدم تراث في العالم ، والحقيقة العلمية أنه في كل مكان لا توجد فيه درجات متطرفة من الحرارة والبرودة ، فإن السكان البشر يمرضون لزيادة وهبوط موسمين . وهناك أحداث مجيدة . أو هامة أو على درجة مرموقة في تاريخ هيلاس أو مصر ذاتها أو

في أى منطقة أخرى في نطاق معرفتنا ، قد سجلت وحفظت هنا في مصر منذ اللامنى السحيق . ومن جهة أخرى ، فإن المجتمع الإنسانى في هيلاس أو أى مكان آخر قد وصل دائماً إلى حد إعداد نفسه بسجلات مكتوبة ومتطلبات الحضارة الأخرى عندما تهبط المياه ، بعد الفترة المنتظمة ، التي كانت أعلى الجو ، تهبط عليك وكأها مرض دافق وهي تسمح فقط لعناصر غير التملين والمتقين من مجتمعتنا أن تظل على قيد الحياة ، وينتج عن ذلك أن نصبح كالأطفال الصغار ونبدأ مرة أخرى من البداية دون معرفة للتاريخ القديم في مصر أو في عالمكم . دعنى أخبرك ، ياسيدى أن الأنساب التي أوردتها في روايتك عن ماضيكم الهليني إنما لا تكاد تصل إلى مستوى حكايات الأطفال . وبالدرجة الأولى ، فقد احتفظت فقط بذكر طوفان واحد في سلسلة طويلة ، وبالدرجة الثانية ، فأت تجهل حقيقة أن بلادكم كانت موطن الجنس النبيل السامى والذي تتمثل فيه (المبقرية الإنسانية) . وأنت نفسك وأمتك كلها قد ترعم أن هذا العنصر بعد أن أصبح جزءاً من المجموع الذى بقى على قيد الحياة بعد كارثة مبكرة ، ترعمون أنه أسلافكم ، إلا أنك تجهل هذا ، حسب حقيقة مؤداها أنه لعدة أجيال متعاقبة كثيرة ، فإن الذين بقوا على قيد الحياة عاشوا وماتوا أميين . »

تتابع التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الثالث . الفصول ٣١ - ٣٢) .

ما من شك في أن هناك بعض المعجبين غير الناقدين سوف يشعرون أننى مضيت في تفاصيل غير ضرورية في مناقشة أصول الحرب الهانيبالية . وسوف يكون ردى أنه إذا ما افترض أى ناقد في نفسه أنه أهل لتناول أى موقف دون معونة ، فإن معرفة السلف في تلك الحالة ، قد لا تكون ضرورة وإن ظلت مثلاً مقبولا . وأياً ما كان الأمر ، فإذا ما أحجم أى كائن بشرى عن ربط هذه الدعوة بشأن ما من الشئون ، سواء كان خاصاً أو عاماً ، واعياً بأنه إذا ما كان ناجحاً نجاحاً مؤقتاً ، فلا يسع أى شخص معقول أن يكون له العذر في أن يتخذ الظروف الراهنة كأسس

لما يتوقفه في المستقبل - وإذا ما كانت هذه هي الوقائع الحقيقية ، عندئذ أؤكد أن الإلزام بالماضي ليس مثالا مقبولا. وإنما ضرورة مطلقة . كيف تسيء لأى واحد إنتهكت حقوقه الشخصية أو حقوق بلاده أن يجد أبطالا أو حلفاء ، أو كيف يقسى لأى أحد كان يتوق إلى أن يؤمن هدفاً أو يتوقع منافساً يشجع معاونيه ، أن يشرع في العمل ؟ وكذلك ، في حالة الاكتفاء بالأهداف موضع النظر كيف يكون له - العذر في استئثار أولئك الذين كان يدرج جهودهم لتأييد سياسته الخاصة ولتأمين نتائجها ، وعلى أية حال ، إذا لم يعرف شيئاً من السجل السابق عن الأفراد الذين يشتمل عليهم ؟ ومن الطبيعي أن يوائم كل واحد عباراته وأمثاله من المواقف التي تواجهه ويقوم بالدور المناسب بمهارة تكفي لجعل سياسة الفرد العين ، من الصعب التنبؤ بها ، وتحقق الحقيقة في عدد مرعب من الحالات . وأياً ما كان الأمر فإن أفعال الماضي ، توضع موضع الاختبار خلال الأحداث العملية ، وعلى هذا تلقى ضوءاً حقيقياً على أهداف الأفراد ومواقفهم ، وتكشف في بعضها عن وجود إرادة الخير ، والنوايا الطيبة والمساعدة العملية من وجهة نظرنا ، وإجراءات عكسية في الأخرى . ومن الممكن دائماً ، أن نكتشف ، من أمثلة كهذه ، من يتحافظ مع مأسفنا وأشجاننا ، ومن سوف يزكي لنا - إمكانيات تضاف بشكل متناظم إلى موارد الحياة الإنسانية في كل من الشؤون العامة والخاصة . ولهذا السبب ، فإن كتب التاريخ وقراءه ينبغي عليهم أن يركزوا اهتماماً أقل على الرواية الركيكة للإجراءات أكثر من الملابس التي تسبق وتصاحب وتعقب أى عمل آخر . فإذا ما استخلصت من التاريخ (لماذا) و (كيف) و (لذلك) من العمل المعين والانتباه العقلي أو تأمل نتيجته ، فإن ما تبقى من حالاته يكون علماً أو يصبح عملاً من أعمال البطولة ، من شأنه أن يقدم متعة مؤقتة ، إلا أنه بلا فائدة على أية حال للبحث في المستقبل .

وهذا يعني أن هؤلاء الذين يعتبرون أن عمل سبب الإدراك وعسير القراءة بسبب عدد مجلداته وحجمها ، فإنهم يقومون في مفهوم خاطئ . ومن السهل بشكل كبير أن ندركه ونقرأه من الغلاف إلى الغلاف ، على نطاق أربعين مجلداً مجمعة و .

جزء واحد وأن نتابع بوضوح إجراءات إيطاليا ، وسقلية ، وشمال أفريقيا منذ فترة « بيرهوس » Pyrrhus حتى سقوط (قرطاجنه) Carthage ، وأعمال بقية العالم منذ هروب « كليومينيس » Cleomenes ملك اسبرطة ، دون انتطاع حتى المعركة بين الرومانيين والآخيين عند برزخ كورثا ، هذا أيسر من أن ندرك مؤلفات الإخصائيين ونقرأها . وبمغزل عن حقيقة أنهم كانوا لمدة مرات أكثر ضخامة من سجلي ، من المستحيل فعلا على القراء أن يخرجوا منها بأية معلومات معينة - أولا ، لأن غالبية هؤلاء الكتاب يقدمون أقوالا مفارية عن أحداث بذاتها ، وثانياً لأنهم يهتمون الأعمال المعاصرة في مجالات أخرى ، على الرغم من أن النهج المقارن للدراسة والتحليل يتغير في بحث كافة تفاصيله كلما قورنت بالنتائج التي يحصل عليها بمنهج التفصيل إلى أبواب - وسبب آخر هو أنهم غير أكفاء لتناول المسائل الرئيسية . لأن العناصر الجوهرية في التاريخ ، كما قلت ، نتائج ولوازم للمقل وفضلا عن ذلك هي أسبابها . إننا نلاحظ أن حرب « أنتيوخس » Antiochus قد نشأت من حرب فليب ، وحرب فليب من حرب هانيال ، والحرب الهانيالية من الحرب الصقلية ، بينما الأحداث التي تتخللها عديدة ومتشابكة على الرغم من مظاهرها المختلفة ، وهي جميعاً تتجه إلى الموضوع الرئيسي نفسه . ويمكن تعلم هذه الحقائق وإدراكها من كتاب التاريخ العام ، وليس من هؤلاء الذين يكتبون تاريخ حروب خاصة ، مثل حروب (برسيوس) Perseus أو حرب فليب منفردة ما لم يتصور أي واحد ، في كتابة حكايات المعارك المجردة أنه اكتسب أيضاً من أعمال هؤلاء الكتاب مفهوماً واضحاً من مورفولوجيا الحرب ككل . وأياً ما كان الأمر فإن هذا يعد هלוسة كامئة ، وإنني أدرك أن تاريخي يختلف عن أعمال المتخصصين بشكل عميق اختلاف ما يعلّمه العقل عما تسمعه الأذن .

شمول التاريخ

(بوليبوس . الكتاب الخامس . الفصول ٣١ - ٣٣)

لقد أوضحت ، فيما أعتقد ، أنني تكفلت بأن أسجل ، لا مجموعة معينة من لأحداث وإنما ما حدث على نطاق العالم ، وأكاد أبالغ فأقول إننى قد أعددت عمل التاريخى على نطاق أوسع وأكثر من أى ممن سبقونى . وإنه من واجبى أن أبذل أقصى ما يمكن من تبصر حول تناولى وتريتى ، كما يأتى تأليف واضح لعملى فى كل من خطوطه العريضة أو تفصيلاته . وعندما أعسود الآن إلى ممالك « أنتيوخس » و « بطليموس » سوف أرجع إلى مسافة قصيرة محاولاً أن أجد نقطة بدء معروفة ومألوفة للقصة التى أنا بصدد تقديمها . وهى محاولة تعتبر أكثر واجباً من ضرورة كزورخ . ويقولون فى أمثلتهم « إن نقطة البدء هى نصف العمل » وأوصى القدماء ببذل أقصى انتباه لإنجاز بداية طيبة فى أى حالة معينة ، وأن ما يمتدرونه بدورهم ، أنه رواية مبالغ فيها ، فى رأى قصور عن الحق . وينبئنى أن تؤكد باطمئنان أن نقطة البدء ليست (نصف الكل) ولكنها تمضى قدماً إلى النهاية ومن المستحيل عاماً أن تقيم بداية طيبة فى أى شيء بدون ، أن تتوقع سلفاً ، الإحاطة الذهنية بتكملة الشروع أو التأكد من جوهر وغرض الشروع وسببه . وإنه من المستحيل أيضاً أن نوجز بشكل مناسب ، فى العملية — أى مسار أحداث معينة — دون الإشارة إلى نقطة البدء وبيان أين وكيف ولماذا تؤدى هذه الإجراءات العقلية فى الوقت المين ، وينبئنى أن تعتبر نقطة البدء بالتالى على أنها لا تمتد إلى مجرد الوسط فحسب وإنما تمتد إلى النهاية ، ونتيجة لذلك ، ينبئنى أن يولى أكبر اهتمام إلى نقط البدء سواء من كتاب أو قراء التاريخ الكونى . وأنا لست غافلاً بالطبع ، عن أن عدداً لا بأس به من الكتاب التاريخيين قد تقدموا بالنفمة نفسها كما فعلت أنا ، وقبلت ، شأتى ، شأن كتاب التاريخ الكونى ، أن أحاول تناول عمل على مدى أكبر من أى عمل سابق . وأنا شخصياً سوف أتوق إلى تسامح « ايفوروس » Ephorus (المؤرخ الأول والوحيد الذى حاول أن يكتب

بأصالة على ضلّاق عالى) . إلا أننى سوف أرفض بحزم متابعة الموضوع أو ذكر
 أى « من الدعين الآخرين بأسمائهم ، وسوف أترجم بإشارة إلى أن بعض الكتاب
 المعاصرين ، يطالبون — بسبب قيامهم بوصف الحرب الرومانية القرطاجينية في
 ثلاثة أعمدة أو أربعة — بلقب المؤرخين العالمين . والآن ، ليس من أحمق يحمل
 — بدرجة ينقل منها — ما حدث في تلك الفترة من عدد كبير من العمليات ذات الأهمية
 القصوى في أسبانيا وشمال أفريقيا وبالمثل في صقلية وإيطاليا ، وأن الحرب الهانيالية
 أكثر شهرة وأطول أمداً من أية حرب حدثت من قبل ، فيما عدا ما يتعلق بالحرب
 الصقلية^(١) ، وقد اضطرنا اتساع أبعادها جميعاً إلى أن نركز انتباهنا عليها . وعلى
 الرغم من هذا ، هناك كتاب تكون مراجعهم أقصر كثيراً من تدوينات تلك
 السجلات الرسمية المدونة في أماكن عامة بنظام تقويمى وشكل جدولى ، والتي
 تؤكد بعد ذلك أنها تتضمن في عرفها كافة إجراءات البسام الهليني وغير الهليني
 والسبب هو أنه من اليسير تماماً أن تقيم دعوى شفهية إلى كافة الأعمال المفروضة
 ولكن ليس من اليسير في التطبيق أن تنجز أى شيء يستحق الإنجاز . إن التهجرف
 مادة شائعة وهي دائماً من أعمال كل إنسان لا يملك سوى ادعاء الواقعة ، بينما
 النادر جداً هو بلوغ الشيء عملياً ، وهذا نجده عند أفراد معدودين في الحياة العملية
 لقد دفعت إلى عمل مثل هذه الملاحظات بفعل أضاليل الكتاب الذين يضحون
 أنفسهم ويضحون ما يكتبونه ، إلا أننى سوف أعود الآن إلى نقطة بدء الأحداث
 التي أقترح هنا تسجيلها .

وحدة التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الثامن . الفصل الثانى)

إننى أعبط نفسى لأن التسجيل القلبي للواقع قد أثبت الآن صدق نبأ أكدته
 مراراً في مستهل عملى . وهذا المبدأ هو أنه من المستحيل أن تدرك المقالات ذات

(١) مثلاً ... الحرب البونية الأولى (المعلق) .

الموضوع الواحد للإخصائيين التاريخيين وأن ندرك وجهة نظر عن مورفولوجيا التاريخ العالمي . وعند قراءة رواية جامدة ومعزولة من أعمال سقلية وأسبانيا ، فن المستحيل جداً أن نتحقق أو ندرك ضخامة الأحداث محل البحث أو وحدتها ، وأعني بها الوسائل والأنظمة التي أفاد منها التاريخ حتى يكمل ما كان أكثر أعماله شذوذاً في جيلنا . وهذه التهمة ليست سوى إيقاع سائر العالم المعروف تحت نير إمبراطورية واحدة - وهي ظاهرة ليس لها مثيل من قبل في التاريخ المسجل . ويمكن إدراك معرفة محددة عن العمليات التي استولت بها روما على سيراكوز وهزمت بها أسبانيا ، دون شك ، من كتابات الإخصائيين ، إلا أنه من العسير بدون دراسة التاريخ العالمي ، أن ندرك كيف بلغت روما التفوق الشامل ، وأية أحداث محلية وخاصة عاقبتها عن تنفيذ مشروعاتها العامة ، وكذلك ، ماهي الأحداث والأزمات التي تعزى إلى نجاحها . لأنه من السهل على أية حال للأسباب ذاتها ، أن ندرك عظمة جهود روما أو قوة أنظمتها . ولا يسدو نزاع روما لما تستحوذ عليه أسبانيا وسقلية أيضاً ، ومباشرتها حملات إلى كلا المنصرين ، لا يبدو أنها مسألة ذات شأن إذا ما نظر على حدة . وهذا يحدث فقط عندما نأخذ في اعتبارنا أن الحكومة نفسها ومجموعة الدول توجد نتائج في مجالات أخرى متباينة بذات الوقت مع مباشرة هذه العمليات ، وعندما ندخل في المرض ذاته الأزمات الداخلية وأنواع التضال التي تمرقل أولئك المسئولين عن كافة أنواع النشاط المذكورة آنفاً بشكل موسع ، وهو أن الخواص الواضحة للأحداث تتضح جيداً وتولى الانتباه الذي تستحقه . وهذا هو ردى على أولئك الذين يتصورون أن عمل المختصين سوف يدخلهم زمرة التاريخ العالمي والشامل .

القسم الرابع

القانون والتعليل

الحمية

(هيدروت : متفرقات)

١ - كان على الشر أن يلحق بـ « كاندولس » Candaules ، وعلى هذا لم يمض وقت طويل .. (الكتاب الأول . فصل ٨) .

٢ - كان الشر على وشك ، أيأ ما كان الأمر ، أن يحلب (سكيليس) Scyle ، وبالتالي أفاد من الفرصة التالية .. (الكتاب الرابع ، فصل ٧٩)

٣ - ولم يكن مقدراً أن تدمر هذه الحملة ناكسوس Naxos . وعلى هذا وقعت الحادثة التالية ... (الكتاب الخامس ، الفصل ٣٣)

٤ - كان على (كورتا) أن تجني محصول الشر من بذور « اتيون » ، لأن ... (الكتاب الخامس ؛ الفصل ٩٢) .

٥ - كان لابد وأن تكشف هذه القصة بشكل واضح حتى يحرم « داماراتوس » Damaratus من عرشه ... (الكتاب السادس ، الفصل ٦٤)

٦ - وسوف لا تسمح راعية معبد دلفي بعقاب « تيمو » Timo وأعلنت أنها غير مسئولة ، إلا أن « ميليتادس » Miltiades أتى إلى نهاية سيئة ، وقد تميز أن يسوق قدميه إلى طريق الدمار .. (الكتاب السادس . الفصل ١٣٥)

٧ - من « كيركيس » إلى « ارتابانوس »
« من المستحيل على أي فريق أن يخلص نفسه ، ووضعت قوائم المتصرين والضحايا ، كي تقع كل أملاكنا إلى الهلنيين أو الفرس . وفي هذا الشأن لا يمكن أن تكون هناك مساومة .. (الكتاب السابع الفصل ١١) .

٨ - ارتابانوس .. وقد ارتدى ملابس كسر كسيس ، وجلس على العرش الملكي وبعد ذلك ذهب لينام ، حيث ظهر له وقتئذ في نومه الحلم نفسه الذي راود كسر كسيس كثيراً . وخيم الطيف على ارتابانوس وقال : « هل أنت الرجل الذي يشطه كسر كسيس من اللحاق بالحلة ضد هيلاس ، على غير مصالحه . إنني أحذرك بأنك سوف لاتكون ملزماً بمحاولة تغيير ماهو كائن ، سواء مباشرة أو بعد ذلك . أما بالنسبة لكسر كسيس ، فإن العقوبة التي تعرض لها من جراء عصيان ما كشف له شخصياً » وفي تنفيذ هذه التهديدات الشفوية ، طهر الطيف إلى ارتابانوس حتى يكون على استعداد أن يكوى عينيه بالحديد الساخن ، عندما رحل بصرخة شديدة .٠٠ (الكتاب السابع ، الفصول ١٧ - ١٨)

٩ - وعندما تحيروا ، اكتشف الشرقيون وسائل انتحام القلعة ، لأن البنية أخبرتهم أن كل أرض أتیکا الأصلية ، سقطت في قبضة الفرس (الكتاب الثامن الفصل ٥٣)

١٠ - وكان من المهم أن يحصل الشر بـ « ارتايانت » Artaynte وسائر بيته ، وبما لهذا أجاب كسر كسيس .٠٠ (الكتاب التاسع الفصل ١٠٩)

نذير

(هيرودوت : الكتاب السادس الفصل ٩٨)

وبعدئذ أبحر « داتيس » Datis بجملته إلى قبلته الأولى ، (ارتريا) Eretria . . . وبعد رحيله من (ديلوس) Delos . اهتزت الجزيرة بفعل زلزال -- وهي الحادثة الأولى والأخيرة حتى الآن ، كما يجزم السكان . ولعل هذا الحادث كان من علاقات الشؤم التي كشفها الله للبشر كنذير بالكوارث القادمة . وفي الأجيال الثلاثة التالية التي اشتمل عليها حكم « داريوس » بن « هستاسبس » Hystaspes ، وحكم « كسر كسيس » بن « داريوس » و « ارتا كسر كسيس » ابن « كسر كسيس » ، قاسى الهلينيون من أكبر عدد من الكوارث أكثر مما

حدث للأجيال الشريرة السابقة على « داربوس » — ووقع البعض في أيدي
 الفرس ووقع الآخرون في أيدي الدول الهلينية الرئيسية نفسها في نضالها من أجل
 السيادة. وعلى هذا، ليس هناك شيء شاذ في أن تهتز ديلوس بالزلازل بعد تسجيل
 سابق غير منقطع من الناعة.

القانون القدير

(هيرودوت : الكتاب الثالث ، الفصل ٣٨)

توضح لي كل الظروف أن « قميز » كان قد فقد عقله تماماً. وإلا فما كان
 يحاول على الإطلاق أن يضرب السخرية على عادات دينية كانت أودنيوية. ولو
 كان الجنس البشري كله قد أعطى مجالا حراً وتعلم اختيار أفضل القوانين من
 بين سائر قوانين الوجود لكان قد اختار قوانينه بعد تبصر مناسبت — وهو
 مقتنع بأنه لديه بالذات تفوق لاحدله. وعلى هذا فمن غير الموثوق به أن أي أحد
 لم يفقد عقله من شأنه أن يسر من مثل هذه الأنظمة. وتأكيدي هو أن كل الجنس
 البشري الذي يدرك هذا الاعتقاد فيما يتعلق بالقوانين قد يختلف بعدد من الأدلة، التي
 من بينها أقدم الأدلة التالية. عندما كان « داربوس » على العرش جمع في
 حضرته الهلنيين في بلاطه وسألمهم بأي ثمن يرضون بأن يبيدوا آباءهم عندما يموتون؟
 فأجاب الهلينيون بأن كل الفرد في العالم ليس من شأنها أن يرغبهم في مثل هذا
 العمل، وبعد هذا جمع « داربوس » الهنود الجلائيين الذين يأكلون آباءهم ،
 وسألمهم (في حضور الهلنيين ، الذين كانوا يحاطون علماء عن طريق مترجم) بأي
 ثمن يرغبون في حرق آباءهم عندما يموتون. فصرخ الهنود عالياً والتمسوا منه
 ألا يواصل هذا الموضوع الذي لا يمكن ذكره — وهي قصة توضح الموقف الطبيعي
 للجنس البشري إزاء هذه المسألة ، والتي ، في رأيي ، تثير حكمة « بنديار »
 Pinder الشعرية التي تقول إن « القانون سيد الجميع »

القانون الطبيعى

(مدرسة هيپوقراط القومى Hippocrates of Cos ٤٦٠/٤٥٩ - ٣٦٨ ق.م.)

ق.م.م. مجموعة الأعمال ، نص توبييز بتحقيق كيولهيلن Hr. Kuchlewein
المجلد الأول ص ٦٤ - ٦٦ = مؤثرات الجو والماء والموقع (الفصل ٢٢) .

ينسب الأهلون تمليل هذا المرض ^(١) إلى الله ، وهم ييجلون ضحاياهم ويميدونها خوفاً من أن يصرعهم هم أنفسهم . وأنا بالمثل ، أقول بأن هذه الظواهر مردها إلى الله ، ولكننى أتخذ النظرة ذاتها إزاء جميع الظواهر ولا أنظر إلى ظاهرة بعينها على أنها ربانية أو فوق الإنسان من أى ظاهرة أخرى . فجميعها ، فى نظرى واحدة وربانية ، إلا أن كل ظاهرة تخضع لقانونها الخاص ، والقوانين الطبيعية لا تعرف الاستثناء وسوف أشرع الآن فى شرح نظريتى عن هذا المرض . .

[بأن بمد ذلك تحليل علمى]

وضحايا هذا المرض ليسوا من طبقة (المرتحلة) الدنيا ، ولكنهم أعضاء أفضل الأسر التى توفر لها أقوى بنيان جسمى . وأصابهم المرض بسبب الركوب . والفقراء محصنون نسبياً لأنهم لا يركبون . وأياً كان الأمر ، فعلى أساس افتراض أن هذا المرض فى صورة ماريانى أكثر من غيره ، فإنه ينبغى ألا يهاجم بصفة خاصة خيرة (المرتحلين) نسباً وجسباً ، ولكن كل الطبقات سواء ، أو إذا كانت هناك فترقة ، لكان علينا أن نحدث ضد أولئك الذين لا يملكون سوى القليل - هذا إذا كانت الأبواب يسرها حقيقة أن تحظى بالتشريف والإعجاب من جانب الأثمين ويردون مثل هذه العناية بمعروف من لدنهم ولنفرض أن الأغنياء بما أوتوا من ثراء طائل هم الذين يقدمون الذبايح للأرباب دائماً ويؤدون مظاهر الولاء والتكريم ، فيما يختلف الفقراء عنهم فى هذا المجال ، بسبب ضيق ذات اليد أو

(١) يناقش المؤلف مرضاً خاصاً بالسكان الرحالة فى أقاليم الإستبس إلى شمال البحر الأسود . (المحقق) .

لثورة على الأدباب لأنهم منعموا عنهم خير الدنيا . وعلى هذا الأساس ظاهرياً
يتبنى أن يلقي أولئك الفقراء القصاص على مثل هذا التخلف أكثر من الأغنياء
وأياً ما كان الأمر ، ففي الحقيقة على نحو ما بينت سلفاً ، فإن هذه الظاهرة ربانية
فحسب بقدر ما تكون أى ظاهرة أخرى ، وكل ظاهرة تخضع للقانون الطبيعى .
البيئة والطبع

(هيرودوت : الكتاب التاسع الفصل ١٢٢)

« أرتابكتس » Artayctes هذا الشخص الذى أمات شهبواته كما بينت كان
له جد يدعى « ارتيمبارس » Artembares ، وكان أول من اقترح على زملائه
بنى وطنه الفرس الرأى الذى تبنيه وطرحوه أمام « قورش » Cyrus وهو على
الوجه التالى :

« الآن ، وقد أزل زيوس استياجس Astyages من كرسيه وفتح السيطرة
لك ولأمة الفرس ، يامولاي ، نسألك شخصياً ، لماذا لا يبنى أن نهاجر من
الإقليم المحصور والصخرى الذى نملكه حالياً ، ونحتل إقليماً أفضل ، هناك أقاليم
كثيرة قريبة وفى متناول اليد وكثير منها على بعد مسافة ، وما علينا إلا أن نختر
حتى نقيم نفوذاً على العالم أكبر مما عليه نفوذنا الآن . وهذه سياسة تنفق مع
شعب يسمى إلى التوسع ، ولن تكون لنا فرصة لتحقيق ذلك خيراً من الآن
عندما تقوم إمبراطوريتنا على سكان أوسع وعلى سائر قارة آسيا . »

أما « قورش » الذى استمع ولم يتأثر ، فأمر الذين طلبوا منه هذا أن يفعلوا
ما يترأى لهم ، إلا أنه شفع نصيحته بأن أحبرهم بذات الوقت أن يمدوا أذهانهم
للتغير المراكز مع رعاياهم الحاليين . وأخبرهم أن البلاد المستوية تربي رجالاً مسالين
بشكل ثابت ، ومن المستحيل على الفرد والبلد ذاته أن ينتج محاصيل جيدة ،
وجنوداً حقيقين . وسلم الفرس بذلك قورش المفرط ، واعترفوا بخطئهم ، وتنازلوا
عن اقتراحهم وآثروا أن يعيشوا كشعب امبريالى فى ملووعة عن أن يزرعوا الأراضى
الواطئة كما يفعل عبيد الأمم الأخرى .

البيئة والسياسة

(هيو كراتس : تأثير الجو والماء والموقع الفصل ١٦)

لقد ناقشنا الآن الاختلافات المصنوية والبنائية بين سكان آسيا وأوروبا ، إلا أننا مازلنا نضع في اعتبارنا المشكلة الخاصة بسبب كون الآسيويين أقل نزوعاً للحرب ، ولماذا يستكينون للظلم أكثر من الأوروبيين : إن النقص الملحوظ في روح سكان آسيا وشجاعتهم يعود بشكل رئيسي إلى التغير الموسمي في درجة حرارة تلك القارة ، التي هي ثابتة تقريباً على مدار السنة . ومناخ كهذا ليس من شأنه أن يوجد تلك الصدمات العقلية والتفسخ الجسدي الذي يجعل المزاج ضارياً من الناحية الطبيعية ويقدم تياراً أقوى من اللاعقلية والانعزال الذي لا يحدث في ظل ظروف مستقرة . إن التغيرات الثابتة تنبه عقل الإنسان وتمنعه من البقاء سلبياً : وهذه هي الأسباب ، في رأبي ، لعدم كون العنصر الآسيوي ميالاً للحرب ، إلا أنه ينبغي ألا أغفل عامل الأنظمة . فإن الجزء الأعظم من آسيا تحت حكومات ملكية ، وحيثما لا يكون الناس سادة أنفسهم وعناصرهم حرة وإنما تحت حكم ظفاني ، فإنهم لا يمتنون بأن يكونوا عناصر حرية فعالة ، وإنما على العكس ، يتجنبون اعتبارهم مادة حرية جيدة — السبب الذي من أجله لا يظهرون على أنهم كفتين متوازيتين . فمن الفروض ، أن يخدموا ويتاضلوا ويموتوا في ظل إكراه سادتهم ببيدين عن أعين زوجاتهم وأطفالهم وأصدقائهم . وعندما يدعون السلاح ، فإن سادتهم هم الذين يميئون المجد ويكبرون بفعل أعمالهم ، بينما يكون نصيبهم من المنافع هو المخاطرة وفقدان حياتهم . وليس هذا غريب ، ولكن في حالة شعب في مثل هذه الظروف ، فما لامناص منه أيضاً أن العاقبة من عدم النشاط على غياب الحرب لا بد وأن يكون لها تأثير أليف على المزاج ، ولهذا حتى الفرد الشجاع والنشيط بطبعه من شأنه أن يكون رادعة على الجانب الذهني بفعل الأنظمة المنتشرة . وثمة حجة قوية في صالح رأى أن الهلنيين وغير الهلنيين في آسيا الذين لا يقعون تحت حكم الطغاة ، ولكنها عناصر حرة تناضل من أجل مصالحها الخاصة . وهي تنزع للحرب كأي

شعوب أخرى في العالم — السبب ينبع من كونهم ذاهنون بحياتهم في سبيل قضيتهم الخاصة ويمجنون ثمار شجاعتهم الخاصة (ويماقبون على جنبهم في المساومة) . وسوف نجد أيضاً أن الآسيويين يختلفون فيما بينهم الواحد عن الآخر ، فيكون البعض رقيقاً ويفتقر الآخر إلى هذه الصفات ، وهذه الاختلافات لها سبيلها أيضاً في التغيرات الجوية الموسمية ، كما قررت من قبل .

البيئة والعنصر

(هيو كراتس : تأثيرات الجو والماء والوقع الفصل ٢٤)

أصبح عرضنا المقارن لأوروبا وآسيا الآن ، كاملاً في الخطوط العامة . وأياً ما كان الأمر فهناك في أوروبا ذاتها ، عدد من كيات متميزة توضح اختلافاتها البناء والتناسب والصفات الخلقية إن العوامل المتميزة هي بذاتها التي وصفت في الملابس السابقة ، إلا أنني سوف أوضحها مرة ثانية بتحديد أكثر . ويميل سكان البلدان الجبلية الصخرية والروية جيداً على علو مرتفع ^(١) ، حيث يتسع هامش التأثير المناخية الموسمية ، يميلون لأن يكون لديهم أجسام ضخمة جبلت مزاحياً على الشجاعة والتحمل ، وفي مثل هذه الطبيعة سوف يكون هناك عنصر لا بأس به من الضراوة والوحشية . وسكان التجاويف الحارة المغطاة بمروج الماء ^(٢) المعرضة بشكل عام للرياح الحارة أكثر من الباردة والذين يشربون المياه الفاترة سيفهم على النقيض — ليست أجسادهم ضخمة أو نحيفة ، إلا أنها أكثر سمكا ممتلئة ، وذات شعر أسود ، مع بشرة فاتحة أكثر منها بياضاً مع فتور أكثر من الإصفرار في بنيتهم . وسوف لا تكون الشجاعة والتحمل فطرية في طباعهم بالدرجة نفسها ، ولكنها سوف تكون جذيرة بأن توجد فيها بفعل عناصر الأنظمة . فإذا ما كانت هناك أنهار في البلد التي تمتص منها المياه الراكدة ومياه الأمطار ، فإن السكان سوف يتمتعون بالصحة والأحوال الجيدة ، بينما إذا لم تكن هناك أنهار وتأتي إليهم مياه الشرب من البحار

(١) (إجوليا) Aetolia (الحق)

(٢) « قلب اسبرطة » (الحق)

الراكدة والستنقعات ، فإن أجسادهم تتلف طحالهم وتميل إلى أن تصبح أوعية شرهة . أما سكان البلاد الدرجة ، والتي تكتسحها الرياح ، وجيدة المياه لدرجة عالية^(١) ، تكون أجسادهم جيدة ، ويكونون غير قرويين ، مع مسح من الخوف والألفة في طباعهم . أما سكان البلاد ذات التربة الرقيقة ، وقليلة المياه وعديمة الخضراوات ، حيث التغيرات المناخية الموسمية ، فيكونون غلاظاً ويمتازون بالنعف^(٢) ، ويعيلون إلى أن يكون لهم أجساد كبيرة العظام وعضلية ، وتميل بشرتهم إلى البياض أكثر منها قاتمة ، ورأس عنيد ، وطباع ذات إرادة ، حيث التغيرات الموسمية دائمة في الغالب ويضع الهامش الأكبر في التغير ، وسوف نجد هناك الفرق الأكبر في الجسد الإنساني والطباع والحياة .

وهذه هي أكثر التغيرات أهمية في الأجهزة ، وهناك إذن تأثير البلد والماء التي تشكل البيئة الإنسانية . وفي أغلب الحالات ، سوف تجد أن الجسد الإنساني والطبع يختلف طبقاً لطبيعة البلاد . وحيث تكون التربة خصبة ولينة وجيدة الإرواء ، وحيث تبقى المياه لدرجة كبيرة قرب السطح ، ولهذا نجدها راكدة صيفاً وضحلة شتاء ، وحيث تكون الظروف المناخية سالحة أيضاً ، فيكون السكان متمثلين ومفاصلهم رخوة ومرهلين ولا طاقة لهم وغير نشطين في الاتجاه العام : وسوف يكون الكسل والنوم شائعاً بين مميزاتهم ، وسوف يكونون غلاظاً بدلاً من الرقة أو سريعين في الأشغال^(٣) الدقيقة . وحيث تكون البلاد صخرية وقليلة المياه وبلاخضر ، ويقاسون من شتاء قارس وشمس حارقة^(٤) ، سوف نجد السكان بارزى العظام وبلا لحم فائض وذوى مفاصل وعضلات جيدة ، وأجساد خشنة . ومثل هذه البنية مطبوعة على الطاقة والنشاط ، وأصحابها شديداً الراس ، وذو إرادة صلبة ، يعيلون للبطل بدلاً من الألفة ، وسرعة

(١) داخل شبه جزيرة أنا تولا (الحق) .

(٢) أسبئس حثوب روسيا (الحق) .

(٣) نجد أيضاً لكان (كوليس) أو غرب جورجيا في الفصل ١٥ من هذا البحث .

(الحق) .

(٤) أنيكال .

فائقة وذكاء، في الأعمال الدقيقة واستمداد فائق للحرب . وسوف تجد فيما بعد أن النباتات تختلف أيضاً حسب نوعية تلك التربة . ولقد وصفت الآن التناقضات الصارخة للبيئة وأعضائها ، وسوف لا تجانب الصواب إذا ما قمت بتحليل البقية بنفسك .

تعرية أتيكا

(أفلاطون : مجموعة الأعمال ، نص أ كسفورد، المجلد الرابع : كريتياس Critias ١٣ - د) .

يمكن بأن توصف أتيكا المعاصرة على وجه الدقة بأنها مجرد بقايا البلاد الأصلية ، وهو ما سوف أشرع في إيضاحه . ومن ناحية الشكل ، تتكون أتيكا كلها من شبه جزيرة مستطيلة ناتئة من اليابسة في البحر . ويميل الحوض البحرى الدائرى بأحدهار حول كل الشريط الساحلى . ونتيجة للطوفانات العنيفة المتتالية التى حدثت خلال تسعة الآلاف عام الماضية ^(١) ، كانت هناك حركة دائمة من التربة بعيدة عن الملو المرتفع ، وتبعاً ، لبروز الساحل المنحدر ، فإن هذه التربة بدلا من أن تطرح الطمى ، كما تفعل دائماً ، إلى درجة ذات بال ، غرقت بشكل متناوب في البحر العميق الذى يحيط بالبلاد ، بعبارة أخرى ، ضاعت هذه التربة ، وعلى هذا تعرضت أتيكا للعملية التى تلاحظها في جزر صغيرة ، وما بقى من أرضها يشبه هيكل جسد أضناه المرض ، إذا ما قورن بتضاريسها القديمة : وقد ذابت التربة الخصبية والليننة كلها ، تاركة بلداً من جلد وعظام . وأياما كان الأمر ، فى الفترة التى نحن بصدد تناولها ، عندما كانت أتيكا ما تزال فى حالة سليمة ، فإن جبالها التى هى شاهقة حالياً ، وتلاها التربة ، وما يعرف لسيولها الحصباء فى الأيام الراهنة ، كانت مليئة بترية خصيبة ، وكانت جبالها غابات كثيفة - وهى حقيقة ما يزال لها آثار يمكن تمييزها . لقد كانت هناك جبال

(٣) هى الفترة التى تفصل عصرنا عن الفترة التى نحن بصدد تناولها . (المؤلف) .

في أتيكا ، ليس منها الآن سوى النمل ، كانت مكسوة ، لا من زمن بعيد جداً بأشجار جميلة تنتج أخشاباً تصلح لسقف أكبر الباني ، وما زالت الأسقف من الأخشاب موجودة . وكانت هناك أيضاً أشجار باسقة ، بينما أنتجت البلاد مراعى لا حدود لها للماشية . ولم تنقطع الكمية السنوية من الأمطار ، كما يحدث الآن بسبب فيضائها على سطح عادي إلى البحر ، إلا أن البلاد قبلتها ، على وفرتها ، في باطنها ، حيث تختزنها في نفارها الأرضي الذي لا ينضب ، وعلى هذا كانت قادرة على أن تخزن مصارف المرتفعات في الفجوات في شكل الينابيع والأنهار مع كثرة غزيرة ومع توزيع إقليمي واسع . وتعتبر الصحاريج الباقية حتى يومنا هذا على مواقع إمدادات المياه النقضة دليلاً على صواب افتراضى الراهن .

التعليل جوهر التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الحادى عشر ، الفصل التاسع عشر ٣)

ماذا يفيد القارىء أن يخوض في حروب ومعارك وحصار واسترقاق الشعوب مالم يكن يقصد إلى أن يذهب إلى ما وراء ذلك فيقف على الأسباب التي أدت إلى انتصار فريق وهزيمة الفريق الآخر في موقف بذاته كل على حدة ؟ إن نتائج العمليات تتمتع القارىء فقط ، بينما البحث في المواقف السابقة إنما يفيد الدارس الجاد . إن تحليل حادث بعينه بنير تفاصيل ميكانيكية ، خير ثقافة من بين سائر الثقافات للقراء الذين لهم صبر على متابعة العملية .

أسباب بعيدة وأسباب قريبة

(بوليبيوس : الكتاب الثانى والعشرون ، الفصل ١٨)

يمكن تتبع بداية المصائب التي لا علاج لها والتي لحقت بالبيت المالك في (مقدونيا) منذ هذه الفترة . وأدرك بالطبع ، أن مؤرخين عديدين للحرب بين روما وپرسوس « Perseus » ، سردوا أول ما سردوا ، في مسعاهم ، لتفسير أسباب النزاع ، طرد « هابروبالس » Habrupalis من ولايته فأراً منه لثارته على منطقة

الناجم في (بانجاميم) بعد وفاة فيليب (عندما خف برسوس لنجدته . هزم الأمير السابق ذكره هزيمة تامة ، وطرده من أملاكه) . وبعد ذلك ، أوردوا غزو « برسوس » ل (دولوبيا) Dolopia وزيارته لداني ، وأوردوا كذلك المؤامرات التي أبرمت في داني ضد الملك « يومينيس » Eumenes ملك (برغاموم) Pergamum واغتيال مبعوث برونيا - وهي أحداث كان من شأنها ، طبقاً لرواية بعض الكتاب ، أن نشبت الحرب بين برسوس وروما . وفي رأيي ، ليس هناك شيء ضروري للكتاب أو لدارسي التاريخ مثل إدراك تلك الأسباب التي تفسر تكوين أية سلسلة من الأحداث وتطورها . إلا أن المشكلة قد حدثت حولها بلبلة في كتابة معظم المؤرخين بسبب الفشل في إدراك الاختلاف بين المناسبة وسببها ، وكذلك بين بداية الحرب ومناسبتها . وعند هذا الموقف الراهن ، أجد نفسي مدفوعاً بشكل واضح من جانب مادة الموضوع التي أمامي إلى أن أعود لمناقشة المسألة .

ومن بين الأحداث المذكورة آنفاً ، تعتبر الأحداث الأولى أسباباً ، بينما تشكل المجموعة التالية (بما فيها المؤامرة ضد الملك يومينيس ، ومذبحة السفارة وأحداث أخرى ذات طابع مماثل حدثت في الوقت نفسه) تشكل ، بدرجة لا يخطئها أحد بداية الحرب بين روما وبرسوس والإطاحة بالإمبراطورية المقدونية . وأياً ما كان الأمر ، فمن الناحية الحرفية ، ليس هناك حادثة من هذه الأحداث تعتبر السبب الرئيسي ، كما سوف أوضح الآن . لقد أكدت من قبل أن فيليب بن أمينتاس Amyntas هو الذي تصور واقترح أن يقوم بتنفيذ خطة الحرب ضد فارس ، بينما كان الإسكندر عاملاً قام بتدبير الإجراءات مترسماً قرارات والده السابقة . وأعود بالطريقة ذاتها لأؤكد أن فيليب بن ديمتريوس هو الذي تصور أصلاً مشروع التكفل بالحرب النهائية ضد روما ، وأنه هو الذي أعد الأسلحة على أهبة الاستعداد لهذا الغرض ، بينما « برسوس » كان مجرد عميل قام بتنفيذ الأعمال عندما أطلق والده يده . فإذا ما كان هذا صحيحاً ، فإن رأيي يحمل في طياته صحته ، لأن أسباب الحرب لا يمكن أن تكون لاحقة تاريخياً بوفاة

الشخص الذى قرر هذه الحرب ورسم خطتها . وأياً ما كان الأمر ، فهذا هو مضمون الرواية التى يقدمها المؤرخون الآخرون ، لا بد أن كافة الأحداث التى وردت فى أعمالهم بهذا الصدد لاحقة لوفاة فيليب .

سلوى الفلسفة

(ماركوس أوريليوس أنطونيوس الإمبراطور: رسائل ذاتية ، نص أ كسفورد تحقيق ا . هـ . نيوبولد I. H. Leopold الكتاب الثانى : الفصل ١٧^(١)).

الحياة الإنسانية ! أجلها موقوت ، قوامها رخو دائماً ، وإحساساتها قائمة ، وبناءؤها البدنى قابل للهلاك ، ووجدانها دوامة ، ومصيرها مظلم ، وشهرتها فى واقع الأمر زائفة ، وعنصرها المادى مجزى منحدر ، وأما عناصرها الروحية فأضغاث أحلام ، والحياة سجال ، والإقامة فيها مؤقتة فى بلد ناء ، والشهرة نسيان . فما الذى يمكن أن يهدينا خلال هذه الحياة ؟ إنه شئ واحد لا غير - الفلسفة ، وهذا يعنى أن تبقى روحنا غير تالفة وغير ملوثة .. وأن نسمع باللذة أو الألم ، ألا نعمل دون أن تفكر وألا نعمل بفن أو بغير إخلاص ، ويعنى ألا نكون معتمدين على مساندة الآخرين المنيوية . ويعنى أيضاً تقبل ما يحدث برضاء شأنه شأن كافة أجزاء العملية التى يرجع إليها وجودنا ؛ ويعنى - فوق هذا كله - مواجهة الموت بهدوء ، وتقبله ببساطة على أنه تحلل ذرات كل عضو حتى يتركب منها . إن تحولها الدائم لا يؤذى الذرات ، وعلى هذا لماذا ينبغي على المرء أن يفكر فى كافة الأعضاء التى تتحول وتتحلل ؟ إنه قانون الطبيعة ، وقانون الطبيعة لا يخطئ أبداً .

(١) كتبت فى مسكر كارنونتوم Carnuntum على حدود الدانوب (المحقق).

القسم الخامس

حجة وملاحظة

أصول العنصر الهليني

(هيرودوت : الكتاب الأول ، فصول ٥٦ - ٥٨)
أجرى « كرويسوس » تحقيقاً عن أية دول هي الأعظم في هيلاس ، بفرض ،
أن يضمن تأييدها الودى ، ونتيجة لهذه الأبحاث ، وجد أن الإسبرطيين والأثينيين
يبرزون من بين الشعوب العورية والأيونية على التوالي . ومن بين هذه الشعوب
التي تركت أثارها ، الأيونيون وهم أسلا بلازجيون والدوريون ذوو أرومة هلينية
وفى حين أن العنصر الأخير لم يرح موطنه ، كان العنصر الأول يهاجر بشكل مطرد
وفى زمن الملك « ديوكاليون » احتلت القومية الأولى إقليم (منيشوتس) ، وفى
زمن (دورس) Dorua بن « هيلين » أطلق على البلاد اسم (هستيايوتس)
Histiaeotis عند سفح جبال (أوسا) Ossa والأولييب . وبعد أن تم طردهم من
هستيايوتس على أيدي الكادميين Cadmeians ، استقروا فى (بندس) Pindus
واكتسبوا اسم (مقدبى) Macedni . ونحروا مرة أخرى (من بندس)
إلى (دريوبى) Dryopis ومن دريوبى عبروا مباشرة إلى (بليونيوزيا) حيث
عرفوا باسم (الدوريين) . أما فيما يختص باللغات التى تكلمها البلازجيون ، فليس
لدى معلومات دقيقة ، إلا أنه من الممكن أن نستشهد بدلالة البلازجيين^(١) الذين
مازالوا موجودين ، والذين يشغلون مدينته (كريستون)^(٢) Creston فى قلب
(الترهينيان) Tyrrhenians ، ومن البلازجيين^(٣) الآخرين الذين استوطنوا

(١) الحيران السابقون لشعب الذى سُمى الآن الدوريون ، فى الفترة التى احتل البلازجيون
فيها المنطقة التى تسمى الآن تالونس Thessaliotis (المؤلف)
(٢) فى المنطقة التى تسمى الآن مقدونيا الشرقية (المحقق)
(٣) حلوا أولاً فى الإقليم نفسه مثل الأثينيين (المؤلف)

(بلاكيا) Placia وصقلاسيا Scylaei على جبال البنت Hellespont ، ومن المجتمعات المختلفة الأخرى من العنصر البلازجيوى التى غيرت أسماءها القومية . وإذا ما أمكن أن نستمد الاستدلال من الشواهد ، لقلنا بأن البلازجين الأصليين قد تكلموا لغة ليست يونانية ، وأن القومية الأثينية البلازجيوية لا بد أن تكون قد تعلمت لغة جديدة وقت أن تحولت من البلازجيوية إلى الهلينية . وعلى أى وجه من الوجوه فإن سكان كريستون وبلاكيا ، الذين لم يتكلموا بأية حال اللغة ذاتها التى تكلم بها جيرانهم ، كان عليهم أن يتكلموا لغة بين الواحد والآخر ، ويتبين من هذا أنهم احتفظوا باللغة المينة التى جاءت معهم عندما هاجروا أصلاً إلى هذين المكانين . ويقابل هذا ، أن العنصر الهلينى قد استخدم لغة خاصة بشكل مستمر ، عندما جاء إلى الوجود^(١) وبمدأن انسلخوا من العنصر البلازجيوى ، وجدت اللغة نفسها ضعيفة ، إلا أنهم ترايدوا من هذه البدايات الصغيرة حتى أصبحوا يضمنون الآن عدداً من القوميات ، وقواها الرئيسية ذات أصل بلازجيوى ، إلى جانب قوميات أخرى عديدة ، ذات أصل غير هلينى . ورأى الأخير هو أن الأصل غير الهلينى فى الروايات البلازجيوية ، بشأن الفشل الكامل إلى هذه القومية ينمو إلى أبعاد لا بأس لها .

مصر مهد الحضارة

(هيرودوت : الكتاب الثانى . فصول ٤٨ - ٥٨)

إن الطقوس الدينية ، فيما عدا عنصر الجوقة ، فى الاحتفال بـ « ديونيسوس » تتشابه عملياً فى كافة تفصيلاتها مع الطقوس الهلينية . . والأمر عندى هو أن « ميلامبوس » Melampus وهو رجل عبقرى ، لم يتتبع إجراءات التنبؤ لنفسه فحسب ، وإنما طلب المعرفة من مصر ، مما نتج عنه عبادة « ديونيسوس » وكثير من البدع الأخرى فى هيلاس ، مع تعديلات طفيفة عن شكلها الأصلى . وإبنى

(١) منه مسألة لا أشك فيها أنا شخصياً (المؤلف) .

لا أستطيع أن أسلم بأن التشابه بين طقوس ديونيسوس في مصر وهيلاس مجرد صدفة، لأنه في تلك الحالة كان يجب أن تكون الطقوس الهلينية متطابقة مع الطقوس الهلينية الأخرى ولا تكون ابتداءً حديثاً. وكذلك فإنني لا أستطيع أن أسلم بأن المصريين قد اقتبسوا هذا النظام ولا أى شكل آخر من الهلنيين. والذي أتصوره أن مصدر المعلومات الرئيسى عند « ميلامبوس » الخاص بديونيسوس كان هو « كلثوس المورى » وأن أتباعه المستوطنين من فينيقيا هم الذين استوطنوا في البلد الذى يسمى الآن (بروتيا) والحقيقة هى أن أسماء سائر الآلهة تقريباً قد وفدت إلى هيلاس من مصر. ولقد أقمت الحقيقة العامة عن أصلها غير الهليني بالبحث والتقصى، وفي رأي أن موطنها الأصلي من المحتمل أن يكون مصر إلى حد كبير. لقد ذكرت فعلاً أن أسماء سائر الأرباب الهلينية الأخرى عريق في مصر^(١)، باستثناء « بوسيدون » Poseidon و « الديوسكورى » Dioscuri و « هيرا » Hera و « هستيا » Hestia و « ثيميس » Themis و « جراسيس » Graces و « زيريس » Nereids وفيما يختص بالأرباب التى لا يزعم المصريون أن أسماءها نابعة لهم، فإنني أتصور أنها أخذت عن البلازجيين^(٢)، وأياما كان الأمر، فليس هناك شئ في مصر يطابق عبادة القديسين^(٣).

وهذه الأنظمة، شأنها شأن أنظمة أخرى سوف أشرع في وصفها، قد جلبها الهلينيون من مصر أما إظهار الهلنيين (لهرمس) Hermes، من جهة أخرى. فلم ينقله المصريون عنهم وإنما نقله البلازجيون، والذي نقله عنهم في بداية الأمر الآثينيون، وعن هؤلاء نقلها سائر الهلنيين^(٤). وسوف يتضح ما أقصد إليه لكل من يتعمق في أسرار عبادة كايبرى Cabeiri التى يحتفل بها في ساموثراس،

(١) في هذا، أنا أكرر ببساطة عبارات المصريين أنفسهم (المؤلف)

(٢) باستثناء بوسيدون الذى علم به الهلينيون من البربر، فإن اسم بوسيدون محلى بينهم وحدهم. (المؤلف)

(٣) « أطلال » في اليونانية (المحقق)

(٤) في تلك الوقت فإن الأثينيين الذين يعتبرون هلينيين صلاً، كان لديهم مجتمع من البلازجيين الذين حلوا في بلادهم، وهذا كان صدفة، كيف كان البلازجيون يعتبرون هلينيين (المؤلف)

والتي أخذها سكانها عن البلازجيين^(١). وفيما يتعلق بتقليد البلازجيين كان الآتينيون الهلينيون أول من أظهر عبادة « هيرميس » Hermes في الوضع الذي بينته . وكان لدى البلازجيين عقيدة حول هذا الموضوع ، تظهر في الأسرار المقدسة عند (ساموثريس) . وفي بداية الأمر (كما علمت من نحر شخصي في دودونا Dodona) توصل البلازجيون في سائر خيماتهم الدينية ، إلى « الأرباب » مجردين دون لقب أو اسم (فالألقاب والأسماء كانت ماتزال مجهولة لديهم) إلى كل رب منها . لقد أطلقوا عليها (الأرباب) لأن هذا ما « وصل » إليهم في شكله الكلي واحتفظوا بالكون وكافة أجزائه هكذا . وعلى هذا ، وبعد فترة طويلة ، علما من المصادر المصرية أسماء كافة الآلهة فيها عدا « ديونيسوس » ، ، وبعد فترة طويلة أخرى ، عرفوا اسم « ديونيسوس » . وبعد فترة جاء البلازجيون يستفتون النبوة في دودونا^(٢) عما إذا كان ينبغي أن يقتبسوا هذه الأسماء من بضاعة خارجية . وأمرتهم النبوة بأن يفعلوا ذلك ، ومن ذلك الحين فصاعداً ابتهل البلازجيون إلى الأرباب في الخدمات الدينية بأسمائها ، بينما نقل الهلينيون بدورهم هذه المادة من البلازجيين .

ومن البائنة أن نحدد ، كما نحدد تاريخاً حديثاً أو نحدد الأمس أو أول أمس ، أن الهلنيين ظلوا يجهلون إعادة كل إله من الآلهة إلى أصله ، ويجهلون مظهرها الخارجي ، ويجهلون ما إذا كانت قد وجدت منذ الأزل أم لا . وأما أنا فلا أضع هسيود وهومر وتاريخها قبل جيلي أنا بأكثر من أربعة قرون ، وما أول ثقات قدما للهلنيين أنساب الآلهة ، ووضعاً للآلهة ألقابها ، وخصصاً لها تبجيلها وأعمالها ، وحدداً لملاح مظهرها الخارجي^(٣) . وكاهنة (دودونا) هي مصدرى عن السلسلة الأولى للقضايا السابقة ، وفيما يختص بالقضايا الباقية التي تتعلق بهسيود وهومر ، فأنا مسئول عنها شخصياً .

(١) كانت ساموثريس قد احتلها في البداية البلازجيون الخلس الذين حلوا في إقليم أثينا ، ومن هؤلاء البلازجيين استمار أهل ساموثريس الأسرار المقدسة (المؤلف) .

• (٢) كانت هذه النبوة أكثر قدماً في هيلاس ، وهي الوحيدة التي كانت موجودة في هذه الفترة (المؤلف)

إن مسألة الارتباط بين (النبوة) في هيلاس وفي النبوة في شمال أفريقيا^(١) مادة قصة مصرية سوف أبدأ بيسطها . فيقرر كهنة (زيوس طيبة)^(٢) . بأن كاهنتين من طيبة نقلها الفينيقيون من البلاد ، وأظهر البحث أن إحداها قد بيعت في شمال أفريقيا وبيعت لأخرى في هيلاس . وهم يؤكدون أن هاتين المرأتين هما اللتان أوجدتا في الأصل النبوءات في أقاليم الأمم السابق ذكرها . ولقد سألت الكهنة كيف كانت الكاهنتان في مركز يمكنهما من أن ينطلقا بمثل هذه المعرفة الدقيقة . فكانت إجابتهما أنهم قد أجروا بحثاً دقيقاً ، ولكنهم لم ينجحوا في اكتشاف السر . وعلى هذا حصلوا على المعرفة التي يمدون روايتها على الآن . وهذا ما سمعته من كهنة طيبة ، في حين أن كاهنة دودونا قد روت لي الحكاية التالية : لقد طارت حمامتان سوداوان من طيبة المصرية إلى شمال أفريقيا وبعد ذلك إلى دودونا . وحطت الحمامة الأخيرة على شجرة زان وأعلنت بصوت إنساني ، أن إحدى معجزات زيوس يجب أن تقوم على تلك البقعة . واعتبر أهل دودونا أن الرسالة خارقة للطبيعة وتنفذوها بعد ذلك . أما الحمامة التي طارت إلى شمال أفريقيا فيقال إنها أمرت البربر بأن يقيموا نبوءة لأمون وهي نبوءة أخرى لزيوس ، وهذه هي القصة كما حكها لي كاهنة دودونا^(٣) ، والتي أيدها سكان محليون آخرون على صلة بالضريح أما وجهة نظري الخاصة حول الموضوع فهي كما يلي . إذا كان الفينيقيون قد نقلوا حقيقة النساء القدسات وباعوا واحدة في شمال أفريقيا وأخرى في هيلاس ، فإنها في رأيي ، المنطقة المعينة التي تسمى الآن هيلاس ومن قبل كانت بلازجيا التي بيعت فيها ، فلا بد وأنها كانت (ثسبروتيا)^(٤) Thesprotia . وخلال فترة الرق التالية هناك ، لابد أنها أسست ضريحاً لزيوس

(١) زيوس دودونا في أبروس وآسون في سيوة في الصحراء الليبية (المحقق)

(٢) آمون طيبة في مصر (المحقق) .

(٣) كانت أسماؤهما (برومينا) Promena الكرى و (تماريتا) Timareta الكبرى التالية ونيكاندرا الصغرى (المؤلف)

(٤) جنوب غرب أبروس (المحقق)

تحت شجرة بلوط ، ولابد أنها أقامته كما أقيم في البداية معبد زيوس في طيبة ،
ويُبنى أن تحفظ ذكراه في مكان إقامتها الجديدة. وعشياً مع هذا ، فإنها تكون بعد
أن تمكنت من اللغة اليونانية ، قد أنشأت نبوءة ، ولا بد أن تكون قد ذكرت
أن أختها لها قد بيعت في شمال أفريقيا بواسطة الفينقيين أنفسهم الذين باعوها هي .
وفي رأي أن أهل دودونا قد أطلقوا على الكاهنتين عبارة (الحمامات) لأنها
لم تكونا هيلينيات وبدنا للوطنين على أنها صغيرتان كالعصافير . وعندما أطلقوا
هذه العبارة ، وبعد فترة من الوقت ، تحدثت الحمامة بصوت إنسانى ، أى أنه :
عندما بدأت المرأة في الحديث بشكل مفهوم لهم ، وفي حين أنها عندما كانت
تتحدث بلغة أجنبية ، كانت تبدو كأنها تتحدث إليهم بلغة الطيور . وإلا ،
كيف يمكن لحمامة أن تتحدث بصوت إنسانى بالمعنى الحرفى للكلمة ؟ وكذلك ،
فعمدما قالوا إن الحمامة كانت سوداء فهذا يعنى أن المرأة كانت مصرية . لأن
أساليب التنبؤ التى اتبعت في طيبة المصرية ودودونا كانت ، على التوالى ، في الحقيقة
متشابهة ، وأن علم التنجيط بطريقة الأحشاء كان من المحتمل أن يكون من
أصل مصرى .

وكان المصريون أيضاً العناصر الأولى من الجنس البشرى التى أقامت الأعياد
والمواكب ، والخدمات الدينية ، وقد تقلها الهلينيون جميعاً . واستنبط هذا من
أن هذه الاحتفالات في مصر تبدو أنها اتبعت منذ تاريخ بعيد ، بينما كانت في
. يلاس بدعة جديدة .

هل الكولخيون مصريون

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٠٢ - ١٠٥)

يبدو أن الكولخيين^(١) من أصل مصرى - تلك حقيقة لا حظها بنفسى
قبل أن أحاط علماً بها من الآخرين . وما إن شغلت انتباهى ، حتى قُبت باستقصاءات

(٣) شغلت كولس النصف الغربى من البلاد التى يطلق عليها حالياً جورجيا عبر القوقاز

(المحقق) .

بين كلتا الأمتين ووجدت أن الكولخيين يتذكرون المصريين أكثر مما يتذكركم الآخرون . وقدم المصريون نظرية مؤداها أن الكولخيين هم بقايا جيش « سيزوستريس »^(١) Sesostris ولقد اختلفت اقتراسى على حقيقة أن الكولخيين لهم شعر أسود - وأثنى كثيراً في حقيقة أخرى هي أن الكولخيين ، والمصريين والسودانيين هم الأعضاء الوحيدون من الجنس البشرى الذين يمارسون عادة ختان الأطفال . ويعترف الفينيقيون والفلسطينيون والسوريون صراحة بأنهم أخذوا هذه المادة عن المصريين ، بينما يعترف السوريون الذين يعيشون حول أنهار ترمودون Thermodon و (بارثينوس)^(٢) Parthenius وجيرانهم ودولة (المقرون) Macrones يعترفون بأنهم أخذوا هذه المادة مؤخراً فقط عن الكولخيين . وهذه قائمة شاملة عن الأجناس التي تمارس الختان ، ويبدو أنهم جميعاً يقلدون المصريين أما فيما يختص بالمصريين أنفسهم والسودانيين ، فلا أستطيع أن أقرر أيهما أخذ المادة عن الآخر ، لأن الختان قديم جداً في كلا البلدين . أما عن النظرية التي تقول بأن الآخرين قد أخذوا هذه المادة نتيجة احتكاكهم بالمصريين فأنتى أجد لها سنداً قوياً في الحقيقة التالية . إذ إن الفينيقيين الذين احتكوا بالهليين توقفوا عن تقليد المصريين وأغفلوا ختان الجيل الذى جاء بعد ذلك . ودعى أذكر عامداً ، مسألة أخرى ينسب فيها الكولخيون بالمصريين . إذ إن الكولخيين والمصريين هم الفريديون الذين لديهم منهج مماثل في صنع الكتان^(٣) وإلى جانب هذا هناك مماثلات قوية بين الأمتين في حياتهما الاجتماعية وفي لغاتهما :

طوائف

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٦٤ - ١٦٨)

توجد في مصر سبع طوائف وهي تسمى على التوالي ، الكهنة ، الفارسيون

(١) شخصية أسطورية ، اختلطت باسماء عديدة من الفراعنة المصريين التاريخيين الطام (المحقق)

(٢) نهران أناتوليان يطلق عليهما الآن (ترمسو) Terme وبارتين رسو Bartin

وصبان في البحر الأسود بين unen و Samsun وبين أمارس Amarsa وزونجداك Zonguldak في هلاس .

(٣) الاسم التجاري لكتان الكولخيين هو (السرنيون) . بينا الكتان الذى يأتي من مصر يطلق عليه (المصرى) المؤلف .

رعاة البقر ، رعاة الخنازير ، التجار ، والأدلاء ، وكبار البحارة . وعدد هذه الطوائف سبع وأسمائها حسب حرفها . فإلفاتون يطلق عليهم Calasiries و Hermotybies ، وتأتي كل طائفة بدورها من الأقسام^(١) التالية فيتبع Hermotybies إلى أقسام . . . [أسماء منفلة] وتبلغ أقصى قوتهم ١٦٠٠٠ و ١٦٠٠ رجل ولا ينخرط أى فرد من هؤلاء فى أية حرفة دينية . لقد كانوا جميعاً منصرفين إلى السلاح ، ويتبع Calasiries الأقسام الأخرى . . . (أسماء مهمة) . . . وتبلغ أقصى قوتهم ٢٠٠٠ و ٢٠٠ وكان محظوراً عليهم أيضاً ممارسه أى حرفة عادية ، ولا يزالون سوى فن الحرب عن طريق التوارث . وإني لأستطيع أن أقول على وجه التحديد إذا ما كان هذا النظام قد أخذه الهلينيون من المصريين ، واضعاً فى اعتبارى أن الرجل التراقيين والفرس الليديين^(٢) وتقريباً سائر الشعوب اللاهليئية ، يعاملون الأشخاص الذين يمارسون الفنون والحرف ، ونسل هؤلاء الأشخاص ، على اعتبار أنهم فى مرتبة دون أعضاء المجتمع الآخرين ، فى حين أن الذين لا يزالون الأعمال اليدوية يعاملون على أنهم من منشأ طيب . ولا سيما أولئك الذين ينصرفون إلى الاتجاه الحربى . وعلى أية حال ، فإن جميع الهلنيين تبنا هذه العادة ولا سيما الإسبرطيون — والكورنثيون ، على عكس الأمة التى تبدى ازدهار أقل للعمل اليدوى . وفى مصر ، حازت الطائفة العسكرية الامتيازات التالية التى لم تتمتع بها أى طبقة أخرى من السكان فيما عدا الكهنة : فهم أولاً يحتفظ كل منهم باثنى عشر فداناً^(٣) منتقاة من الأرض لكل منهم دون جزية ، ويكون دخل كل حصه بالتناوب من فرد إلى آخر . ولا يبقى أبداً فى أيدي بعينها بشكل ثابت ، وثانياً ، كان ألف من (الكالازيرس) وجملة مماثلة من

(١) يتقسم إقليم مصر كله إلى قسمين (المؤلف)

(٢) سكان وادى أبدين Aidin الحديث غرب الأناضول (المحقق) .

(٣) القدان المصرى مائة فراع مصرى مربع ، والذراع المصرى يساوى فى الطول م

الذراع السامى (المؤلف) .

(الدمويتس) يخدمون سنوياً كحرس إمبراطورى . وإلى جانب الحصص ، فإن الأفراد الذين يشتغلون سنة في هذه الخدمة يتسلمون ، كأجر إضافى ، جراية يومية تبلغ خمسة أرغفة لكل فرد ، وقطعتين صغيرتين من اللحم وأربع مفارف من النبيذ .

انتقال الألف باء

(هيرودوت : الكتاب الخامس . الفصول ٥٨ — ٥٩)

كانت حروف الهجاء من بين الابتكارات المديدة الفيدة التى وصلت إلى هيلاس على أيدي الفينيقيين الذين جاءوا مع «كدموس» واستعمروا البلاد التى تسمى الآن (بويوتيا) ، وكانت حروف الهجاء هذه ، فى رأى ، غير معروفة من قبل فى العالم الهلنى . لقد أدخلوا فى الأصل صناعة الكتابة التى كانت شائعة الاستعمال بين الفينيقيين ، ثم تغيرت مع الزمن حياتهم فتغيرت معها بذات الوقت رسوم حروفهم . وقد كان الأيونيون أكثر الإغريق الذين كانوا يقيمون يومئذ فى تلك البلاد حيث الفينيقيون ، ولذلك تعلم الأيونون فن الكتابة من الفينيقيين ، واقتبسوا حروف كتابتهم مع تعديلات طفيفة ؛ ومازالوا بعد حين يسمونها بالفينيقية إنصافاً لمن نقلوها عنهم — على اعتبار أن الفينيقيين وحدهم هم الذين أدخلوها إلى هيلاس . واحتفظ الأيونيون أيضاً بالاسم القديم . اسم (القديم) ^(١) على الأوراق لأنه فى وقت ما ، اضطرتهم ندرة صحائف الكتابة إلى استخدام جلود الماعز أو جلود الماشية ^(٢) كأدوات كتابية . ولقد رأيت بنفسى كتابة الحروف الكدموسية محفورة فى نقوش ^(٣) على بعض القوائم المثلثة فى معبد (أبولون أسميناس) بطيبة البوطية .

(١) «دفترى» فى اليونانية كلمة قلها العالم الشرق المعاصر وظلت فى الفارسية الحديثة فى كلمة «دفتر» (دفتر الحسابات) وعادت إلى اليونانية الحديثة عن طريق التركية (المحقق) .
(٢) فى بلاد غير هابنية كثيرة تستخدم الجلود المائلة كواد كتابية حتى أيامنا هذه (المؤلف)
(٣) يشرح هيرودوت فى اقتباس هذا النقوش حتى يتحقق الأشخاص المذكورون فيها فإن الأدليل للوجود فى الأسلوب واللغة يثبت أنه قد دخلت إليها ترويرات فى فترة حديثة نسبياً (المحقق) .

هل خان « بنو الكمايون » Alcmaeonidae هيلاس ؟

(هيرودوت : الكتاب السادس . الفصول ١٢١ - ١٢٤)

اعتقد أن افتراض أن « بنى الكمايون » عرضوا ترساً^(١) كإشارة إلى
الفرس ، بقصد إخضاع الأثينيين تحت نير الشرقيين وهيباس Hippias ، هو
افتراض لا يمكن قبوله . إذ إن كل شيء يبين أن « بنى الكمايون » كانوا على
الأقل خصوماً أقوياء للاستبداد ، فمثلاً « كالياس »^(٢) Callias كان الرجل
الوحيد في أثينا الذى لديه درجة كافية من الجرأة ، فعندما طرد « بيزيستراتوس »
Peisistratus من البلاد ، لأنه اشترى أملاكه من مزاد الخزينة ، فإنه لم
يفوت فرصة للعمل ضد بيزيستراتوس بأشد ألوان العداء مرارة . وكان « بنو
الكمايون » على الأقل خصوماً أشداء للاستبداد كما كان « كالياس » مما يجعلنى
أرفض الإسهام الذى لا يستند إلى شيء بأنهم عرضوا ترساً فى هذه المناسبة . لقد
نقى الطغاة « بنى الكمايون » طيلة فترة حكمهم بأسرها ، وانتهى حكم أنصار
« بيزيستراتوس » خلال مكائدهم — وهذا يعنى فى تقديرى الخاص ، أن « بنى
الكمايون » كانوا محردى أثينا لحد كبير أكثر من « هارموديوس »
Harmodius و « أرستوجيتون » Aristogéton ، وبسبب قتل « هيبارخوس »
فإن الأخير قد أغاظ العناصر التى ظلت على قيد الحياة من أسرة بيزيستراتوس ، دون
الإسهام فى الإطاحة بسلطانهم ، بينما حرد « بنى الكمايون » الأثينيين بشكل
متميز ، وإذا ما كانوا حقيقة هم الذين أوحوا إلى كاهنة (دلقى) أن تقدم كل رد
قدمته إلى الإسبرطيين وتحرضهم على تحرير أثينا ، حسب القصة التى شرحتها
آنفاً ، وإذا ما قيل إنه كان لديهم بعض الضغينة ضد أعضاء مجلس العموم فى أثينا

(١) انظر هيرودوت الكتاب السادس فصل ١١٥ . وكان الترس يستخدم ليعكس
الرسائل التفريقية الشمسية عندما عادت الحملة الفارسية مرة أخرى بعد هزيمتها فى ماراثون اقترض
أن إشارة أبرقت إليها تنصيحها بالإبحار حول أتিকা وترسو على الساحل المقابل أمام الجيش
الأثينى ويمكنها أن تدير حول البلاد (الحقق)
(٢) ابن فابنيوس وأب هيبوميكوس (المؤلف) .

بما دفعهم إلى هذا المسمى لخيانة البلاد ، فيمكن الرد ، بأنه في العالم الآثيني ، لم تكن هناك عائلة أخرى تمتعت بشهرة أعظم أو بشرف مماثل . وعلى هذا فليس من المقول تماماً أن تفترض أن هذه الأميرة بالذات قد عرضت الترس لمثل هذا السبب . وبما لاشك فيه أن هناك ترساً قد عرض ، وليس هناك مرء في هذه الواقعة ، إلا أنني لأستطيع أن أقرب قيد أنملة أكثر مما فعلت هنا للإجابة على السؤال : من الذى أظهر الترس إذن ؟

هل خان الأرجيفيون هيلاس ؟

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصول ١٤٨ — ١٥٢)

يقدم الأرجيفيون الرواية التالية عن الدور الذى قاموا به بأنفسهم في (الحرب الفارسية الكبرى) . وتلقوا ، بادئ ذي بدء ، معلومات عن العاصفة التى تتجمع ضد هيلاس من العالم الشرقى ، وبهذه المعلومات التى توافرت لديهم ، علموا أن الهلنيين يمتزمون بالمفاوضة حول التعاون ضد الفرس . وطبقاً لهذا ، بعثوا برسول إلى (دلتى) يسأل الرب أى مسلك من شأنه أن يضمن لهم أفضل النتائج . إذ لم يكن قد مضى وقت طويل على موت ٦٠٠٠ من رجالهم في المعركة على أبدي الإسبرطيين (بقيادة كليومينيس Cleomenes بن انكسندريادس Anaxandriadis) وكان هذا (حسب روايتهم) هو السبب في إرسال البعث . وردت عليهم الكاهنة بالآيات التالية :

بحق السماء الحبيبة ، بحق الجيران الذين قهروا ببشاعة

ضموا الحراب في غمدها وخنفوا راحة

والتفتوا إلى عقولكم ، فالمقول سوف تنقذ البقية .

وكان إلقاء هذا الرد من جانب الكاهنة سابقاً على وصول البعثة الكوتقدالية إلى أرجوس ، حيث قوبلوا هناك بالتحية في المجلس وقدموا تعليماتهم . وأجاب علس الموم على طلباتهم بأن أرجوس مستعدة لقبول مقترحاتهم على شرطين —

سلام لمدة ثلاثين عاماً مع إسبرطة ونصيب مساو في قيادة القوات الكونفدرالية كلها . وأضافوا أن العدل المطلق يحول لأرجوس نصيب الأسد في القيادة ، ولكنها تكفى بالشاركة مع دولة أخرى . وكان هذا (حسب الرواية الأرجيفية) رد المجلس ، على الرغم من أن النبوة قد اعترضت على التحالف مع الهلنيين . وأياً ما كان الأمر ، فإن خوفهم من النبوة لم يكن يوازي تخمهم بسلام ثلاثين عاماً حتى يمكنهم ، كما قالوا ، أن يمحوا أولادهم يشبون إلى سن الرجولة في هذه المدة ، وفي حالة عدم وجود مثل هذا السلام ، أدرخوا أنهم في حالة إصابتهم بكارثة أخرى في الحملة ضد الفرس ، فوق ركهم مصائبهم السابقة ، فإن الحاصل سوف يكون خضوع أرجوس تماماً لإسبرطة . ورد الأعضاء الإسبرطيون في البعثة المشتركة على إعلان مجلس أرجوس بأن أعلنوا أنهم سوف يحلون مسألة الماهدة إلى رؤسائهم ، إلا أنهم فيما يتعلق بمسألة القيادة ، يجب أن يسترشدوا بتمانيهم القاطمة ، والتي كانت تقضى بأن هناك ملكين في إسبرطة وملكاً واحداً في أرجوس ، ومن المستحيل إبعاد أحد الملكين من القيادة ، إلا أنه لم يكن هناك اعتراض على الموافقة لملك أرجوس بأن يصوت مع ملكي إسبرطة . وحسب رواية الأرجيفيين الخاصة ، فإن هذا البيان أخرجهم عن صبرهم إزاء اعتداء الإسبرطيين وطمعهم يفضلون أن يقتلوا في قبضة الشرقيين على أن يسلوا بوحدة واحدة إلى الإسبرطيين . ونتيجة لهذا ، أذروا البعثة بأن تكون خارج الحدود قبل غروب الشمس ، وذلك بمقتضى معاملتهم كأعداء . إلى هذا الحد يذهب الأرجيفيون أنفسهم ، إلا أن هناك قصة مختلفة تجري في هيلاس : - وهي أن « كركيس » قد أرسل مبعوثاً إلى أرجوس قبل أن يعد حملته ضد هيلاس . ويقال إن الرسول عند وصوله ألقى هذه المذكرة الشفاهية :

« أيها الأرجيفيون ، إن الملك كركيس له رسالة إليكم . إننا نؤمن بأن جدنا هو « برسيس » Perses ، بن « برسوس » ^(١) Perseus من

(١) ابن داناي Danae (المؤلف)

« أندروميديا » Andromeda بنت « كسيفيوس » Cepheus . وما دام الأمر كذلك ، فإننا لابد وأن نكون قد انحدرنا من مجموعتكم ، ويكون من الغريب أيضاً من جانبنا أن نشن حرباً على أسلافنا ، ويكون غريباً من جانبكم أن تقفوا في وجهنا دفاعاً عن طرف ثالث . وأفضل طريق هو أن تلوفوا بدياركم وتحافظوا على حيادكم ، وإذا ما فزت أنا ، فلن يكون هناك بلد سأعاملها بتقدير أكثر منكم .

ويقال إن الأرجيفيين تأثروا جداً بهذه الرسالة لدرجة أنهم لم يقوموا وقتها بأية مفاخرة أو طلب امتيازات من المبعوثين الهلنيين فحسب ، ولكنهم عندما حاول الهلينيون أن يطلبوا معونتهم أيضاً ، طلبوا بحزم المشاركة في القيادة ، وهم يدركون أن الإسرطيين لن يوافقوا على مطلبهم ، وذلك حتى يتدفعوا بالبقاء على الحياد . ولأن كيد هذه الرواية ، أشار بعض الثقات الهلنيين إلى رواية أخرى ، تتعلق بالأحداث في تاريخ متأخر . وهي أن بعثة أثينية تتكون من كالياس بن « هيبونيكوس » Hipponicus وحاشيته ، تصادف أن وجدوا أنفسهم في مهمة في (صوصه) ^(١) Susa عندما كانت بعثة أرجيفية مرسلة بذات في نفس الوقت ، وصلت تسأل « ارتا كسر كسيس » عما إذا كانت الاتفاقية التي عقدتها (أرجوس) مع « كسر كسيس » ما تزال قائمة ، أو إذا ما كانت حكومته تنظر إلى أرجوس على أنها دولة معادية — ورد الملك « ارتا كسر كسيس » عليها بأن الاتفاقية قائمة بشكل طيب . وأنه ليس هناك دولة يعتبرها أكثر صداقة من أرجوس .

وسواء كان « كسر كسيس » قد أرسل حقيقة مبعوثاً إلى (أرجوس) بالتعليمات السابق ذكرها ، أو أن بعثة أرجيفية زارت (صوصه) حقيقة لتؤكد من رأى ارتا كسر كسيس حول الاتفاقية ، فليس في مقدوري أن أوكدّها ، ولا أعرض أي رأى عن الموضوع أكثر مما قرره الأرجيفيون أنفسهم . فقط أعلم هذا جيداً ، لو أن جميع أعضاء الجنس البشري وضعوا أعباءهم الفردية بشكل جماعي

على أساس التبادل مع جيرانهم ، فإن فخص أعباء جيرانهم عن كسب يجعلهم يتنبهون ويسهمون بما أوجدوه هم أنفسهم . أما فيما يختص بهذا ، فإن الأرجيفيين ليسوا أكثر الناس خطيئة في التاريخ . وواجبي الشخصي أن أروى ما قيل فعلا ، ولكن ليس على أن أصدقه -- وهو مبدأ أطبقه عامداً ، بشكل محدد ، على كل عمل . أما بخصوص هذا ، فهناك قصة أخرى حول المروض أن الأرجيفيين هم الذين حرضوا الفرس ضد هيلاس ، لأنهم أساءوا العمل في الحرب ضد الإسبرطيين ولم يشمروا بشئ ، طيب إزاء إذلالهم الراهن .

كيف أنقذت أثينا هيلاس

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصل ١٣٩)

وعند هذا الحد ليس أمامي من طريق أسلكه سوى أن أسجل تقديراً سيقابل بالاستياء من جمهرة الرأى العام ، إلا أنني لا أستطيع فيه أن أحجم عن متابعة ما يبدو لي أنه الحق . ولنفتض أن الأثينيين قد وهنت عزيمتهم بما حل عليهم من خطر بعد ذلك كالهجرة من بلدهم ، أو تفترض -- في حالة عدم وجود هجرة -- أنهم مكثوا وحضمووا لكسر كيس ، ففي هذه الحالة لم يكن في وسع أحد أن يقاوم الملك في البحر ، وطالما لم يقاوم أحد « كسر كيس » في البحر ، فإن نتيجة الأحداث على البر يمكن أن تكون كالتالي . وبنض النظر عن طبقات المراكز الجاهزة التي جذبها البليونيونيون عبر برزخ كورنثا ، فكان على حلفاء الإسبرطيين أن يهجروهم -- لا عن عمد وإنما بتأثير (قوة أعظم) كما حدث واستسلموا ، بشكل فردى ، إلى قوات الأسطول الشرقى -- وكان من المفروض أن يخضمووا للزل . وفي ساعات عزلتهم قام الإسبرطيون بأعمال باهرة وماتوا ميتة مجيدة -- فيما عدا الحالات التي كان يصل إلى علمهم فيها أن الهلبيين الآخرين ينضمون إلى جانب الفرس حتى يصلوا هم أنفسهم إلى شروط مع « كسر كيس » -- إلا أنه في ظروف أخرى كان الهلينيون يسقطون تحت نير الفرس . أما فيما يختص بالمواقع عبر

البرزخ فإننى فى حيرة من أن أكتشف لماذا كانت قيمتها الحربية بالنسبة إلى الملك الذى سيطر على البحر . وفى مثل هذه الظروف ، فإن الحق يحتم أن نقول إن الآثينيين كانوا منقذى هيلاس . وإن الميزان يميل إلى صالح كل جانب ينضم إليه الآثينيين ، فالآثينيون والآثينيون وحدهم ، كانوا هم الذين رغبوا فى أن تبقى هيلاس مجتمعاً حراً ، وجموا اشتات بقية العالم الهليني (ومع ذلك حتى لا نستسلم للفرس) ، وم أيضاً (بعد الآلهة) الذين ردوا غزو الملك . حتى لم يستطع نذير النبوة التى جاء من دلتى ، أن يجعلهم يهجرون هيلاس . لقد تمسكوا بأرضهم ولم يحجموا عن مواجهة أسلحة غزاة بلادهم .

الآثار الاجتماعية للحرب الفارسية الكبرى

(ديو دورس : الكتاب الثانى عشر . الفصول ١ - ٢)

إن أى فرد يوجه انتباهه إلى المنصر عبر المتوافق فى الحياة الإنسانية ، قد نلتبس له العذ إذا ما وقع فى تناقض . فليس هناك ، فى مجال التطبيق ، نعمة واحدة من النعم المفروضة فى الحياة تمنح للكائنات البشرية بشكل مطلق ، وكذلك ليس هناك شر من الشرور يقع بشكل مطلق دون أن يكون له مخرج من الخير . ويمكن أن ندرك بيان هذا بتوجيه الانتباه إلى الأحداث الماضية ، ولا سيما تلك الأحداث ذات الأهمية البارزة . فإن ضخامة القوى التى استخدمت فى حملة كسر كسيس ملك الفرس ضد هيلاس تلقى ضوءاً على الخطر الرعب على المجتمع الهليني . إن السباق الذى فرض على الهلينيون أن يقاتلوا فيه لم يكن سوى العبودية أو الحرية ، فى حين أن المجتمعات الهلينية فى آسيا التى كانت قد وقعت بالفعل فى العبودية أثارت فى كل ذهن احتمال أن المجتمعات فى هيلاس سوف تواجه المصير ذاته ، وأياً ما كان الأمر ، فسنجد وقت الحرب ، على غير ما هو منتظر ، فى نتيجتها الدهشة ، لم يجد سكان هيلاس أنفسهم غير بعيدين عن الأخطار التى تهددهم فحسب ، وإنما وجدوا أنفسهم يمتلكون إلى جانبها الشرف والمجد ، بينما كان كل

مجتمع هلىنى قد عىء بئىل هءه البءوءوءه لءءءه أن العالم بأسره كل منءهءنا إزاء الكمال الذى انكس إىله الوقف .

وءلال نصف القرن الذى أعقب هءه الحقبة ، خطت هىلاس خطوءات واسة نموء الرءاء . وءلال هءه الفءرة فإن آثار البءوءوءه الءءءءه ظهرو فى ءءءم الفنون والفءانبن بمءمة أكثر مما سءءه ءارىء؁ فمن ءال « فىءباس » Phidias الذى لم فى ذلك الءبن . وكان هءاك بالءل ءءءم بارز فى الءال الذهبى ؁ ءىء ءءروء فىها الفلسفة والءطابة إى شرف ءاص على نطاق العالم الءلىنى ولا سىا فى أءىنا . فى الفلسفة كانت هءاك مءرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو ؁ وفى الءطابة كلن هءاك أعلام أمءال « بركلس » و « إىسقراط » Isocrates وءلامىءه ؁ وقد رجءت هءه على أىءى رءال أءمال نوى شهرة عسكرىة ؁ أمءال « ملىاءىس » Miltiades و « ءىمىسءوكلس » Themistocles و « أرسءىءىس » Aristides و « كىمون » Cimon و « مىرونىءس » Myronides وصف طوبىل من الأسماء الأءرى أكثر من أن ىذكر . وفى مءءمة هؤلاء ءىمىا ؁ أءرزء أءىنا انءصار المءء والبسالة ءءى إن اسمها ءاز شهرة عالىة واسة . لءء زاءء من سبطوءها إى ءءءه أنها ءطمت ؁ بمصاءءها الءاسة وءون مؤازرة الأسبرطىبن والبلىبونىزىبن ؁ مقاومة القوى الفارسىة على البر والبءر وءطمت من هىبة الإمبراطورىة الفارسىة ءءى إنها اضطروءها إى أن ءءءو بمءءفى مءاءة عن ءىعم المءءمعات الءلىنىة فى أسىا .

ءأىر قوءه البءر على ءارىء

(أنونىموس^(١) Anonymous عرف فى ٤٦٠ - ٤١٠ ق م) أنظمة أءىنا طبعة ءوبىز ءءءىق كالىنكا E. Kalinka ١٩١٣ : الفصل ٢ . فقراء ٢ - ٨ و (١١ - ١٦) .

(١) مءفوظ بن الأعمال الصغرى لـ (كىنوفون)؁ الذى أثبء بالءللىل الباءل أنه لىس المؤلف الءقى (الءقى)

لقد وهب الحظ الأثينيين ميزة يمكن أن تقررها في العبارات التالية : كان السكان ، رعايا إمبراطورية برية في وضع يمكنهم من توحيد موارد عدد من المجتمعات الصغيرة وأن يشتركوا في حرب التحرير ، بينما رعايا أي إمبراطورية بحرية ، وهم إلى حد بعيد سكان جزر ، لم يكونوا في وضع يمكنهم من تعزيز موارد المجتمعات المنزولة . لقد فصل البحر فيما بينهم ، وسيطرت عليهم الدولة السائدة ، وحتى لو نجح سكان الجرد في تركيز قواهم في جزيرة واحدة دون أن يكونوا محجوزين ، فليس أمامهم سوى الهلاك ، وكانت المجتمعات البرية ، إلى أبعد حد ، تحت سيطرة الأثينيين ، ينظر إليها على أن القسم الأكبر منها يسير في الخوف ، والأقلية تدفعها الحاجة . وما من مجتمع يمكن أن يحيا دون واردات وصادرات ، وهذه سوف يسكرها أي مجتمع لا يخضع لسيادة البحر . وكذلك ، فإن سادة البحر كانوا في وضع (كما هي الحال مع الدول البرية فقط) يمكنهم من أن يدمروا إقليم دولة أقوى . ويمكنهم أن يعضوا قدماً حيث لا تمسك قوات معادية أو على الأقل قوى ضعيفة ، ويمكنهم من أن يواصلوا الإبحار بقرب التحصينات . ويمكن للدولة البحرية أن تستخدم هذه الاستراتيجية بارتباك أقل من الدولة التي تسعى إلى أن تركز الهدف نفسه على البر . وكذلك فإن سادة البحر في وضع يمكنهم من أن يعملوا بأسطولهم إلى مسافة بعيدة عن قواعدهم كما يرغبون ، بينما لا يمكن للقوى البرية أن تتحرك إلى مسيرة أيام كثيرة من إقليمهم الأصلي . وفي العمليات البرية ، تكون التحركات بطيئة ومن المستحيل حل مؤن كافية لحملة طويلة الأمد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الجيش الذي يعمل على البر عليه إما أن يتحرك عبر أقاليم موالية وإما أن يقاتل لمسافة ما ، وفي حين أن القوة البحرية يمكن أن ترسو حيث تجد التفوق إلى جانبها ، وهي ليست مضطرة إلى أن ترسو عند نقطة يكون فيها التفوق إلى الجانب الآخر ، ويمكنها أن تواصل إبحارها حتى تجد نفسها في أقاليم صديقة أو في سواحل دول أقل قوة .

وكذلك ، فإن النتائج السيئة التي تعود إلى الظروف الجوية تحمل بشكل ماحق حتى على أقوى الدول البرية ، بينما يمكن للدولة البحرية أن تتجنبها في يسر . ولا تصيب النتائج السيئة العالم كله ، وعلى هذا فإن سادة البحر قادرون دائماً على

أن يجذبوا إليهم الناطق التي لم تحل بها النتائج السيئة . وإذا ما غمرت بالانحدار إلى تفاصيل صغيرة ، فينبغي على أن أضيف أن السيطرة على البحار مكنت الأثينيين بالدرجة الأولى ، من أن يكشفوا تهدياً للرجد خلال علاقاتهم الخارجية الواسعة . وقد تجمعت رقة صقلية وإيطاليا وقبرص ومصر وليديا ^(١) والبحر الأسود وبليونيوزيا أو أى بلد آخر ، تجمعت على صعيد واحد بفضل السيطرة على البحر . وكذلك فإن ألنتهم مع كل لغة منطوقة تحت الشمس قد مكنت الأثينيين من أن يختاروا هذا التعبير من اللغة وهذا الشكل أو ذاك ، ونتيجة لذلك استمتع الأثينيون بمحاضرة كونية أسهم فيها سائر العالم الهليني وغير الهليني ، في مقابل الهلينيين الآخرين الذين كانوا يحفظون ، كقاعدة عامة ، لهجتهم المحلية وطرائق حياتهم وأزيائهم .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الأثينيين هم الأمة الوحيدة ، هيلينية أو غير هيلينية ، التي هي في وضع يمكنها من أن تجمع الثروة ، وإذا ما حدث وكانت بلد غنية بأخشاب السفن ، فأى سوق لها ، إذا ما فشلت في أن تسود البحار ؟ وكذلك ، إذا ما حدث ، وكان بلد غنى بالحديد والنحاس أو الكتان ، فأى سوق لها ، إذا ما فشلت في أن تجد مصلحتها في الاتجاه نفسه ؟ إلا أن هذه هي بالتحديد المواد الخام التي أبى منها سفنى — فإن الأخشاب تأتي من مورد واحد ، والحديد من مصدر ثان ، والنحاس من مصدر ثالث ، والكتان من مصدر رابع ، والقنب من مصدر خامس . وبالإضافة ، سوف يرفضون السماح بتصدير هذه السلع إلى الأسواق الأخرى ، أو أولئك الذين يفضلون معارضة رغباتنا سوف يزاحون عن البحر . وهكذا ، فأنا الذى لا أنتج إحدى هذه السلع في إقليمى الخاص ، أمتلكها عن طريق البحر بينما لا يوجد بلد آخر يمتلك واحداً أو اثنين منها في وقت واحد . والبلد نفسه لا ينتج الأخشاب والكتان ، فالتربة جرداء ولا أخشاب فيها وحيث لا قنب . وكذلك فإن بلداً واحداً لا ينتج الحديد والنحاس كما لا يوجد اثنان من هذه الخامات أو ثلاث مواد في بلد واحد ، وإنما توجد دائماً مادة هنا ومادة هناك .

(١) الراى الحديث لايدن Aidin في الأناضول الغربية (المحقق) .

وكذلك ، فبالإضافة إلى هذا ، فإن أى ساحل يرى له رهوس أراضى قائمة
فى البحر أو جزر قريبة من الشاطئ أو ممرات ضيقة تقدم لسادة البحر نقطة
ارتكاز يمكن أن يرسوا عندها ويلحقوا الضرر بالسكان البريين .

وأيأ كلن الأمر ، فهناك شيء واحد ، يفترق إليه البر والبحر . فلتفترض أن
الأتينيين قد سيطروا على البحر وباشروا أعمالهم من قاعدة جزرية ، فإنهم كانوا
يتمكنون من أن يمدثوا أخطاراً كثيرة دون أن يخشوا أى انتقام (بسبب رؤية
إقليمهم مدمراً أو معرضاً لغزو العدو) ، ما داموا يحتفظون بالسيطرة على البحر ،
وفى الظروف الراهنة ، فإن المصالح التى أرسيت وأصبحت خاصة بأتينا ، أيأ ما
كان الأمر . تميل كثيراً إلى أن تدلل للعدو ، بينا البروليتاريا ، التى تدرك تماماً
أنه ليست لديها ملكية خاصة معرضة للحريق أو الدمار ، تعيش فى أمان وترفض
المنضوع للعدو . وكان يمكن أن تظل فى أمان من أى قلق ما دامت تسكن
الجزر . وليس عليهم أن يخافوا خيانة الأقلية للمدينة أو فتح البوابات غيلة ، أو
المعجوم المبالغ من العدو (وهى أحداث كلن من شأنها ألا تحدث فى بلد غير
جزرى) أو أى اضطراب داخلى مع البروليتاريا (الذى لا يوجد مثيلها فى دولة
الجزيرة) . وفى الوضع الراهن ، إذا ما حدث وشبت اضطرابات داخلية ، يمكن
أن يتوقفوا تأييد العدو لها ، وسوف تسمى قواتهم إلى أن تدخل عن طريق البر ، مما
يدفع السخط إلى حد المسيان . وفى دولة الجزر ، ليس عليهم أن يضعوا كل هذه
الأمور فى الحسبان . وأيأ ما كان الأمر ، فلم يحدث أصلاً أن اختاروا جزيرة موطناً
لهم ، أو أخذوا لهذه الأمور الاحتياط الكافى . فقد أودعوا أملاكهم فى الجزر ،
بثقة كاملة فى علو شأنها البحرى ، وعارضوا فى تدمير إقليمهم فى أتينا ، وهم على
يقين ، كما حدث ، أنه فى وسهم فقط أن يظهروا اعتباراً إلى أتينا مقابل تضحية
مصالحهم ذات الأهمية الباتنة .

الطاعون في أثينا (٤٣٠ ق. م)

(توكوديديس : الكتاب الثانى . الفصول ٤٧ - ٥٣)

فى وقت مبكر من الصيف التالى ، غزا البليونيزيون وحلفاؤهم أتيكا بثلى قواتهم تحت قيادة «أرخيداموس» Archidamus «بن زيوكسيداموس» Zeuxidamus ، ملك الإسبرطيين ، كما فعلوا فى العام الذى قبله ، وراحوا يدمرون البلاد . ولم يكن قد مضى عليهم أيام كثيرة فى أتيكا قبل أن يهاجم الطاعون الأثينيين . وكان من المفروض أن هذا المرض قد شب من قبل فى (ليمنوس) Lêmnos وفى أماكن أخرى كثيرة ، ولكن لم يسمع من قبل أو فى أى مكان بهذا الوباء على هذه الدرجة والذى من التخريب . وفى البداية ، كان الأطباء عاجزين تماماً عن مقاومته ، وذلك لجهلهم بطبيعته ، وتزايدت حوادث الوفاة فيما بينهم ، لأنهم عرضوا أنفسهم أكثر مما يجب للعدوى . فلا الدواء ولا أى علم دنيوى آخر كان فى مقدوره مواجهة الآلام ، حتى ولاشفاعات الصليين ومشورة الأنبياء والالتجاء إلى الدين ، فقد ثبت أيضاً أنها لا حول لها ، فأصبح الأثينيون أخيراً غارقين فى الآلام حتى فقدوا إحساساتهم .

وكان المفروض أن الوباء قد بدأ فى السودان المصرى ، ومن هناك رحل إلى مصر وشمال أفريقيا والجزء الأكبر من البقاع الفارسية . واكتسح فى طريقه الأثينيين الفاعلين . وحدثت الحوادث الأولى فى (بيرايوس) Peiræus التى نشأت على أرضها رواية تقول بأن البليونيزيين سموا مخازن المياه (لم تكن الآبار الراهنة موجودة) . وبعد ذلك اتخذ الوباء طريقه من الميناء إلى المدينة . وزادت حالات الوفاة . وسوف أتذكر لكتاب آخرين ، عتريين أو هواة ، أن يسجلوا تأملاتهم فيما يتعلق بأصل المرض وحالاته (إذا ما كان يمكن اقتراض الأسباب بقدرة كافية فى حساب اضطراب بالغ فى نظام الطبيعة) ، وسوف أقصر روايتى على وصف موضوعى ، ولا سيما الأعراض التى من شأنها أن تساعد أولئك الأخصائيين فى تشخيص الطاعون بشكل صحيح إذا ما قدر له أن ينتشر مرة أخرى . واستطيع

أن أقوم بهذا بشكل ممتد، لأننى أنا نفسى قد هاجنى الطاعون ورأيت كيف أنه صدع ضحايا أخرى .

ومن الحقائق التى كان مسلماً بها أن السنة التى جاء فيها الطاعون كانت خالية بشكل استثنائى من الأمراض الأخرى ، بما فيها حالات توعك المزاج السابقة . فالأشخاص الذين فى محبة عادية هاجهم المرض بشكل لا يحصى دون سابق إنذار . وكانت الأعراض الأولى حمى عنيفة فى الرأس واحتقاناً فى العيون ويتبعها مباشرة داخل الفم تغير اللون الى الأحمر القانى فى الحلق واللسان ورائحة كريهة فى التنفس بشكل غير عادى . ويلي ذلك من الأعراض عطش وذبحمة فى الصوت، وتسرع العدوى الى الصدر ، حيث تظهر على هيئة سعال عنيف . والحالات التى تصيب المعدة تلتفها تماماً وتفرز المرارة كل ما يصنعه الداء الناشئ عنها، كل هذا مصحوب بضيق حاد. ولقد هوجم معظم المرضى تبهوع لآثاره له يسبب رعشة عنيفة ، ويسبب فى بعض الأحيان القيء . إلا أن هذا لم يحدث فى حالات أخرى . ومن الناحية الخارجية لم يكن الجسم فى درجة حرارة مرتفعة عن الحرارة العادية ولم يصب فى سطحه الخارجى باليرقان ، إلا أنه كان محمراً ، أزرق اللون مغطى بطفح جلدى مع بثور وقرح صغيرة . وأياً ما كان الأمر ، فإن درجة الحرارة الداخلية كانت مرتفعة بشكل مؤلم الى درجة أن المريض لم يستطع تحمل لس أخف الأشياء ، حتى الكتان ، على الجسد العارى ، ويود أن ينطس فى الماء الثلج . وألقى كثيرون من الذين أهملتهم الرقابة بأنفسهم فى موارد المياه ، وهلكوا من عطش لا يروى - رغم أن الحال لم يتغير سواء شربوا كثيراً أو قليلاً . ولم يكن هناك من البداية الى النهاية فكاك من رعب الأرق وعدم القدرة على الراحة . ولم يطل الوقت حتى بلغ الهجوم ذروته، إن الجسد لم يفلح إلا أنه أظهر قوة لم تكن منتظرة للمقاومة . وبعد ذلك ، فإن المريض سواء استسلم كما يحدث عادة (للحمى الداخلية فى اليوم التاسع دون أن يفقد حيويته البدنية تماماً ، أو اذا مات مخطئ هذه المرحلة ، فإنه يجد أن المرض قد هبط الى الأمعاء ، التى تصبح فى حالة احتقان عنيف مصحوب بهجمات إسهال عنيفة . وفى هذه المرحلة الثانية ، فإن أولئك الذين ظلوا على قيد الحياة يقعون فى بداية الأمر فريسة الإسهال ،

وبعد إصابة الرأس ، يأخذ المرض طريقه الى الجسد كله ، وعندما يعيش الجسد خسلال الأجزاء الحيوية ، فإنه يترك آثاره على الأطراف . إنه يهاجم أصابع الأيدي ، وأصابع الأقدام والأجزاء الخاصة ، ويخرج الكثيرون من المرض وقد فقدوا هذه الأعضاء ويفقد البعض بصره . ويصاب آخرون خلال فترة النقاهة بفقدان مؤقت للذاكرة بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يعرفوا تماماً على أصدقائهم ونسوا هويتهم الخاصة . وفي الحقيقة ، فإن رعب المرض يفوق الوصف . لقد كان كارثة فوق احتمال البشر ، ومن طبيعته الشاذة ، أن الطيور والحيوانات التي طعمت من جيفة الإنسان ، اما أن تبتمد عن الجثث ، وإما أن تموت منها . وتتضح الحقيقة من اختفاء جثث الطيور في ذلك الوقت . إذ لم يرها أحد تأكل أو لم تشاهد على الإطلاق ؛ إلا أنه كان من اليسور ملاحظة الظاهرة في حالة حيوان أليف كالكلب .

لقد وصفت الطبيلة العامة للمرض دون المضي في تفاصيل لاحصر لها حول صفاته وتنوعها في حالات انفرادية . وخلال انتشاره كانت هناك مناعة من الملل العادية ، وإذا ما ظهرت إحدى هذه الملل فإن المناعة تحصرها . وتعود بعض حالات الوفيات الى الإهمال ، إلا أن المرضى الآخرين ماتوا على الرغم من التمريض الفائق . ولم يكتشف علاج يمكن أن يستخدم بالذات ، لأن العلاج الذي نجح في حالة ما أحدث وفاة في حالات أخرى . ولم تكن هناك بنية ضعيفة أو قوية محصنة ضد الهجوم . لقد اقتلع المرض كل مصادفه وأفسد كل علاج . إن الكثير مصيبتين مرعبتين هما اليأس الذي يهبط على كل من يشعر بالمرض (وهو نوع من اليأس السريع الذي يقوض مقاومة الضحايا ويتركهم فريسة سهلة للمرض) والصيبة الأخرى هي عدوى السليم من المصاب ، مما يجعل الناس يموتون كالأنعام وحدثت وفيات كثيرة بسبب العدوى . وحيثما يرفض السليم أن يقترب من المريض خوفاً من العدوى ، فإن المريض يموت بلارعاية ، ويحصد الموت سائر أهل المنزل لآخر واحد إذ لم يكن يوجد أحد يقوم بالتمريض . ومن جهة أخرى ، عندما يهبون لمساعدتهم كان هؤلاء يموتون أيضاً ، وقد عانى الناس في أى مستوى سلووكي للأميرين

بهذا الصدد ، مادامت مشاعرهم النبيلة دفعتهم الى أن يضعوا بأنفسهم وعضوا
في تمرير أصدقائهم بينا كل الرعب يخيم . فالأقارب الموتى غالباً ما يتمزقون
من الأبن ويختلون مراكزم . وكان أبرز المتطافين مع المرضى والموتى هم من في
دور النقاة ، فهم يتحققون مما يمايه المرضى وليس لهم ما يبخشونه على أنفسهم ،
إذ أن الشخص نفسه لا يهاجمه المرض مرة أخرى هجوماً قتلًا . لقد تلقوا
التهنئة من كل إنسان ، وملاًهم غرور اللحظة الراحنة بأمال كاذبة عن بقائهم في مناعة
دائرة من الموت من أي مرض .

وزاد هول الألم بتركيز السكان الريفيين في المدينة ، ولاسيما في اللاجئين أنفسهم .
ولم تكن هناك بيوت للأوام ، وتكدسوا في أكواخ خائفة في جو هذا الصيف .
ولم يكن هناك حدمين لو فاتهم . وتكدست جثث الموتى الواحدة فوق الأخرى ،
بينما البؤساء الذين يمانون سكرة الموت تصوروا في الشوارع وتكاثروا حول جميع
الناحورات يتطلعون بئس إلى الماء . حتى أما كن العبادة التي كان يستريح فيها
الجنود امتلأت بأجساد من مات في النجوم ، لأن الرعب كان يتدفق بشكل كبير حتى
إن الشعب لم يعرف كيف يواجهه وفقد كل اعتبار للوصاية المقدسة أو الدنس .
واقبلت للرسم الجنائزية للألفة ، إذا أنهم دفنوا موتاهم بأفضل ما في وسعهم ،
وفقد الكثيرون كل إحساس باللياقة إزاء الضائقة التي وصلوا إليها بسبب عدد
الوفيات في فويهم . ووجد بناء المحرقة أنفسهم محتجزين من الآخرين ، الذين
يضمون موتاهم عليها ويشطونها أو الحالين الذين يلقون بالجثمان على كومة محترقة
ويجرون بسرعة .

وفي الحقيقة ، فإن الطامون أعطى باعثاً لكل نزع غير اجتماعية في أثينا .
فاقرجت الأحاييل والراوغات التي أحاطت من قبل بأنواع مينة من السلوك
تحت وطأة تقلبات الحظ السريعة . وانطلق الخير في يريق العين ووهب الفلاسون
ممتلكات على حين فجأة . أما الأخلاق التي لافسك منها فكانت أن تعرف
بسرعة وأن تصرف على اللهو ، مادامت الحياة والثروة من أمور الساعة . واختفت

رغبة الاحتفاظ بأساليب الشرف المعروفة ، / خلال عدم التأكد من أن الموت
سوف يحل قبل تحقيق الهدف ، وانقضت اللفة انؤفة وكل ما يستصل بها مكان
الشرف والخير . أما مخافة الله وتقاليد الإنسان فقد كفت عن أن تؤول قدسيها .
مادام الموت يحل بالعدل وغير المادل ، وبدا الأمر على أنه ليس هناك محل للاختيار
بين التقوى والكفر ، ولم يتوقع المجرمون أن تنقذهم الحياة حتى يقتص منهم ،
وأحسوا بأن عقاباً قد حل بالفعل على رؤوسهم وأن الحياة يجب أن تسمح يعض
النتة قبل أن يحل بهم الضربة .

الجزء الثالث

فن التاريخ

القسم الأول

مسائل فنية

الإشكال الزمني حول هرقل

(هيرودوت : الكتاب الثاني . الفصل ٤٣ - ٤٥)

لقد سمعت ، فيما يتعلق بهرقل ، أنه من المقرر في مصر أنه كان واحداً من الآلهة الاثني عشر ، إلا أنني لم أنجح أبداً في العثور في مصر على أثر عن (الهرقل الآخر) الذي يأنفه الهلينيون . ومن المؤكد أن المصريين لم يأخذوا إطلاقاً الاسم من الهلنيين وإنما الهلينيون هم الذين أخذوا الاسم عن المصريين ، وقد تم هذا على أيدي الهلنيين الذين أطلقوا اسم « هرقل » على ابن « أمفريون » Amphitryon . واحد الأداة الكثيرة على ما وجدته مقنناً في هذه المسألة هو أن أبوي « هرقل » أمفريون والكمينا Alcmena ، كانا يتحدان من مصر ، وأن المصريين يتكرونها كل معرفة بأسماء « بوسيدون » Poseidon « وديوسكوري » Dioscuri ، ولم يصرف الباشيون Pantheon المصري بهذه الآلهة الأخيرة ، في حين أنهم ، إذا كانوا قد أخذوا اسم أي إله من هيلاس ، كان لهذه الآلهة الثلاثة أن يحدث انطباعات في ذكرياتهم . واعتقادي الشخصي ، أن الحكم الذي له وزن هو أن المصريين في تلك الفترة ، كانوا يجوبون البحار وأن هذه الآلهة الثلاثة كانت من عناصر الملاحة في هيلاس — وهي ظروف من شأنها أن تجعل أسماء هذه الآلهة مألوفاً للمصريين أكثر من اسم هرقل ^(١) . وأما كان الأمر ، فقد كان لدى المصريين إله قديم خاص بهم يدعى « هرقل » يدخلونه في زمرة الاثني عشر إلهاً وقد وضع Eight هذه الآلهة الاثني عشر في الألف السابقة قبل حكم « أمازيس » ^(٢) Amasis .

(١) كان بوسيدون وديوسكوري الهما الهلنيين الثلاثة (المحقق)

(٢) ٥٦٩ - ٥٢٥ ق . م (المحقق) .

ورغبة في أن أحصل على معلومات دقيقة حول هذه السائل من أولئك الذين هم أهل لتقديرها ، أبحرت إلى (صور) في فينيقيا ، حيث سمعت أنه كان هناك ضريح نذر لهرقل . ووجدته مزينا بشكل فاخر بعدد كبير من النذور ، وبه عمودان ، أحدهما من الذهب الخالص والآخر من الزمرد (ويظل العمود الأخير لامعاً مضيئاً في الظلام) ودخلت في حديث مع كهنة الآلهة وسألهم عن التاريخ الذي أقيم فيه الضريح ، وعلت عندئذ أنهم ، لا يقولون عن المصريين اختلافاً مع الهلنيين . إذ إنهم أخبروني أن تأسيس الضريح يعاصر تأسيس (صور) نفسها ، وهو تاريخ يعود إلى ٢٣٠٠ سنة مضت .

وفي صور ، شاهدت ضريحاً ثانياً لهرقل يطلق عليه (هرقل الثاسوسي) Heracles of Thasos . وفي (ثاسوس) نفسها (التي زرتها أيضاً) اكتشفت معبداً لهرقل أقامه في الأصل الفينيقيون الذين استعمروا الجزيرة خلال رحلة قاموا بها بحثاً عن « يوروبا » ^(١) . — وهي حادثة سابقة بخمسة أجيال على مولد هرقل ابن « أمفترين » في هيلاس . وتبين نتائج أبحاثي بوضوح أن هرقل كان إلهاً قديماً ، وفي رأيي ، أن الإجراء الأكثر صحة هو ذلك الذي اتبعه الهلينيون الذين أقاموا أضرحه مزدوجة لهرقل وحافظوا عليها ، وشرفوا بها من حمل الاسم على حدة باثنين من الطقوس المتميزة ، — أحدهما خالد وهو يدخل في زمرة سكان الأوليمب ، والآخر يدخل في زمرة القديسين ^(٢) . والهلينيون الذين يقترفون عبارات سيئة التقدير ، يسردون على الأخص أسطورة طفولية تتصل بهرقل . تدور حول الوقت الذي زار فيه هرقل مصر ، وعندما أخذه المصريون ضحية وقادوه في موكب رزين ليقدموه قرباناً إلى « زيوس » . لم يسد البطل أى مقاومة ولكنه عندما تأهبوا لوضعه على المذبح ، قاوم في سبيل حياته وأتى لآخر رجل وفي رأيي ، أن القصة تنصح عن الجهل الكامل من جانب الهلنيتين بطبيعة

(١) كانت يوروبا، حسب أسطورة الهلنيتين، أميرة فينيقية اختطفها الإله زيوس وهو في شكل

ثور وحلبا لك كريت (الحق)

(٢) « جل » في اليونانية (المحقق) .

المصريين وأنظمتهم . فأن الذبائح الحيوانية ، عند المصريين ، بمثابة (تابو) فيما عدا الأغنام والثيران وتاج الثيران . ومن هنا . فليس من المقول أن يقدم المصريون ذبائح بشرية . وكذلك حسب افتراض الهلينيين فهناك هرقل واحد ، وهذا الفرد الوحيد كان كائناً بشرياً ، والفكرة القائلة بأنه ذبح عشرة آلاف لا تتفق مع مجرى الطبيعة . وبهذا أختتم ملاحظاتي حول الموضوع — الذى أثنى إزاءه بأنه لا الآلهة ولا القديسون يحملونى رغبة فاسدة .

تقويم مصرى وتقويم هلىنى

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٤٢ — ١٤٦)

وعند هذا الحد من روايتى ، كانت مصادرى هى المصريين وكنهتهم ، الذين حسبوا الفترة من أول ملك حتى كاهن « هيفاستوس » *Hephaestus* ، ويشتمل حكمهم على سلسلة من ٣٤١ جيلاً ، مليئة بهذا العدد الدقيق من كبار الكهنة والملوك على التوالي . وتقدر الأجيال الثلاثمائة الآن بـ ١٠٠٠٠ عاماً^(١) ، بينما الواحد والأربعون جيلاً الباقية ، بالإضافة إلى الأجيال الثلاثمائة ، تكون ١٣٤٠ عاماً ، وفى عبارة أخرى فإن المصريين يؤكدون أنه بالنسبة لـ ١١٣٤٠ عاماً ، لم يكن هناك إله يتجسد فى شكل إنسان — وهى ظاهرة لا تمرى بطبيعتها ، فيما يتعلق بهذا الموضوع إلى أى من ملوك مصر الباقين ، سواء كانوا سابقين على هذه الفترة أو لاحقين لها . وخلال الفترة موضع البحث ، يؤكدون أن إله الشمس قد تحول عن مكانه السابق فى أربع مناسبات — وهناك دورتان تحول فيها فكان يغيب حيث يشرق الآن ويشرق حيث يغرب الآن^(٢) . وأضافوا أن هذه الثورات الفلكية لم تحدث أى تغيير فى الظروف البيئية لمصر ، كسائل خواص التربة أو النهر ، وحالة الصحة العامة ومعدل الوفيات .

(١) ثلاثة أجيال مائة عام (المؤلف)

(٢) إشارة مضطربة إلى الدورة الفلكية من التقويم المصرى ، ومن المفروض أن يبدأ الشهر الأول يوم بزوع كوكب الشمس (سوس) وهو تاريخ يتكرر فعلاً مرة كل ١٤٦٠ سنة فلكية (الحق) .

وقد حدث قبل زمانى أن زار « هيكاتيوس » Hecateus^(١) طيبة
Thebes وشرع فى سرد نسبه الخاص ، حيث ربط فيه أسلافه بالآلهة فى الجيل
السادس عشر ، وحيث فعل معه كهنة « زيوس » ما فعلوه معى من قبل ، على الرغم
من أننى أحجمت عن أن أخذو حذوه . لقد أخذوه إلى البهو الداخلى الكبير
للمعبد وعرضوا فى حضرته سلسلة من التماثيل الخشبية يصل عددها إلى الرقم الذى
ذكرته . وكانت هذه هى عادة كل كاهن كبير أن يقيم له شيئاً إبان حياته فى هذا
البنى . وقد استعرض الكهنة هذه التماثيل مرة أخرى فى حضورى ، وزعموا
وجود تسلسل غير منقطع من الأب إلى الابن ، وكان الإجراء الذى قاموا به هو
أن يبدأوا من تثال الكاهن المتوفى مؤخراً حتى يأتوا على نظائر السلسلة كلها .
وأياً ما كان الأمر ، فعندما كان « هيكاتيوس » يسرد نسبه ويربط نفسه بإله الجيل
السادس عشر ، لم يكونوا قانعين بإحصاء التماثيل وإنما سردوا أنسابهم هم فى مقابل
أنسابه ، حتى يظهروا تشككهم فيما يتعلق بتأكيد أن إنساناً ما من نسل الله .
وكان منهجهم فى سرد أنسابهم المقابلة هو أن يعلنوا أن كل تثال كان « بكرأ »^(٢)
أوجده « بكر » حتى أوجدوا نظائر لـ ٣٤١ تماثلاً ، ورفضوا أن يربطوها
بإله أوفديس . وكانوا ، بالطبع ، يزعمون بأن سائر سلسلة الأفراد التى تمثلها
التماثيل كانت كائنات بشرية ، وهى جميعاً بعيدة عن الآلهة . وأياً ما كان الأمر
فهم يسلون بأنه قبل زمن هؤلاء الرجال ، فإن حكام مصر كانوا آلهة يسكنون
بين البشر ، وكان يحكمهم أحدهم دورياً . وطبقاً لروايتهم ، فإن آخر ملك — إله
فى مصر كان « حورس » Horus بن « أوزيريس »^(٣) Osiris الذى يطلق عليه
الهليونىون « أبولون » Apollo .

وكان من المفروض أن يكون أصغر الآلهة فى هيلاس هم « هرقل » و

(١) راسد مبكر وراوى للأنساب من (ميليتوس) المدينة الهلينية (عرف فى القرن
السادس ق م) — المحقق

(٢) Piromis فى المصرية قابل الكلمة اليونانية (السيد) — المؤلف

(٣) Horus هو آخر ملك فى سلسلة الملوك الذين ارتقوا العرش فى مصر بعد الإطاحة بـ

« نيفوس » والكلمة اليونانية « أوزيريس » هو « ديونيسوس » — المؤلف

« ديونيسيوس » و « بان » Pan بينا « بان » في مصر هو أعظم مجموعة الآلهة الأولى قديماً « ضمن » و « هرقل » من المجموعة الثانية « الاثني عشر » و « ديونيسيوس » من المجموعة الثالثة التي تنحدر من « الاثني عشر » وقد أصبح التاريخ الذي وضع فيه المصريون « هرقل » بالإشارة إلى حكم « أمازيس » ضحاً فحلاً . أما تاريخ « بان » فهو مبكر عن ديونيسيوس آخر الثلاثة ، على الرغم من أن الفترة التي تفصل ديونيسيوس من حكم أمازيس تقدر بـ ١٥٠٠ عاماً ويعلم المصريون أنهم يعرفون هذه الوقائع بالتأكيد خلال سلسلة غير منقطعة من الإحصائيات والسجلات التقويمية وفي مقابل هذا فإن « ديونيسيوس » هو الذي زعم أنه ابن « سيميل » Some « ابنة » كادموس Cadmus الذي عاش منذ ١٠٠٠ عام قبل على وجه التقريب وعاش « هرقل » ابن « الكمين » منذ ٩٠٠ عاماً ، « وبان » ابن بنيلوب^(١) Penelope ٨٠٠ تقريباً ، أو لم يعيش قبل الحرب الطروادية بكثير . وعلى القارى أن يأخذ من هذه التواريخ المتعارضة ما يجده أكثر امتناعاً . أما تمحيب الشخصى على الموضوع فقد أوضحتها فحلاً . وإذا ما كان الاثنان الآخران ، والذان أقصد بهما ديونيسيوس بن « سيميل » و « بان » « بنيلوب » ، فقد أوجدوا أنارهم وعاشوا حتى نهاية أيامهم في هيلاس ، مثل هرقل بن أمفترين ، ويمكن الجدل بأن الهلينيين الذين يحملون هذه الأسماء كانوا بالمثل أناسا اكتسبوا الأسماء من أسلافهم وسماوا الإلهين المصريين . وإيا ما كان الأمر ، فإن الهلينيين يؤكدون أن « ديونيسيوس » بعد ولادته مباشرة ، التصق بفخذ زيوس ونقل « نيسا » Nyssa في جنوب مصر ، بينما كانوا غير قادرين أن يخبروك ماذا فعل « بان » مع نفسه عندما ولد . وعلى هذا فمن الواضح بالنسبة إلى أن الهلينيين تعلموا أسماء هذين الإلهين في تاريخ متأخر عن هؤلاء الآخرين ، وأنهم ، في حساب أنسابهم ، يؤرخون مولدهم من الفترة التي سموا فيها عنهم لأول مرة .

(١) حسب الرواية الهلينية ، وكانت أم « بان » هي « بنيلوب » ووالدهم نيريس .

دليل كتابي

(بوليبوس: الكتاب الثالث . الفصل ٢٦ - ١ - ٥ و ٣٣ - ١٧ - ١٨)

والكتاب الثاني عشر الفصل ١١ - ١).

لقد أوضحت الآن قسماً هذه المصادرات ^(١) ، ونصوص كل معاهدة محفوظة على ألواح ^(٢) البرنز ، في معبد زيوس على السكايتول ^(٣) في حجرة الوثائق ^(٤) . وعلى ضوء هذا ، فلكل شخص الحق في أن تمتلكه الدهشة إزاء المؤرخ « فيلينيوس » ^(٥) لا لجهله بالوقائع ^(٦) ، وإنما إزاء الوقاحة التي لاتصدق عندما يجرؤ على تأكيد نقيض ذلك ، ويزعم أن المعاهدات بين روما وقرطاجنة كانت قاعة وهي التي منحت الرومانيين من دخول أى جزء من صقلية ومنحت القرطاجينيين من دخول أى جزء في إيطاليا . وهو افتراض يستنتج منه أن الرومانيين انتهكوا وعودهم الموقرة عندما حلوا لأول مرة في صقلية ^(٧) . على الرغم من أنه ليس هناك مثل هذه الوعود المكتوبة التي تبين أن هذا قد حدث في وقت ما ، وهذا هو التأكيد الواضح الذي دونه « فيلينيوس » Philinus في مجلده الثاني . ولقد أشرت إلى هذه المسألة في مقدمة مؤلفي ، إلا أنني أرجأت تناولها إلى الفرصة الحالية . والتي أقوم بها الآن بشيء من التفصيل ، على ضوء أن كثيراً من دراسي التاريخ قد انقادوا إلى الخطأ في هذا الصدد بسبب اعتمادهم على عمل « فيلينيوس » . . .

وينبغي ألا يدهش قرأني إزاء دقة هذه العودة ^(٨) حتى على الرغم من أنني

(١) المعاهدات المبكرة بين روما وقرطاجنة (الحق)

(٢) بعض أجزاء المستندات الهلينية والرومانية (القانونية والدينية) حفرت على ألواح البرنز وبقيت من التاريخ القديم ، رغم أن النصوص المذكورة هنا ليست من بين العدد (الحق) .

(٣) جويتركايتولابيس (الحق)

(٤) كلية لضباط يختارون سنوياً في روما وكانت وظائفهم اقتصادية بحجة (الحق)

(٥) مؤرخ هيلني للحرب البونية الأولى (٢٦٥ - ٢٤٢ ق م) وكان من الواضح

أنه معاصرها (الحق)

(٦) ليس هناك ما يثبت على الدهشة في هذا ، على اعتبار أنه حتى في أيامنا فإن هذه

النصوص لم تكن معروفة لأكثر الدرسين اهتماماً بالشئون العامة ، بما فيهم أولئك الذين وهبهم عصرهم أكبر قدر من الذاكرة (المؤلف)

(٧) في عام ٢٦٤ ق م أول حلة في الحرب البونية الأولى (الحق) .

(٨) عودة القوة التي غزاها هانيبال في إيطاليا

قد وصفت إجراءات « هانيبال » في أسبانيا بتفصيل أكبر أكثر من السند الأول الذي يعرض الشئون الجارية التي مرت من بين يديه ، وينبئ ألا يدينوني كذلك دون أن يستمعوا إلى إذا ما سلكت بريبة كسلك المؤرخين الأفا كين عندما يرغبون في خلق انطباع بالحقيقة . وأن القاعة في ضريح (لا كينيوم) ^(١) Lacinium عن اكتشافي ، حيث وضعت في سجل من ألواح برزية بواسطة هانيبال ، في أثناء حملاته في إيطاليا . واثق باطمئنان في هذه الوثيقة ، وعلى الأقل في المسائل التي سردها ، والتي عزمت على اتخاذها هادياً لي .

وإذا ما كان صديقنا « تيمايوس » ^(٢) قادر أعلى أن يضع يديه على أية محفوظات عامة أو نصب تذكري تأييداً لرايه ، فهل لنا أن نقترح أنه فشل في أن يذكرها؟ إن « تيمايوس » هو المؤرخ الذي يقارن قاعة الدليل السنوي في (أسبرطة) مع قاعة الملوك (حتى عصور قديمة) ؛ وهو الذي يربط حكاه أمينا السنويين والكاهنات في (أرجوس) في أعمدة مقارنة مع الظافرين في الألعاب الأولمبية ؛ وهو الذي يعرض أخطاء الحكومات في سجلاتها الرسمية عن هذه العلومات ، التي يثبت فيها أن ثلاثة شهور غير دقيقة . مرة أخرى ، إنه « تيمايوس » الذي اكتشف السجلات على الجانب الخطأ من الباني العامة وقوائم القناصل الأجانب على أبواب المداخل الجانبية في الأضرحة

مكان الجغرافيا في التاريخ

(بوليبوس : الكتاب الثالث . الفصول ٥٧ - ٥٩)

والآن وقد أدت روايتي فيما يتعلق بـ وقيادة القوات المعادية والحرب ذاتها ^(٣) حتى اعتاب إيطاليا ، فإنني أرغب ، قبل أن أبدأ العمليات الحربية ، أن أناقش بإيجاز مسائل معينة غير مناسبة في عمل . إذ إنه من المحتمل أن يتوق بعض القراء

(١) ضريح شهير للربة (هيرا) في إقليم كروتون وهي عاصمة هيلنية في آخر إيطاليا (المحقق).

(٢) « تيمايوس » من تور وسيبوم (٣٤٦ - ٢٥٠ ق. م) مؤرخ هلني شهير

ضاعت مؤلفاته . ومعلوماته الرئيسية عنه مأخوذة من بوليبيوس ، الهجيات الطولية والنتيجة

عليه (المحقق) .

(٣) الحرب الهانيبالية أو (الحرب الثانية) بين روما وقرطاجنة (المحقق) .

إلى معرفة ماهي تلك السائل، بعد التوسع في جغرافية شمالى غرب أفريقيا وأسبانيا، ولم أسهب بالذات في مضائق جبل طارق، والمحيط الأطلنطى وظواهرها القريبة، والجزر البريطانية وصناعة التصدير، أو مناجم الفضة ومناجم الذهب في أسبانيا ذاتها - وهي موضوعات أفصح لها المؤرخون السابقون صفحات عديدة من المناقشة. والسبب عندى في طرح هذا الفرع من التاريخ جانباً لم يكن لأنه غير مناسب، وإنما لأنه غير مرغوب فيه، ففي المحل الأول، لأنه يقطع بشكل مستمر سياق الرواية ويحرف انتباه القارى الجاد عن موضوعى العمل، وفي المحل الثانى، هو قرار موضوعى بالأتناول هذه المادة بطريقة مستقلة أو عرضية. وإنما لأخصص لهذا الفرع مكاناً خاصاً ووقتاً خاصاً به وبعدئذ أقدم رواية لها بكل ما أملك من دقة. ولهذا يتبنى ألا يدهش قرائى، إذا ما وجدوا في الفصول التالية، أننى، عندما أصل إلى مناطق أخرى من الاهتمام الخاص بالجغرافيا، قد طرحت جانباً هذا الفرع من البحث - فقد وضحت مبرراتى لهذا الآن. وإذا ما أصر أى قارى على تلقي هذه المعلومات شيئاً فشيئاً، ومنطقة منطقة، فمن المحتمل ألا يكون مدركاً أنه بهذا يسلك مسلك النهم على المائدة. إذ إن النهم يتذوق كل طبق ولا يستمتع أصلاً بأى من المأكولات في لحظة أكله ولا يحصل على إيقاندة دأمة منها في طريقة المضغ والفداء، وإنما يحصل تماماً على عكس ذلك، وكذلك فإن القارى النهم يضر بنفسه، سواء كان هدفه التسلية المؤقتة أو التثقيف الدائم.

إن الحاجة الفعلية للتفكر الوثيق والإصلاح (في اتجاه دقة أكبر)، والتي يندرج تحتها هذا الفرع من التاريخ أكثر من أى فرع آخر، قد وضحت من اعتبارات عديدة، وسوف أذكر أكثرها إقتناعاً. إن سائر كتاب التاريخ تقريباً أو الأغلبية الساحقة على أى تقدير، سموا إلى وصف وضعية البلدان التي تقع على حدود العالم المأهول المعروف لدينا وخواصها، ووقت الأغلبية في عملها هذا في أخطاء لا حصر لها. وعلى هذا ليس هناك عند لطرح هذا الموضوع جانباً، ولكن بذات الوقت، مهما قيل في الرد على أسلافنا يجب أن يقال باتقناه كليل

ولا يقال بطريقة عارضة مشوشة . ويجب أيضاً ، ألا يقال بروح اللوم أو بنغمة التقرع . فمن الأسلم أن تمتدح جهودهم مع تصحيح أخطائهم ، مدركين أن أولئك المؤرخين لو كانوا قادرين على أن يفيدوا من الفرص الراهنة ، لتوفروا على تصحيح وإعادة ترتيب كثير من أعمالهم التي نشرت . ففي الماضي ، كان من المستحيل أن نشير إلى عدد أكثر من الهلنيين الرومقيين الذين سعوا إلى الإفادة من الأراضي المتاحة — وكان المائق هو عدم القدرة على تطبيق المشروع . وكانت مخاطر السفر بجرأاً وتشد لا يمكن حصرها بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، رغم أنها لم تكن سوى جزء من أخطار البر ولو نجح المسافر كذلك ، عن رغبة أو إكراه في الوصول إلى تخوم الأرض ، فإنه كان ما يزال معرضاً لعدم إكمال هدفه . وكانت أية ملاحظة أولية أخرى تلاقى صعوبات لأن بعض الناطق أصبحت أقل حضارة والبعض الآخر خالياً من السكان ، بينما الاختلاف في اللغات البشرية جعل من الصعب إدراك أية معلومات نتيجة البحث فيما يتعلق بالأهداف التي تقع تحت البصر . وأياً ما كان الأمر حتى عند إدراك هذه المعلومات ، فإن العمل الأكثر صعوبة منها جميعاً من وجهة نظر المراقب ، كان أن يزاول كبح جماح النفس لمقاومة إغراء العواطف والتجارة الفرية ، حتى يمتطي واجب الأمانة الأول إلى الحق وأن يقرر لنا الحقيقة كاملة ولا شيء غير الحق . وبالتالي ، فإن البحث التاريخي الدقيق في المواضيع السابق ذكرها لم تكن صعبة جداً بدرجة مستحيلة في الماضي ، وأبعد من أن تسحق اللوم لأخطائهم وقائصهم ، فإن كتاب اليوم قد يطالبون بحق برضائنا وإعجابنا بمثل هذه الوقائع كالتى يؤكدها وللدجة التي طوروا بها معرفة الموضوع الذى يوجد تحت ظروف معاكسة . وأياً ما كان الأمر ، ففي الأزمنة الحديثة ، نجد أن إمبراطورية الإسكندرية في آسيا وسيادة روما في كل مكان قد ذهبت تقريباً كل المالم للبر أو البحر ، بينما رجال الأعمال وجدوا أطماعهم تتحول من المهن الحربية والسياسية وقدمت لهم الظروف الجديدة تشهيلات هامة وعديدة للاستثمار والبحث في الموضوعات السابقة ، ولهذا فإنه محتم علينا أن نكسب معرفة أكثر ودقة أفضل في حقول لم يخطط لها من قبل وسرف أحاول أن أسهم من

جانبى فى هذه المهمة عندما أصل إلى حد ملائم فى مؤلفى لهذا الفرع من الاستقصاء وسوف آمل أن أدرب طلاباً جادين على الموضوع بطريقة مفهومة . وفى الحقيقة ، فإن هدف الرئيسى هو تمرير نفسى للآخطار التى أحصيتها فى رحلاتى فى أفريقيا وأسبانيا ، وأيضاً فى بلاد الغال Gaul وفى المحيط الذى يفصل شطآن هذه البلدان النائية ، وكان من شأنها أن تصحح جهل أسلافنا فى هذا الفرع من المعرفة وأن نجعل هذا الجزء من العالم مألوفاً للجمهور الهلنى كبقية الأجزاء الأخرى .

منهج الفصول المتعاقبة

(بوليبيوس : الكتاب ٢٨ الفصول ٥ - ٦)

إننى لست بغافل عن أن بعض القراء سوف يتقدون على أساس أننى قدمت رواية للأحداث غير كاملة ومشوشة - فتلاً ، عند المضى فى سرد حصار قرطاجنه أغفلتها فجأة فى الوسط ، وقطعت سلسلة أفكارى ومضيت أتابع تدابير هيلاس ، ومقدونيا وسوريا أو مناطق أخرى . وسوف يقال لى إن الدارسين الجادين يطلبون الاستمرار ويرغبون فى متابعة موضوع ما حتى ختامه - وهو المنهج الذى من شأنه أن يحصل على أقصى قدر من المكافأة ويقدم أكبر قدر من التعليم إلى القارى .

الليقت . أما من جهتى ، فإننى لأخالف هذا الرأى لحسب بل إننى أعزز الرأى المضاد ، تدعى لا أنا على استعداد لأن أطلق عليه دليل الطبيعة ذاتها . فإن الطبيعة لا ترغب ، فى حدود أى معنى على حدة أن تبقى بشكل مستمر على موضوع بذاته . إن الطبيعة هى الحامى المخلص للتغير ، وهى ، إذا ما مالت إلى موضوعات متشابهة ، فإنها تفضل أن تفعل هذا فى فترات ومن زوايا مختلفة ، وسوف تتضح قضيتى من زاوية السمع ، التى لا تميل إلى البقاء بشكل مستمر فى مراحل متماثلة ، سواء سمعت أو سرت ، ولكن التغيرات هى التى تنبها ، وبطريقة عامة ، أو أى شىء شاذ أو يتسم بالخان عنيفة وسريعة ، وبالتل ، فإن معنى الذوق سوف يكون غير جدير بالاحتفاظ به ، دون تغير ، حتى بالنسبة لأدسم الأطباء . إنها تشبع سريعاً حتى إنها لتبتهج بالتغير وترحب دائماً بالطعام السهل أكثر من الطعام اللدسم

لمجرد التجديد . وسوف تلحظ الظاهرة نفسها في حالة رؤيتها ، فإن النظر غير كفو
من الناحية العملية في التركيز بشكل مستمر على هدف واحد ، ولكن يثيرها
القنوع والتنير في مجال الرؤية . وأياً ما كان الأمر ، فإن أكثر أمثلة القانون وضوحاً
متوافر في ذهن ، فإن المشتغلين بالمسائل الذهنية المضنية يجدون تسلية مماثلة في
نقل البؤرة العقلية والانتباه من موضوع إلى آخر . والحق أننى أعتقد بأن
أكثر المؤرخين المرموقين القدامى يقتبسون عن وعى وسائل هذه التسلية ، البعض
عن طريق التحريف في شكل الأسطورة أو الملحة ، والبعض الآخر عن طريق تشتيت
روايتهم التاريخية بشكل كبير فتلاً لا يتصرون قلمهم على أجزاء هيلاس المختلفة
ولكنهم محتضنون العالم الخارجى . إننى أفكر في مثل هذه الحالات بصفتى
مؤرخاً ، يقطع روايته في منتصف سرد تاريخ تساليا وتداير « الإسكندر
الفرايوى » Pherae ، ليصف مشروعات الإسبرطيين في البليونيوز ، وحتى
مشروعات أهل طيبة ، أو ، الأحداث في مقدونيا أو الليريا Ilyria أيضاً ، وهو
الذى يشرع في التباطؤ في حملة إيفقراط Iphicrates إلى مصر أو انتهاك حرمة
« كليارخوس » Clearchus في البحر الأسود . والنتيجة هى أن سائر الكتاب
التاريخيين سوف نجد أنهم استخدموا هذا المنهج في تناول ، إلا أنهم فعلوه
بلا منهج نظامى ، حيث أكون أنا نظامياً . وعلى سبيل المثال ، فإن الذين سبقونى
بعد أن سجلوا كيف أن الملك الليدى « بارديليس » Bardylis أو ملك تراقيا
« كيرسوبليتيس » Cersobleptes حصلوا على عروشهم ، لا يقطعون هذه الرواية
دون أن يقدموا في القصة فصلاً ثانياً فحسب ، بل إنهم أيضاً ينسون أن يخطر
ببالهم المتابعة بمسدة فترة معينة ، بدلا من النتيجة التى يرجعونها إلى موضوعهم
الأصلى ويتناولون الآخر بوصفه مجرد إدماج . وكان على منهجى الخاص أن يميز
سائر مناطق العالم الهامة نسبياً والإجراءات الواحدة من الأخرى التى
كانت مسرحاً لكل منها على حدة ، وأن يتمسك في عرضه لها ، بنظام ثابت من
التتابع ، وأن يرى في حدود كل سنة متتالية ، الأحداث المتعاصرة التى
وقعت فيها . وبهذه الطريقة أجمل من المستحيل بالنسبة للدراسين الجادين أن

يخطئوا المسائل التي التزم نحوها بمتابعة الأحداث التي رويت من قبل أو أن
أقطع روايتي للأحداث في أية حالة معينة ، بحيث لا أترك جزءاً من الأجزاء
السابق ذكرها مبتوراً أو ناقصاً . من وجهة نظر القارئ الجاد .

(أنا) في الرواية

(بوليبيوس : الكتاب ٣٦ . الفصل ١٢)

يبنى ألا يدمن قرائي إذا ما أشرت في بعض الأحيان إلى نفسي باسمي
وفي بعض الأحيان بتعبيرات عامة مثل (عندما قلت هذا) أو (عندما اتفق
في هذا) . والحقيقة أنني غارق جداً في الإحساس الشخصي ، في الإجراءات التي
يبنى أن أدويها من هذه النقطة فصاعداً ، يجعل من الضروري بالنسبة إلى أن
أغير من الإشارة إلى نفسي . وعلى أن أنجب أي حرج بتكرار اسمي بشكل رتيب
وعلى كذلك أن أكون يظناً إزاء الانزلاق في السوقية باستخدام كلمة (أنا)
و (في روايتي) في كل مناسبة . وعلى هذا سوف أفيد من كل هذه القضايا ، مختاراً
التخير الأكثر مناسبة لكل مقام ، بأفضل ما يمدني قرائي من أكبر رذيلة
شائعة وهي الإعلان عن النفس - وهي خدعة أسلوبية ينشأ عنها اشمزاز فريزي
على الرغم من أنه لا يمكن تجنبه في الغالب عندما لا يكون هناك منهج بديل
عنه في تقديم مادة الموضوع . إن الحظ السعيد قد ساعدني على أن أحل هذه
المشكلة حسب الحقيقة التي تقضي بأن - في حدود أقصى معلوماتي - ليس هناك فرد
آخر قبل زماني ، كان اسمه « بوليبيوس » .

الخطب : مكانها الملائم وغير الملائم

(بوليبيوس : الكتاب ٣٦ . الفصل الأول ، والكتاب ١٢ . الفصل ٢٥ - ب)

من المحتمل أن يتطلع بعض قرائي لمعرفة كيف أنني لم أسع إلى الشهرة بإعادة
الخطب التي ألقاها الأطراف المختلفة ، مادام لدى موضوع يمثل هذه الضخامة ومجال

بمثل هذا الاتساع . ولكن لماذا لم أرسم خطي أغلبية المؤرخين ، الذين صنفوا الأحاديث الهامة حسب المناسبة التي أقيمت فيها كل منها ؟ إن الحقيقة التي تقضى بأننى شخصياً لم أنبذ هذا الفرع من الكتابة التاريخية قد وضحت بشكل كافٍ في مقاطع كثيرة من عملى وذكرت فيها مراراً أحاديث ومؤلفات الناس الجماهيريين ، إلا أنه قد أصبح من الواضح الآن أننى لم أنشئت بأن أتابع هذه التجربة بمناسبة وبلا مناسبة ، على اعتبار أنه لن يكون من اليسر أن نجد موضوعاً أكثر أهمية من الموضوع الراهن^(١) أو مادة وافرة أقدمها لقرائى . وقد أضيف بأن شيئاً لن يكون أكثر بساطة بالنسبة لى من أن أقدم جهداً أديب من هذا النوع ، مادمت غير مقتنع بأن القاعدة تسها تنطبق على المؤرخ كما تنطبق على السياسى . إذ أنه ليس من واجب السياسى أن يعلق أو يوسع تفاصيل أى موضوع بطرح للمناقشة ، وإنما عليه أن يوائم بين عباراته وى مناسبة بعضها ، وكذلك ليس من مهمة المؤرخ أن يتدرب على حساب قرائه أو أن يستعرض قدراته الأدبية بأقصى ماوى وسعه من جهد ، ولكن عليه أن يبذل قصارى جهده وى إفادتهم وأن يشرح العبارات التي قيلت فعلاً ، ملترماً بأكثر المقاطع حيوية وفعالية .

وما يجرى كفسر الأمثال ، أن أى قطرة من أكبر جرة تكفى بأن تفصح عن طبيعة اللون كله الذى تحتوى عليه ، وهذا ينطبق على الموضوع الذى بين أيدينا فننمما تدون رواية أوروايتان منلوطنان وى عمل تاريخى ، وتكون هذه الروايات قد وضعت عن عمد ، فمن الواضح أنه لا يمكن أن يكون هناك اتكال أو ثقة بأية تأكيدات عن مثل هذا الكتاب ، وأقترح على أمل إقناع حتى أبطال « تبايوس » الفيورين ، شيئاً بخصوص سياسته والتطبيق فيما يتعلق بالأحاديث والمراجعات ، والذكريات الدبلوماسية الشفاهية ، وباختصار كل أنواع الخطب ، التي يمكن اعتبارها تقريباً مختصرات للخطب وكفاسم مشترك للكتابة التاريخية . ولا يكاد القراء يخطئون في أن « تبايوس » قد زيف ، وزيف عن عمد ، الأحاديث

(١) نشوب الحرب الثالثة والأخيرة بين روما وقرطاجة (١٥٠ / ١٤٩ ق.م) المخطئ .

التي تنطوى عليها مؤلفاته ، فبدلاً من أن يستعيد العبارات كما قيلت فعلاً ، فإنه يقرر ما ينبغي أن يقال ويأخذ بعدد في تفصيل ما تفيد الأحاديث والنتائج الأخرى لسلسلة الأحداث المعينة ، بدفة كما لو كان طالباً أمام تمرين يحاول أن يجعل منه فرصة لاستعراض قدراته ، وذلك بدلاً من أن يقرر العبارات التي قيلت فعلاً .

إن وظيفة التاريخ في المحل الأول أن يحقق العبارات الدقيقة التي قيلت بالفعل مهما كانت هذه العبارات ، وفي المحل الثاني أن يتحرى السبب الذي توج الحدث الذي تم أو العبارات التي قيلت بنجاح أو فشل . إن سياغة الوقائع عارية هي في حد ذاتها متعة دون أن تكون فيها قيمة تثقيفية ، بينما يحيل الشرح الإضافي للسبب من دراسة التاريخ عملاً مثمراً . إن التحليلات التي يمكن أن تستخلص من مواقف تماثل مواقفنا تقدم مواد واقراضات للتنبؤ بالمستقبل ، فيما يتعلق بتلك المواقف التي تكون بمثابة النذير ، بينما تشجعنا في فترات أخرى بأن نبدي جسارة في الأحداث المقبلة بموجب موازنة تاريخية . وأياً ما كان الأمر ، فإن المؤرخ الذي يلقي كلاً من العبارات التي قيلت وسببها ويحل مكانها عروضاً كاذبة وهراء ، فإنه بعمله هذا يدمر الصفة التي يتميز بها التاريخ ، وهذا هو على وجه التحديد الضرر المشؤم عنه « تهايوس » ومن المعروف تماماً أن كل مجلد من أعماله مليء بهذه المادة الكاذبة .

الحديث والرواية في التاريخ

(ديودورس : الكتاب ٢٠ : الفصول ١ - ٢٢)

إن الكتاب الذين يدخلون الخطب المدة ذات النفس الطويل في مؤلفاتهم التاريخية ، حق عليهم اللوم والتصنيف وكذلك أولئك الذين يقدمون خطابات مستديمة . فإنهم لا يقطعون تسلسل روايتهم حسب لعدم ملاءمة هذه الخطب التطفلية ولكنهم يفسدون دور التطلع الذهني في عقول أكثر الباحثين الفيورين على المعرفة التاريخية . وبالإضافة إلى هذا كله ، فيجوز لأي شخص يرغب في

عرض قدراته الأدبية أن يؤلف مجموعة أحاديث ومذكرات دبلوماسية شفاهية ومدائح وهجاء ، إلى آخر هذا من الأعمال المستقلة . ويؤدى فريضة الشكل الأدبي ، وهو بإخراج موضوعاته بشكل مستقل فى فرعى الكتابة ، فإنه قد يأمل بشكل معقول أن يبرز فى كلا المجالين . وأيا ما كان الأمر ، فإن بعض الكتاب ركزوا فعلا على المقاطع الخطابية بمثل هذا الطول مما جعل التاريخ كله مجرد حاشية للأحاديث - غافلين عن أن هذا التذوق لا تضيره الكتابة السيئة بحسب ، وإنما أيضاً الكتابة التى قد تعتبر ملائمة وباعثة على العبطة فى سياق آخر ، إذا ما خرجت عن مكانها الصحيح . ونتيجة لذلك فإن قراء مثل هذه المؤلفات سواء تخطوا الخطب ، أيا كانت درجة ترسهم ، أو إذا ما تحطمت روحهم تماماً بسبب إسهاب الكاتب وعدم ملائمتها ، فإنهم يتخلون عن محاولة قراءتها مرة واحدة . ولا يمكن لومهم على هذا ، مادام التاريخ بوصفه فرعاً من الأدب بسيط ومتجانس ويحمل ثاثلاً عاماً لأجزائه ، وقد تكون الأجزاء محرومة من نعمة الحيوية ، بينما إذا ما حافظت على تعاونها المستمر ، فإنها تبقى فى أحسن حالاتها ، وتجعل من مهمة القارئ شيئاً مرغوباً فيه وسهلاً بسبب تناسق يفتأها الكامل .

وفى الوقت نفسه لن أتمادى فأدين المقاطع الخطابية بدون أسانيد وأنهدما تماماً من مؤلفى التاريخى . ملتمساً ، كما يفعل التاريخ ، زينة الفنون ، فإن التاريخ لا يستطيع أن يستغنى عن مثل هذه المقاطع هنا وهناك (وهى لمسة أكون أنا محججاً عن المضى بها فى مكانها الصحيح) وطبقاً لهذا فبقدر ما يتطلب الموقف مذكرة شفاهية دبلوماسية أو خطبة برلمانية . وما أشبه ذلك ، فإن المؤرخ الذى ليس لديه الشجاعة لينزل إلى حلبة الخطابة معرض أيضاً للنقد . وفى الحقيقة ، هناك عدد لا بأس به من الناسبات التى نجدها تقدم مورداً للخطابة الضرورية . وقد نتقبل الأحاديث الزاخرة والماهرة على أنها واقعة تاريخية ، وفى هذه الحالة يكون من الخطأ أن نتقلها ونخطئ مقاطع تعبر عن ذكريات قد لا تتخلو من معلومات من وجهة النظر التاريخية . وكذلك ، فإن مادة الموضوع قد تكون لها أهمية ومكانة مرموقة . كهذه بحيث قد لا تسمح العبارات التى قيلت بأن تبدو مناسبة للأفعال

الى وقت . كذلك ، فإن (الختام) قد يكون في بعض الأحيان باعثاً على الدهشة حتى إننا قد نجد أنفسنا مصطرين إلى أن نستخدم الأحاديث في اتساق مع الموضوع حتى تقدم مخرجاً من هذا المأزق .

ما الذي يكون موضوعاً تاريخياً حقاً؟

(ديودورس . الكتاب السادس عشر . الفصل الأول)

يبنى أن يهدف الكتاب ، في سائر الأعمال التاريخية ، إلى أن يضمنوا مجلداتهم الخاصة أعمالاً ، سواء الخاصة بالدول أو المحاكم ، وأن تحتوى عليها من البداية إلى النهاية ، وعند الفحص وجد أن هذا النهج ، هو الذي يقدم التاريخ إلى القارى في أكثر الأشكال صفاء وسهولة على تذكره . فإن الأعمال التي لاتتم دون اتصال بين البداية والنهاية ، تفسد التشويق الذي عند القارى الجاد ، بينما التداير التي تحتوى على اتصال العمل حتى ختامه فإنها تخلق رواية تشكل كلاً متكاملًا في ذاتها . وأياً ما كان الأمر ، فعندما تتعاون طبيعة الأحداث مع جهد القارى ، ليس ثمة عذر لعدم سعيه لتحقيق مثاله (وطبقاً لهذا ، سوف أبذل قصارى جهدى ، من جانبي ، مادمت قد وصلت إلى أعمال «فيليب» بن «أمينتاس» حتى يشتمل على حياة ذلك الحاكم في المجلد الراهن . فضلال الأربعة والمشرين عاماً من حكمه كملك لمقدونيا ، والتي بدأ فيها بأقل السوارد ، بنى «فيليب» مملكته في أعظم دول أوروبا . أما وقد وجد مقدونيا تحت نير «الليبرين» فقد بسط سيادتها على أمم ودول عظيمة كبيرة ، وأقام ، بقوة شخصيته ، سطوتها على سائر العالم الهليني ، حيث خضعت له دول هذا العالم بمحض إرادتها . وأخضع المجرمين الذي نهبوا معبد (دلفى) ، وقد كافأته النبوة بطولته بقبوله في مجلس^(١) Amphictyon ، حيث تنازل عن أصوات التوكيين الهزوميين ككافأة على غيرته الدينية . وبعد إخضاع «الليبرين» والبايونيين Paenonians والتراقسيين ، والنوماد وسائر الأمم المحيطة ، ووضع خطة للإطاحة بالإمبراطورية الفارسية ، وأرسل القوات في آسيا وكان يعمل على تحرير السلج الهلينية عندما داهمه القدر -

على الرغم من أنه ترك بناء حريباً يمثل هذا الحجم والكيفية إلى درجة أن ابنه الإسكندر تمكن من أن يطيح بالإمبراطورية الفارسية دون طلب ممونة الحلفاء . وهذه الأعمال لم تكن فعل الحظ ولكن بفعل قوة شخصيته ، لأن هذا الملك برز على جميع الآخرين بسبب فطنته ، وشجاعته الشخصية وومضته الذهبية .

القسم الثاني - نعت

تقد بوليبيوس زينون لردوسى Zeno of Rhodes

(عرف في النصف الأول من القرن الثانى ق.م)

(بوليبيوس : الكتاب السادس عشر ، الفصول ١٤ و ١٧^أ - ١٨^١ و ٢٠)
إن الفترة التي وقفت فيها هذه الأحداث^(٩) في (مسينيا) ، وكذلك العمليات البحرية السابق ذكرها ، تصادف أن تناولها إخصائيون تاريخيون عديدون ، ومن بينهم من أرى أن أقول كلمة قصيرة عنهم . طالما لا أستطيع أن أتناولهم جميعاً . فإنتى سوف أقصر على أولئك ، في رأي سوف يوفون المناقشة والفحص ، وسوف أتناول « زينون » و « أنتستينيس » Antisthenes الرودسى . ولدى أسباب عديدة لاختيار هذين الكاتبين . فكلاهما معاصر ، وكلاهما زاول قسطاً من السياسة ، ويمكن القول عموماً إن كليهما قد أخرج أعماله بدافع الطموح واعتبارات أخرى مشرفة للسانة تماماً ولم يكتبيهما بدافع عن مصالح ذاتية . إن تناولهما للأحداث ذاتها كما فلتت بمنعنى من أن أتناولهما يدافع رؤية دارسين جادين يعتمدون عليهما في تفضيل عمل النحاص بمسائل موسمية لعدم الاتفاق فيما بيننا ، حسب شهرة بلادهم والاقتراض السابق بأن عمليات الأسطول يجب أن تكون موضع عناية خاصة من كتاب رودس .

إن أول خطأ كان يتعين على أن أكتشفه عند « زينون » و « أنتستينيس »

(١) تنظيم دول أدار الأكرام في دلتى وثرموبولاي ، والذي يمثل حصة - أكبر من العالم الهلنى أكثر من أى هيئة منظمة رسمية (المحقق)
(١) ٢٠٢ - ٢٠١ ق.م (المحقق .

هو أن كليهما يمرض معركة (لاد Lade) على أنها أكثر حدة
ولست أقل عنفاً وأنها كانت أكثر حاسة من معركة (خيوس)^(١) .
Chios ، ويقول كلاهما فيما يتعلق بتفاصيل العمل ونتائجه العامة ، و عبارات عامة
إن النصر ظل إلى جانب الرودسيين . وسأذهب إلى أبعد من هذا فأسلم بأن
المؤرخين يحق لهم أن يرجحوا الكفة لصالح بلادهم ، ولكن لا يحق لهم أن
يجعلوا أنفسهم ، يؤكدون ما يناقض الحقائق من أجل بلادهم . إن خطأ الجهل الذي
يتمرض له الكتاب بحكم عدم العصمة الإنسانية هو أمر خطير للغاية ، ولكن
إذا ما كنا — نحن المؤرخين — زيف الوقائع عن عمد لصالح أصدقاء البلاد ،
فسوف يكون هؤلاء ، بالتأكيد ، في مستوى أقل من أولئك الذين يندرون أنفسهم
لسوء التصرف باعتباره مهنة مريضة . وشخصيات كهذه تقدم أعمالها عن طريق
انحيازها عن مصالحها المادية باتخاذها مستوى لؤلغاتهم ، وكذا فإن الساسة ،
بالمثل ، غالباً ما ينصرفون إلى النتائج نفسها بالوقوع تحت تأثير تعاطفهم أو
تقورهم . وهذا عامل يجب على القارئ أن يثابر على مراقبته . وعلى الكاتب
أيضاً أن يثابر على إرشاده . إن مسألتي قد أوجدتها الوقائع ذاتها .

(تأتي بعد ذلك سلسلة من الإيضاحات)

وتبدو كافة الإيضاحات التي قدمتها آنفاً ، في ضوء السهو الذي يقبل
بالإيضاح والاعتذار — أن معظمها أخطاء عن جهل ، بينما الرواية المقدمة عن
الاشتباك البحري خطأ ناجم عن التحيز الوطني . فما هي المسائل إذن ، التي يتعرض
فيها زينون للنقد الجاد بشكل عادل ؟ هي على وجه اليقين ، أنه لم يكرس جل عنايته
للبحث أو التأليف وإنما كرسه للأسلوب ، ولا يفصح زينون في هذا الصدد ؛
كمدد غيره من المؤرخين المشهورين ، كثيراً عن غروره الذاتي . وأنا أرى أنه

(١) وقع كل من الاشتباك ٣٠٢ — ٢٠١ ن . م بعيداً عن خيوس بين فيليب الخامس
ملك مقدونيا وقوات الأسطوال المتعدة من رودس وبرجاموم وذلك في (لاد) بين أساطيل
مقدونيا ورودس منفردة (الحق)

يفنى أن تفسر ونولى مادة^(١) الموضوع انتباهاً لا يأس به ، إلا أن هؤلاء القضاة اليقطين ليس لهم أن يعطوا أولوية للأسلوب . وسوف نجد هناك ، بعيداً عن جادة الصواب ، ما يمكن أن يكون عوامل أخرى في الكتابات التاريخية ذات النظام الأعلى ، نجد نجاحاً قدير في القرو والذاتي وفي ذهن السياسي . ويمكنني أن أشرح المعنى الذي أقصد إليه بشكل أكثر إيضاحاً بالتال التالي

(يأتي بعد ذلك الإيضاح)

وفي رأي أن هذه الفترات وغيرها من الفترات المائلة تلي بالمؤرخ في خزي شأن ، بينا مثالا (وكلن مثالا نبيل) يفنى أن يسود كافة العوامل في الكتابة التاريخية ، والبديل الثاني الأفضل من هذا هو تركيز الانتباه على تلك التي هي أكثر أهمية وأكثر لزوماً حقيقة . لقد رغبت في أن أقدم الملاحظات بتأمل الناظر التي يقدمها (التاريخ) هذه الأيام والفنون والمهن الأخرى . وفي كل حالة ، فقد حط من شأن الحق والمنفعة ، بينا أطرى على الدجل والادعاء ونظر إليها بإعجاب على اعتبار أنها تسمى . مهيب ومدهش ، رغم أنها في الحقيقة أيسر من أن تتجز وأقل دقة في مستواها ليس في التاريخ فحسب ولكن في فروع الأدب الأخرى أيضاً .

أما فيما يتعلق بمجهل زينون بطبوغرافيا (لاكونيا) Laconia ، فإن خطأ كان عظيماً لدرجة أنني لا أتدق في أن أكتب إلى المؤلف نفسه . ولم يكن المبدأ الذي أعمل على أساسه ، في اتخاذ هذه الخطوة ، أن أعتبر أخطاء زميلي كتحقيق عرض لي ، وهي عادة شريرة لدى بعض الكتاب ، إلا أنني سأبذل قصارى جهدي في أن أحسن وأصح أعمال المعاصرين لي كما لو كانت أعمالى أنا ، وذلك في سبيل التقدم العام للمعرفة . وعندما تلقى « زينون » رسالتى ، انتم جداً عندما تأكد أنه من المستحيل أن يجرى تغييرات في عمله وذلك لأن العمل كان قد نشر فعلاً ، غير أنه على الرغم من أنه وجد نفسه عاجزاً من الناحية المادية ،

(١) من الواضح أن هذا ليس مجرد عنصر بل إنه عنصر بالغ الأهمية ، و كافة الكتابات التاريخية الناجحة (المؤلف) .

فكان رقيقاً حتى إنه تقبل على بروج ودية للغاية . وسوف أنتهز هذه الفرصة فأقدم التماساً شخصياً إلى قرأتى من أجيالى والأجيال المقبلة ، فإذا ما أظهرت عامداً مقدمات زائفة أو تجاهلاً متمداً للحق فى أى مسألة من عملى ، فيتعين عليهم أن ينتقدونى دون رحمة ، ولكن عندما أكون مذنباً عن جهل (دون سوء نية) ، فإننى أتمس المنة والاسيا فى حالتى الخاصة ، مع وضع مدى تألىنى والنطاق الشامل لمادة موضوعى فى الاعتبار .

تقد ديونيسوس الهالىكارناسى لهيرودوت

وثوكوديدس وثيوبومبس

(ديونيسوس الهالىكارناسى) : الرسائل الأدبية الثلاث تحقيق ديس روبرتس W. Rhys Roberts كمبردج ١٩٠١ ، مطبوعات الجامعة : رسائل إلى يومبيوس الفصل ٢ و ٦)

ولعلك تسأل أيضاً عن رأيى إزاء هيرودوت وكسينوفون وتفترض مقدماً ما أنا كاتب عن الموضوع . وهاك ما قد فعلته فى مذكرات إلى ديمتريوس بخصوص (المحاكاة) وتتناول أولى هذه المقالات مشكلة المحاكاة ، وتتناول الثانية أحسن نماذج التقليد فى الفروع الأربعة .. الشر .. الفلسفة والتراجيح . الأحاديث العامة؟ فى حين تتناول الثالثة التهجى وهى لما تم بعد . وسوف أسرد لك ماقلته فى الرسالة الثانية التى تتعلق بهيرودوت وثوكوديدس وكسينوفون وفيلستوس Philistus وثيوبومبس ، وهؤلاء اخترتهم على اعتبار أنهم خير النماذج :

« وهاك أفكارى فيما يتعلق بهيرودوت وثوكوديدس ، إذا ما كان يقمين على أن أضمنهم فى عرضى للموضوع . إن الواجب الأول والضرورى للمؤرخ حقيقة ، بنض النظر عما يكون عليه أصله ، هو أن يختار موضوعاً جيداً يجلب المتعة لقرائه . وعندى أن هيرودوت كان أكثر توفيقاً فى هذا المجال من ثوكوديدس . فإن هيرودوت قد أوجد تاريخاً عاماً للعالم الهلنى والشرقى ، (بهدف إتقاذ ماضى الجنس البشرى

من النسيان وضمان أن هذه الأعمال (الرثاء وغيرها) — تقتبس مقدمته من الكتاب، وهو من الغلاف للغلاف توسيع لهذه المقدمة. أما ثوكوديدس فقد كتب تاريخ حرب واحدة، لم تكن مجيدة أو ناضجة وكان من الخير لو أنها لم تتم (أعلى الأكل) يطوبها النسيان وأخفيت عن الخلق. وقد كشفت مقدمته عن رداءة موضوعه، ويلاحظ فيها أنه دمر في هذه الحرب عدد من البلدان الهلينية، بعضها على أيدي غير الهلنيين والبعض الآخر على أيدي حلفاء الهلنيين، وكان تشتت السكان ودمار الحياة بدرجة لم يكن لها مثيل، مثل الهزات الأرضية، والمحاصيل الهزيلة، والأوبئة وكوارث أخرى. وبهذا فإن القارئ الذي لا رغبة له في سماع كل هذه المصائب التي حلت بهيلاس، يصفه موضوع المؤلف بمجرد الانتهاء من مقدمته. إن قصة الأعمال الرائعة للعالمين الهليني والشرق تسمو على هذه الكوارث القاسية التي جرت على الهلنيين وحدهم، وهذا يعني أن هيرودوت قد أبدى تروياً في اختياره للموضوع أكثر مما فعل ثوكوديدس. وليس من العدل أيضاً أن يقال إن ثوكوديدس لم يكن لديه موضوع آخر إلا أن يكتب ما كتب إذا ما كان عليه أن يتجنب سلوك الطريق نفسه الذي سلكه سالفوه، على الرغم من أنه يكون قد عرف دونية موضوعه: وعلى العكس، فقد حط من شأن الماضي في مقدمته وزعم أن جيله قد عاش خلال أعظم تجربة في التاريخ، مما يبين أن اختياره للموضوع كان مقصوداً. وهذا يخالف هيرودوت تماماً، الذي لم يتعرض حقيقة أن الكتاب الأول أمثال «هيلانا كوس Helanicus» و«خارون Charon» قد نشروا أعمالاً حول هذا الموضوع ذاته، إلا أنه وثق، وهذا جائز، بقدرته الخاصة لإيجاد شيء أفضل^(١).

«والواجب الثاني للمؤرخ هو أن يرمى البداية والنهاية. ومن الواضح أيضاً، أن تقدير هيرودوت أفضل من ثوكوديدس، إذ إن هيرودوت قد بدأ بسبب أول اعتداء من جانب الشرقيين على الهلنيين، وتوقف عندما وصل بروايته عند العقاب الذي وقع على الشرقيين جزاء لهم. أما ثوكوديدس فقد بدأ بالنقطة

(١) يرى كثير من الدارسين غير هذا الرأي. ويقولون إن ثوكوديدس هو أول مؤرخ على معنى أنه يضع نفسه خارج الأحداث ويتخذ موقفاً محايداً ويكتب التاريخ غير متأثر باعتبارات صيقة (الترجم)

التي أخذ عندها العالم الهليني نهار، وكانت بداية خاطئة من جانب مؤرخ هليني وأثيني (ولا سيما إذا ما أخذنا في الاعتبار أنه لم يكن أحد الذين لحقهم تحقير أو نبذ، وإنما كان رجلاً جاهلياً شهيراً ارتفع بفضل آلام بني وطنه إلى مركز وقيادة أعلى). وهو حقود أيضاً للدرجة أنه يحمل بلده مسئولية وهمة عن الحرب، في حين كان ينبغي عليه أن يتمسكها إلى أصولها الأخرى، وكان ينبغي عليه أن يبدأ بأعمال بلده الرائعة مباشرة بعد الحرب الفارسية والتي ذكرها بعد ذلك في مكان خاطيء وبطريقة لا أكثرث فيها ولا إيمان. وبعد أن أبدى عدالة وطنية كان ينبغي أن يمرض الإسرطيين على السرح. ويشرح خوفهم التزايد ونقمته على أثينا، ويبين كيف أنهم أوجدوا أعذاراً من نوع آخر للتورط في الحرب. ولم يكن في حاجة إلى أن يذكر (كوركيوا) وتصرف أهل ميجارا بعيداً عن هذه المقدمات. وما زالت خاتمة عمله متكاثرة الخطأ. وبعد أن يبين أنه شهد الحرب كلها ووعد بعرض كامل لها، توقف عند المعركة البحرية بين الأثينيين والبليونيزيين في (كونوسما) ^(١) Cynossema التي حدثت في العام الثاني والعشرين من المدوان. وكان في وسعه أن يفعل أفضل من هذا إذا ما عرض القصة كاملة وأن يختم عمله بالعودة العظيمة للمنفين إلى (فيلي) Phyle، التي كانت بمثابة بداية لعودة حرية أثينا، وبهذا ينتهي عند إشارة من شأنها أن تسر قراءه تماماً.

أما واجب المؤرخ الثالث فهو أن يضع في اعتباره ما ينبغي أن يشتمل عليه بحثه وما ينبغي أن يتغاضى عنه، وفي هذا الصدد، فإني أشعر، مرة أخرى بأن ثوكوديدس أقل شأناً من هيرودوت. إذ إن هيرودوت أدرك أن الرواية ذات طول لا بأس به ويجب أن تتنوع بالوقفات إذا كان له أن يحرز تأثيراً مقبولاً على عقل القارئ، وأدرك أنه يجب ألا يظل على وتيرة واحدة (مهما كانت مهارة الكاتب في الصنعة) دون أن يوجد إحساساً مؤلماً بالرتابة. وقد استهدف التنوع في كتابته

١ - (١) - يحتمل أن يكون الموت قد اختصه ويحمل عمله علامات واضحة على عدم إتمامه (المحقق)

كبطله ومثله « هومر » والقارىء الذى يسلم بأعماله يجد نفسه مسحوراً حتى آخر مقطع ومتعطشاً دائماً إلى المزيد . أما ثوكوديدس فقد تناول حرباً واحدة بذاتها ، وجمع شتات نفسه ، ومضى معها فى نفس واحد . المركبة تلو المركبة ، والسلاح يقرع السلاح ، وصفحة أثر صفحة ، حتى يضعف انتباه القارىء البائس ويذبل نتيجة للتفرع . وفى وسع « بندار » Pindar أن يخبره بأن (العسل يمكن أن يتخم الزهور الحبيبة الحلوة) ، وعليه فى قترات أن يحقق الفضيلة المنقذة للتغيير والتنوع بالنسبة للمؤرخ . وهناك مكان أو مكانان تلتطف فيهما عليهما ، مثل انحرافه حول نشوء الإمبراطورية الأودريسية Odryaia والدول فى صقلية .

« وثمة واجب آخر على المؤرخ وهو أن يجمع ويرتب مادته . ودعنا نرى كيف أن مؤرخينا يقومان بهذه العملية كلا على حدة . فتوكوديدس يلتزم بالترتيب الزمنى ، بينما يتبع هيرودوت التقسيمات الكبيرة لموضوعه . وهذا يجعل ثوكوديدس غامضاً ومن الصعب متابعته ، لأن هناك بالطبع فى أى صيف وأى شتاء أحداث كثيرة فى أماكن متفرقة ، وعليه أن يتوقف فجأة فى سلسلة أحداث كي يتناول سلسلة أخرى . وكذلك فن الطبيعى أن ينقطع الحيط وينذل بمجهوداً كبيراً حتى نجد إجابة صحيحة لما يعرضه . ويبدأ هيرودوت بمملكة ليديا ، ويصل بالرواية حتى حكم « كرويسوس » ويمضى قدماً حتى « كيروس » قاهر « كرويسوس » ، وبعدئذ يتناول حكاية مصر ، وأراضى الاستبس وشمال غرب أفريقيا . وهناك فى بعض الأحيان عرض لتناجى منطقية ، ويؤلف بين المادة ليصنع منها أشياء ، ويأتى الاستطراد فيجمل القصة أكثر ممتعة . ويرى بعد ذلك تاريخ الهلنيين والشرقيين فى فترة تزيد على مائتى وعشرين عاماً ، وفى ميدان يشتمل على سائر القارات الثلاث ، وينتهى بهرب « كركيس » ، دون أن يقطع التسلسل . والذى يحضرنا هنا هو أن الكاتب الذى تناول موضوعاً واحداً نجح فى تحطيم الوحدة إلى أجزاء كثيرة بينما الكاتب الذى آثر مجموعة متنوعة من الموضوعات قد خلق وحدة متجانسة من كتلة أمور صغيرة .

« وسوف ألس سمة واحدة في تناول مادة الموضوع ، التي تجذب ، في أى عمل تاريخي اهتمامنا على الأقل بمقدار المسائل موضع الاعتبار فعلا . فما هو موقف الكاتب إزاء الموضوع ؟ إن موقف هيرودوت صائب دائماً . إذ إنه يتيح للخير وعقت الشر . أما موقف « توكوديدس » فرر لايلين ، ولا يفقر لبلاده أنها ألقت به في النفي . ولا رحمة عنده في تناول أى شيء على خطأ بالتفصيل ، ولكن عندما يكون الأمر على صواب ، فإنه إما أن يتجاهله تماماً وإما أن يحسه مأساً خفيفاً أو يذكره بضعفينة .

« أما ثيو بومبس الجيوسى ^(١) التلميذ الأشهر لاسوقراط Isocrates فهو مؤلف عدد من الخطب (مدائح سياسية) من (رسائل خيوس) وبعض الماهدات الهامة وهو كؤوخ محترف له بعض الفضائل . فإن موضوعاته — نهاية الحرب البليونيزيه وحياة فيليب — عمل جيد ؛ فالترتيب في كلا الحالتين واضح ومن السهل متابته ؛ إلا أن أقوى فضائله هي وعيه الأدب والصناعة . ويكشف الدليل الداخلي ، بغض النظر عن عباراته الواضحة ، عن الجهد في عمله التحضيرى ، والقيمة الموجودة في مجموعة مادته ، وعدد الأحداث التي كان شاهد عيان لها ، وعدد الجنود المشهورين العامين ، والساسة والفكرين الذين احتك بهم . ومن الجلى أنه كان دائم التفكير في عمله . وبعض الناس يجعل من التاريخ هواية ؛ وقد وهب ثيو بومبس حياته للتاريخ . وإن النطلق الواسع لاهتمامه سوف يقدم فكرة ما عن عنائه المصنى . فإنه يسجل أصول الأجناس وتأسيس الدول ، ويرسم الحياة الخاصة وشخصيات الملوك ، ويضم إلى عمله كل ظاهرة بارزة ومفصلة على البر أو البحر . ويكون من الخطأ أن نفترض أن هذا مجرد الجاذبية . بل على العكس إنها مفيدة لدرجة ما . وسوف أقنع نفس بالحقيقة المقبولة على نطاق شامل وهي أن التريية الأدبية الأكثر سمواً تتطلب معرفة بعم الاجتماع ^(٢) ، والقانون ،

(١) ٣٨٠ — ٣١٠ ق م (الحقق)

(٢) غير حلى مثل الهلى (المؤلف)

والعلوم السياسية والتراجم . وفي سائر هذه الموضوعات يعتبر « ثيوبومبس » حجة ولا تنفصل هذه المعلومات بشكل منفصل عن سياقها التاريخي . وهذه هي بعض الصفات التي تدعو للإعجاب عند مؤلفنا . وبالإضافة إلى ذلك فإن عمله يوجد برمته في التعاليم الدينية الطريقة والفلسفة الأخلاقية ، ولم يتناول عمله التميز والذي يعد في القمة بدقة أو مهارة أى كاتب من قبله أو بعده . إنني أشير إلى كفايته لا لمجرد رؤية المظاهر الواضحة لأية حادثة أو تقريرها ، وإنما لكشف الأسباب الخفية والدوافع والملابسات السيكلوجية ، التي يحدد الناس العاديون من الصعب تفسيرها ، ولأجل الكشف عن كافة أسرار الفضيلة المزعومة والردية الخفية . ومن المحتمل أن يكون الفحص الأسطوري للأقنص التي تحررت من الجسد وعلى كرسى الاعتراف في العالم الآخر يصلح ك موضوع لبحث كالذي استخدمه المؤرخ ثيوبومبس وهذا ما أعطاه شهرة الحقد في وزن الشخصيات البارزة بالدقة وبتفاصيل غير ملائمة . والحق ، أنه بمثابة الجراح الذي يضع السكي والتشريط بأعمق ما تكون عليه الأنسجة المتلفة فيزيل الزوائد ، دون أن يمس الأعضاء السليمة الطبيعية .

وهذه تشكل أساس شخصية ثيوبومبس كما تبينه من تناوله لمادة موضوعه وكما تتميز من أسلوبه .. إذ إنه ليس طاهراً ، وعلى الأخص في مسألة الانحرافات ؛ فهي في بعض الأحيان لا لزوم لها ، وغير مناسبة وطفولية للغاية . وفكر في شبح سيلينوس Silenus في مقدونيا أو القتال بين ثعبان البحر والسفينة البحرية وهي ليست أمثلة غير عادلة لرواياته . . . »

هل هيرودوت مغرض ؟

(الأخلاق عند بلوتارخ : نص توينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الخامس تحقيق ج . ن برناداكس Bernadakis : الفصول ١ ، ١١ ، ١٥ ، ٢٨ ، ٢٩)^(١) .

كثير من قراء هيرودوت تأخذهم ببساطة أسلوبه ، وسهولته وسلاسته ، ويؤخذون أكثر بشخصيته . وإذا ما كان أفلاطون على صواب في قوله إن آخر صورة نقية من الخلود هي المظهر الزائف للزاهة ، فإنه من الصحيح أيضاً أن العمل بالغ السكر افتراض لطبيعية جيدة كهذه وبساطة حتى يسخر بالملاحظة . إن حقد هيرودوت موجه غالباً (رغم أنه لا يفلت منه أحد) ضد البيوتيين والكورنثيين ، وعلى هذا فإنني أصر أني مطالب بأن أدافع عن الحق وعن أسلاقي في وقت واحد مع عرض هذا الجزء في عمله على الخصوص . فإذا ما كان على الناقد أن يتناول كافة مزيفاته وخيالاته ، ملأً بذلك عدة مجلدات . وأياً ما كان الأمر ، فإننا ننقل عن « سوفوكليس » Sophocles (الاقتناع له ملامح خادعة) ولا سيما عندما يستقر في كتابات مليئة هكذا بالسحر ومتمرس لا في إخفاء ذلك الشذوذ فحسب ، وإنما شخصية المؤلف كلها . وعندما ثار الهلينيون على فيليب الخامس وانضموا إلى « تيتس فلامينيوس » Titus Flamininus ، لاحظ الملك أن الطوق الذي وضعوا فيه أعناقهم لين إلا أنه سميك . والآن فإن خبث هيرودوت ناعم الملمس أكثر من خبث ثيوبومبس ، إلا أنه أيضاً أكثر نقاداً وأكثر التواءاً ، تماماً ككيارات الرياح تهب بطريقة خبيثة خلال شرح فهي أكثر إيذاءً من رياح السماء .

خذ مثلاً تناوله لمسألة « أبو » « أبنه » إيناخوس في البداية الأولى لقصته والراي الشائع في هيلاس أن هذه البطلة الشهيرة قد لقيت شرفاً قدسيّاً من الشرقيين وخلفت اسمها على كثير من البحار والمضايق الرئيسية في العالم ، وأنها السلف

(١) هذا المقال وعنوانه « الحبث عند هيرودوت » جاء مع أعمال بلوتارخ إلا أنه بمصر النقاد يعتقدون أنه مشكوك في صحته (للحق) .

لأكثر البيوتات المالكه تميزاً . ولكن ماذا قال عنها مؤرخنا الموار؟ لقد قال إنها ألقت بنفسها من على رموس بمض التجار البحارة من الفينيقيين، لأنها كانت قد أغريت على الرئي من القبطان (رغم أن الأمر ليس ضد إرادتها) وخشيت أن يفتضح حملها . هذه الرواية الطريقة تنسب تمسكاً إلى الفينيقيين ، ويسرد أقوال المؤرخين الفرس كدليل على أن الفينيقيين قد احتفظوا بـ «أيو» ونساء أخريات ، وشرع في تنفيذ الرأي القائل بأن الحرب الطروادية - وهي أعظم عمل وأكثر أعمال هيلاس فخامة - قد نشبت نتيجة النباء من أجل امرأة لا تساوى شيئاً، يقول « من الواضح أن النساء ما كن ليختطفن إذا لم تكن رانبات في ذلك وفي هذه الحالة ، علينا أن نهم الآلهة بالعباء لإلقائهم انتهاك بنات «ليوكتروس» Leuctrus على الإمبرطيين أو على معاقبة «أچاكس» Ajax لانتها لا حرمة «كاساندرا» Cassandra . وحسب أقوال هيرودوت ، على أية حال ، فمن الواضح أن النساء ما كانت تنهكت حرمتهم إذا لم تكن رانبات في ذلك . إلا أن هيرودوت نفسه يقرر أن «كليومينيس» Cleomenes قد أخذها الإمبرطيون حية وقد حدث المصير نفسه للقائد الآخي فيلوبويمن Philopoemen ، بينما ريجيولوس الروماني «Regulus» القنصل قد أخذها القرطاجينيون أسيراً . إننا نود أن نسمع عن مقاتلين أكثر شجاعة أو جنود أفضل من هؤلاء . إلا أنه ليس هناك شيء غير عادي في تجاربهم ، واضعين في اعتبارنا أن الفهود والنمور قد أخذت حية من جانب الكائنات البشرية . ونفس الشيء ، فإن هيرودوت يفضح النساء اللاتي انتهكت حرمتهم ويبض أوجه الرجال الذين اعتصبوهن .

وعندما يصل إلى (الحكماء السبعة) وهو يسميهم «الوقطين» فإنه يتبع عائلة طاليس حتى يصل بها إلى الفينيقيين أو بعبارة أخرى إلى أصل غير هليئي، وانتحل شخصية «سولون» حتى يتسنى له أن يسب الآلهة كما فعل فيما يلي «مولاي» ، إنني أعلم حقيقة أن الحقد والتخريب من طبيعة الآلهة بشكل ثابت ، وبمدنئ تسألني عما يتعلق بالحياة الإنسانية ! « هذا هو رأيه الخاص عن الأرباب ، وعندما يتناول سولون يمزج الخبيث بالكفر ...

والآن دعنا نحصي روايته الخاصة بنتيجة المعركة (معركة ملراثون) فيكتب
« إن الشرقيين دفموا إلى سفنهم الباقية ، والتقطوا العبيد من (إريتريا) Eretria
في الجزيرة التي تركوهم فيها ، وبدأوا يبحرون حول (سونيم) Sunium ، بهدف
أن يصلوا المدينة (أثينا) قبل الأثينيين أنفسهم . ويدعى أنه في أثينا دبر (بنو
الساكيون) هذه المكيدة التي يقال إنهم عرضوا رساً^(١) كإشارة لهم بعد أن كانوا
قد ركبوا سفنهم . وعلى هذا فقد شرع القرس في الإبحار حول «سونيم» وقد بتفاضي
القاري عن إشارة إلى (الادرثيين) على أنهم عبيد ، دغم أنهم قد أبدوا روحاً
سامية من أي هيلينيين آخرين وعانوا مصيراً لا يتفق وطبعمهم . ناهيك عن
وشايته بيت (الساكيون) مع سائر المائلات الكبيرة والأفراد المرموقين المتميزين
إليهم . ولكن مما لا يقتصر له أنه خرب عظمة الانتصار وجمال العمل المالى
الشهير لملراثون ينتهى بلا شئ . وما دام الأمر هكذا ، فمن الجلى ألا يكون هناك
معركة أو عمل له أية نتيجة ، وليس هناك سوى (فرصة) ضئيلة في الجزء الذي
رعى من العدو (كما يبقى قليلو الشأن) ، وإذا ما كان قد حدث بعد المعركة ، بدلاً
من قطع دابرهم ، ما يحملهم يهربون ويتركون أنفسهم كيفما يحملهم التسم بعيداً
عن أثينا ، أن يتلقوا إشارة خيانة نتيجة عرض الترس ، فقد طووا أشراعتهم
نحو أثينا على الأمل أن يستولوا على المدينة ، وحامروا سونيم ، بسهولة ، ثم عرجوا
على (قارم) ، بينما كان أكثر الأثينيين شهرة وتميزاً يخونون أثينا خوفاً من
وقوعهم في العبودية . وبعد ذلك ، عمل على تبرئة «بنو الساكيون» وذلك فقط
كي ينسب الخيانة إلى آخرين فيكتب شاهد عياننا^(٢) وما من ريب في أن رساً
قد عرض ، لست أعترض على الواقعة . وأية غرابة ، في أن الأثينيين قد أحرزوا نصراً
ساحقاً ! ولكن حتى إذا حدث هذا ، فلم يلحظه العدو ، الذي كان يطرد في سفنهم
بتأثير القتلى المديدن ، فكانوا يهربون بأسرع ما يمكن في طاقة كل جندي .

(١) يستخدم بمثابة الشفرات الشمس (المحقق) .

(٢) من المحتمل ألا يكون هيرودوت قد ولد بعد عندما وقعت معركة ملراثون . إن

المؤلف يكتب بأسلوب نهكي بالطبع (المحقق) .

وكذلك عند محاولة الدفاع « عن بنى الكايون » ضد الاتهامات التي وجهها ضدهم في بداية الأمر ، يكتب « وعندي ، أن الافتراض بأن بنى الكايون قد عرضوا ترساً إشارة للفرس كي ينضموا أثينا لغير « هيباس » فهو افتراض لا يمكن قبوله . » إلا أن هذا يذكرنا فقط بالآيات التالية :

قف حيث أنت ياسيد (أبو جلمبو)

وعندما أقبض عليك ، فسوف أخلي سبيلك على الفور

فلماذا انتطلع للقبض عليه إذن ، ما دمت ستطلق سراحه مرة أخرى لوأنت أيضاً ياسيدى ، تبدأ بالاتهام ، وبعدئذ تترافع . إنك تلتصق الوشائيات ضد رجال شهرين وبعد ذلك تسمح هذه الوشائيات . ينبغي علينا أن نستدل بأنك لا تثق بدليلك ، لأنك لم تسمع من أحد ولكنك أنت بنفسك الذى قلت بأن « بنى الكايون » هم الذين عرضوا ترساً للعدو بعدما فر هارباً

وبعد ذلك هناك الأرجيفيون ، ويعرف كل إنسان أنهم لم يرفضوا مساعدة الهلنيين الآخرين ، إلا أنهم فقط أصروا على أن يهككونوا تحت القيادة الدائمة للإسبرطيين أعدائهم اللدودين . هذه هى الوقائع ، فهو يوعز بأخبث اتهام . ويكتب ، أنه عندما طلب الهلينيون من الأرجيفيين أن ينضموا إليهم ، عرف الآخرون أن الإسبرطيين لن يقبلوا اشتراكهم معهم فى القيادة ، وعلى هذا وضوا هذا الشرط ، على أمل أن يجدوا مبرراً لبقائهم على الحياد . وبضيف أن أرتا كسر كيسي عندما علم بعد ذلك بهذه الواقعة من جانب رسول الأرجيفيين ، الذى قام برحلة إلى (صوسة) Susa ، أعلن أنه ليست هناك دولة ينظر إليها بصداقة أكثر من أرجوس ، وبعد ذلك ، وبشكل متميز ، يلجأ مؤلفنا إلى التعليلات . معلنا أنه ليس لديه معلومات دقيقة حول هذه المسألة ولكنه يعرف جيداً أنه لا يوجد أحد بلا أنيس وأن الأرجيفيين ليسوا أسوأ حظاً فى التاريخ . ويعلق قائلاً : « إن واجبي الشخصى هذا أن أعرض ما قيل ، ولست ملزماً على أية حال بتصديقه — وهذا مبدأ استخدمه ، دون ما قصد ، فى كافة أجزاء على فيما يتعلق بهذا ، وهناك رواية أخرى

فما يتعلق بما قيل عن دعوة الأرجيفيين للفرس ضد هيلاس ، لأهم أساءوا في الحرب ضد الإمبراطيين وشعروا بأن أى شيء أفضل من وضعهم السيء الراهن . « ونذكر القارى برواية هيرودوت التى يسجل فيها قرار « اثيوبيان » فيم يتعلق بروائح وأصباغ التحنيط : « إن مراهم الفرس وملايسهم هى خادعة أيضاً — إنهم يكرون ويفرون حول الشيء ولا يخضون قدماً » ويلقى الراسمون أضواءهم على بروز ظلالهم . ويركز هيرودوت تشويحاته بإنكارها ، ويرفع من تأثير إيعازاته عن طريق الألفاظ . ولا يمكن بالطبع إنكار أن الأرجيفيين لم يشتركوا مع الهلينييين وأنهم تركوا مجال الشجاعة إلى الإمبراطيين حسب اعتراضهم على ترك القيادة لهم وإلى هذا الحد ، خطوا من شأن الذرية النبيلة لهرقل ، لأنه كان من الأفضل أن يحاربوا في سبيل حرية هيلاس تحت قيادة « السفينين Siphnians أو « الكثنين » Cythnians خيراً من أن يخسروا نصيبهم في النضال العظيم المجيد بسبب النزاع على القيادة مع الإمبراطيين ، فلماذا لم يبقوا إلى جانبه صراحة عندما وصل ؟ وربما بقوا في الخطوط الخلفية ، بسبب عدم الانضمام إلى قوات الملك ، ودمروا (لا كونيا) وقاموا بمحاولة جديدة على (تريا) T rea ، أو حاصروا الإمبراطيين بشكل أو بآخر من أشكال التسلل . وعن طريق منعمهم من إرسال قوات كبيرة للحملة كهذه التى أرسلت إلى (بلاتايا) Plataea كانوا قد وجهوا ضربة كبرى إلى القضية الهلينية .

إلا أنه ، على أقل تقدير ، قد أعلى من شأن الأثينيين في هذا الجزء من عمله وأطلق عليهم متقدى هيلاس ، وهذا صحيح وسليم إذا لم تكن إطرأاته مشتتة بين القدح والنم وما هى ذى كلماته : « لم يكن من الممكن أن يهجر الهلينيون الآخرون الإمبراطيين ما لم يكونوا قد اكتشفوا أن الآخرين ذهبوا ينضمون إلى الجانب الفالاقى في فترة يصلون فيها بأنفسهم إلى شروط مع كسر كيس . « وفي هذه المقطوعة ليس الهدف الحقيقي مدح الأثينيين . بل على العكس ، فهو يثنى عليهم فقط حتى يسيء إلى الآخرين . والقارى يستطيع بصعوبة أن يصبر على

سبل الإهانات المرة التى يلتقى بها على الطيبين والفوكيين ، عندما يذنب فى حق أولئك الذين غامروا بحياتهم من أجل هيلاس ، فيتهمهم بخيانة لم تحدث فى الواقع رغم أنها ربما حدثت فى الدهن وفى ظل ظروف افتراضية وهو حتى يلتقى وشاية عارضة على الإسبرطيين يحملها مسألة عامة سواء كانوا قد ماتوا فى ميدان الشرف أو وقعوا شروط التسليم ، فإن قصتهم التى يقدمونها هم فى (ترموبولاي) كانت بلا شك نافذة .

وعندما كان عليه أن يصف أربعة معارك ضد الشرقيين ، ماذا فعل ؟ لقد جعل الهلنيين يهربون من (أرتميزيوم) Artemiseum ، ، فى ترموبولاي ، عندما كان ملكهم وقائدهم يضحي بحياته من أجلهم ، جعلهم يقيمون فى بيوتهم لا يفكرون فى شيء سوى الاحتفال الأولمبي والمهرجانات الكارنية ، وعندما جاء إلى (سالاميس) أفرد مساحة أكبر للملكة « أرتميزيا » أكثر مما أفرد للمركة بأسرها ، وأخيراً ، و (بلاتيا) أعلن أن الهلنيين بقوا فى المعركة غير عابئين بها حتى انتهت . وتخميناً ، فإن أولئك الذين ذهبوا إلى العمل وافقوا على القتال فى صمت كي لا يجذبوا انتباه الآخرين ، كالشهد الذى ورد فى اللوحة الهزلية (معركة الصفادع والفيران) التى كتبها « بيجرز » Pigres أرتميزيا كفكاهة . وكذلك أظهر أن الإسبرطيين لم يكونوا أكثر شجاعة من الشرقيين وأنهم هزمهم فقط بسبب تشتت العتاد . ويذكر أن « كركيس » نفسه عندما كان موجوداً فى (ترموبولاي) ، كان من المفروض عليهم أن يدفعون بالكراييج إلى الأمام قبل أن يتقدموا ضد الهلنيين ؛ والآن ، من الواضح ، فى بلاتيا ، أنهم أصبحوا شخصيات مهذبة ؛ ولم يكونوا أقل فى الأخلاق أو القوة البدنية . أما نقطة ضعفهم فكانت عتادهم ، التى لم يكن فيها ما يبقى البدن ، وكان عليهم أن يقاتلوا معرضين ضد قوات مغطاة . وإذا تصرفوا بشكل فعال فى أى عهد يتصل بالهلنيين على أساس من هذه المارك ، فإذا ما كان الإسبرطيون يقاتلون رجالاً غير مسلحين ، وإذا ما كان الباقون غير عابئين بأن المعركة كانت تحتل مكانها فى الحوار ، أما إذا كانت مقابر الميت الجيد لا تحوى

أسفلها جثماناً ، وإذا ما كانت النقوش التي غطت شواهد الحرب كاذبة وإذا لم يعرف أحد الحقيقة سوى هيرودوت ، بينما اهتم كل كائن بشري آخر بهيلاس واعتقد أن معجزاتها في الحرب الفارسية كانت فوق طاقة البشر ، وقد سجلت في أسطورة . من المحتمل أن مؤلفنا ، بأسلوبه البهيج الخلاب ، وسحره ورشايقته وطرافته ، كان يروي لنا حكايات «عواجيز الفرح» بكل مهارة الشاعر ، وليس فقط بمذوبة الشاعر وتهذيبه ؟ ولاشك أن كل إنسان يجده جذاباً وخلاباً ، ولكنه يتكلم بالشر وتوارى الوشاية بين نعومة عباراته الرشيقة كالزناير بين الورد . لتكن يقطاً ، وإلا فإنه يسمم عقولكم بأفكار زائفة ساخرة عن أعظم البلدان ، وأنبال الرجال في هيلاس .

نقد لوسيان الساموساطي لمعاصريه

Luican of Samosata (١٢٥ - ٢٠٠ م)

(لوسيان: مجموعة الأعمال :نص توينغر ، تحقيق ك. چا كوبيتز C. Jacobitz المجلد الثاني : كيف تكتب التاريخ ، الفصول ١٤ - ١٦ ، ٤١ ، ٤٣) .

سوف أعرض لكم بعض مؤرخي هذه الحرب ^(١) مما يمكن أن أذكره من أقوالهم ، بعضها كان لي حظ سماعه في أيونيا من زمن ليس يبعد وأخرى في أكايا Achaia في مناسبة مبكرة . وسوف أحذف بشهوتي الأدبية على الحق الذي أمضى في قوله . حقا ، سوف أكون مهياً لأقدم دليلاً دامناً ، وإذا ما كان من اللائق أن تحول مقال إلى افتراض . وسار أحدهم قديماً مع «ربات الشعر» بنشرة لدعوة أولئك السيدات ليشركنه في عمله . وسوف تلحظ كم كانت هذه المقدمة جديرة بالإعجاب في نغمتها وكم لاءمت بشكل طريف العمل التاريخي وكهى مناسبة لهذا الفرع من الأدب . وأحط من ذلك بقليل قارن بين قائدنا وأخيل وبين الـ (شاه) Shah وترسيقيس Tnersites ، دون أن يتأكد من أن أخيل كان

(١) الحرب البارثو . رومانية ١٦٦ - ١٦٥ م (التحقيق)

الأفضل للزينة «هكتور» Hector لاهزيمة «ترسيتيس» وفي هذه الحالة فإن رجل حرب قوى كان قد (هرب من قبل) وأنه (أفضل منه) قد جاء بعد ذلك) وبعدئذ قدم مديحاً لنفسه ليؤكد أن قلبه كان جديراً بموضوعه المجيد. وبعد ذلك كان هناك إطرأ آثر، وهذه المرة من مواطن له من بلدة (ميليتوس)، مع ملحوظة يشرح فيها أى تحسين كان قد أدخله على «هومر»، والذي تفاضى عن بلدته في سكون. وأخيراً، في ختام مقدمته، وعد على القور، في كلمات كثيرة، أن يفخ من أعمالنا، وأن «يقوم بواجبه» في الإنقاذ من قدر العدو. وهذا بحق ما بدأ به روايته. والتي انتمس فيها في مناقشة أصول الحرب: «لقد شن الحرب، ذلك المجرم الشاه «ولوجيسوس» Wologesus الأبكم والذي لا يغفر له. لكم كانت مطالعته... وهكذا.

ويكفي هذا القدر عن هذا المؤلف، وثم مؤلف آخر منهم كان معجاً جداً بثوكوديديس، وسار بأمانة على دربه حتى افتتح موضوعه بالعبارات ذاتها، واستبدل اسمه الخاص به. وعندما أنقلها، أظن أنكم ستذوقون الطعم الطريف من الروح الآتيكية Attic وسوف توافقون على أنها أكثر الافتتاحيات التي سمعتموها توفيقاً: كتب «كريبريوس كالپورنيانوس من بومبي فيل» Crepereius Calpurnianus of Pompeii تاريخ الحرب بين «البرثيين» Parthians والرومان. لقد بدأ الكتابة فور نشوب الحرب. «وبعد مقدمة كهذه، فن نافلة القول أن تذكر كيف أنه نقل غرس الخطيب السكور كيري إلى «أرمينيا» Armenia عندما أراد أن يلقى خطاباً هناك، أو كيف أنه عندما شن طاعوناً على (نيسيبس) Nisibis لانتخاذه الجانب الخاطئ، فقد أخرجهما بحسنة من ثوكوديديس^(١). لقد تركته حتى يتم دفن الآتينيين البؤساء

(١) كانت الأشياء الوحيدة التي أغفلها هي (البلازجيه) والمدران الطويلة، وفيها حلت ضحايا الطاعون إلى أثينا، ولكنه يملك كل شيء آخر، بما فيها السواد، عندما انتشر الطاعون في مصر وعلى الجزء الأكبر من الأراضي الفارسية على الرغم من أنه في هذه المناسبة كان مضطراً ألا يرحل بعيداً. (المؤلف).

في نيسيس ورحلت بممرة دقيقة عن كل كلمة سوف يعرضها بعد أن مضيت .
وحقيقة إنها لمغالطة شائعة هذه الأيام لؤلف أن يتصور أنه يكتب ثوكوديدس إذا
ما كرر كلماته مع تغيرات طفيفة . نعم ، وهناك نقطة أخرى عند المؤلف نفسه
نسيت أن أرويها لكم . لقد استخدم المبارات الرومانية لعدد من الأسلحة
والأجهزة ، وحتى بالنسبة (المتنق) و (الكوبرى) وغيرها . تصور كيف بدت
على نمط ثوكوديدس بسمو ، ان ترى هذه الكلمات الإيطالية الطمورة في
عبارات أتيكية ، ينزع عنها الفطاء كالجواهر ويبرز مثل هذه الفائدة الكبرى
وينسقها بهذه الروعة مع الصورة الخلفية .

ومؤرخ آخر ألف مجرد مذكرة بالأحداث بأكثر الأساليب تفاهة
وركاكة ، كالتي يمكن أن نجدوها في يوميات الجندي أو الصانع أو التاجر الذي يلتحق
بالجيش . إن هذا المؤرخ الهاوى كان إلى حد ما غير متعجرف . ويمكنك أن تحسك
بتلايبيه إلى فترة كنعحات الخشب أو كمقطر الماء ، بدلا من شخص ذى موهبة أدبية
وتاريخية أفضل منه . إننى اختلفت فقط مع عنوانه الذى كان إطنابا أكثر من
أى شيء في عالم الرسائل كان له حظ في الوجود . « أسفار بارثيان » الكتاب الأول
والكتاب الثانى ، وغيره ، على أيدي دكتور كاليمورفس Callimorphus ، الرماح السادس
وارتكب بالصدفة مقدمة مؤلفة في موضوع أن التأليف التاريخي جاء بين ثنايا الطب ،
لأن « إيسكلايوس » كان ابن « أبولون » والأخير كان المرشد لربات الشعر
والحامى العام للتراث . وقد شرع أيضاً ، ولا أستطيع أن أتصور لماذا ، في الكتابة
باللهجة الأيونية وتمداها على الفور إلى لهجة عامة أو لهجة يونانية متنوعة ، بمبارات
أيونية قليلة تنارت هنا وهناك مثل البرقوق في الكمكة . وإلا لكان الحديث عادياً ،
وذلك إذا ما كان أى شيء دارج جداً .

إن المؤرخ التالى عندى هو الجسور وغير القابل للفساد وذو العقل السامى
والمؤازر الصريح للحق . أن يوى مطالب الحكمة الفائلة بأن التين يجب أن يسمى
تيناً والمول معمولا . إن عدم محابة تقديره سوف لا يتأثر بالود أو التفور ، الإحساس
الطيب الماطفة ، الخجل أو العار . إنه سوف ينفذ قصارى جهده إزاء كافة

شخصياته بأقصى ما يمكن أن يعمل دون عصابة أحد على حساب الآخر .
إنه سوف يضع نفسه موضع القريب وتزيل أرض الكتب ، يطبق القانون على
نفسه ولا يتمترف بحق الانحياز إلى الرعية . إنه لن يتوقف ليضع في اعتباره
ما سوف يظنه هذا أو ذاك وإنما يقرر الوقائع .

إنني أعجب بقاعدة ثوكوديديس ومعياره عن الكتابة الجيدة والرديئة . (لقد
كان يفكر بالشهرة التي صاحبت هيرودوت ، والتي كانت كبيرة لدرجة أن مجلداته
سميت بأسماء عرائس الشمر) ويزعم ثوكوديديس أنه أسهم دائماً في المعرفة أكثر
من القيام (بعمل بطولي) سريع الزوال ، ونال الثقة لمقاومة إغراء التألق أو أن يترك
للخلف سجلاً بالوقائع كالتي حدثت فعلاً . وهو يقدم أيضاً فكرة المنفعة وما هو
معروف بالهدف العمل للتاريخ ، والذي ، كما يوضح هو ، يمكن الجنس البشري
من أن يناضل بنجاح مع المشاكل الجارية في ضوء سجلات الماضي ، وفي حالة
الأحداث التي تكرر نفسها .

وهذه هي الروح التي أريد أن أجدها في مؤرخي ، أما فيما يختص بالإلقاء
والتعبير ، فإنني لا أريده أن يكتسب ، عندما يبدأ في الكتابة ، النهاية المتضمنة في
أسلوب الخبير بلذنته المبالغ فيها ، والآفة والسلاسة . وأريد شيئاً ما أقل عدوانية
— الفكر المتتابع والمركز ، والالفة الصافية والعملية ، والمرض الممتاز .

الجزء الرابع

خناميات

كسينوفون

(تاريخ الشئون الهلينية: الكتاب السابع . الفصل الخامس ٢٦ - ٢٧)

كانت نتيجة المعركة^(١) حتى النقيض تماماً مما توقعه أى إنسان . إذ إن سائر هيلاس تقريباً قد احتشدت إلى هذا الجانب أو ذاك ، ولكن من السلم به ، أنها إذا ما دخلت موجة العمل ، فإن المتصربين سوف يكونون سادة بينما سوف يكون المتهودون تحت رحمتهم ، إلا أن الله قد صرفها بحيث أن الجانبين قد شيداً أنصبه تذكرة في ذكرى النصر بينما لم يحاول أى من الفريقين أن يمنع الفريق الآخر من فعل هذا ، وقد رد كل من الجانبين قتل العدو في ظل راية الهدنة في ذكرى النصر بينما تلقى كل فريق قتلاه في ظل راية الهدنة في قبول المزيمة ، وزعم كل فريق بأن النصر معقود له على الرغم من أن أياً منهما لم يستطع أن يبدى أقل كسب في الأرضي ، أو الحلفاء ، أو الإمبراطورية خلاف ما يمتلكونه قبل المعركة . وعلى العكس ، كان هناك عدم استقرار كثير واضطراب في هيلاس بعد المعركة أكثر مما كان قبلها — ولكنني لأرى أن أوصل روايتي أكثر من هذا وسوف أترك بقية ذلك إلى أى مؤرخ آخر يهتم بتسجيلها .

بوليبيوس

(الكتاب ٣٨ ، الفصول ١ - ٤ والكتاب ٣٩ الفصل ٨)

لقد عانت هيلاس في زمانها فترات انهيار متكررة ، في الامتداد العام كما هو الحال في الامتداد المحلي ، إلا أنه لم يكن هناك أحد من أعدائها السابقين يمكن أن يتميز بشكل عادل بالاسم ، (كل مرة) بكل مترادفات تلك الكلمة ، كأحداث جيلنا^(٢) .

(١) معركة مانييا وقعت ٣٢٦ ق . م بين طيبة واسبرطة مع حلفائها ، وقد فيها المؤلف

ابنه (المحقق)

(٢) نهوض مقدونيا الأخير ١٤٩ - ١٤٨ ق . م والحرب بين الاتحاد الآخري

وروماني ١٤٦ ق . م (المحقق) .

وليس من البساطة أن نرى الهلنيين بسبب آلامهم في هذه المناسبة . وى ضوء
الوقائع كما تدرك تفصيلياً ، يجب أن ينظر إليهم على أنهم مسئولون عن الكارثة
بسبب أعمالهم المتعمدة ، حتى مأساة قرطاجة الفاتكة لم تكن كبيرة لدرجة أن تقارن
بمأساة هيلاس هذه ، والتي تفوقها فعلاً في الأبعاد في بعض النواحي . لقد خلف
القرطاجيون على الأقل للأجيال المقبلة مواد لتطويع ذاكرتهم إلى أقصى درجة ،
بينما لم يقدم الهلينيون أى قواعد مقبولة كيفما كان لتعتبر أعداءاً لأخطائهم . وفضلاً
عن ذلك ، فإن القرطاجيين كانوا سعداء لكونهم قد فنوا وقت الكارثة وتحملوا
من كل وعى مقبل عن مصائبهم ، بينما أصبح الهلينيون مشاهدين لكوارثهم حتى
يخلفوا مصائبهم إلى أبناء أبنائهم . ومن المعتاد أن يرى للذين قاسوا الشدة
في بطن أكثر من أولئك الذين فارقوا الحياة ساعة المحنة ، وعلى هذا القياس ،
فإن مصائب هيلاس يرى لها أكثر من مصير قرطاجة — مالم تتجاهل ، في
تقبل الحكم ، اللياقة والشرف وتنظر بشكل استثنائي إلى اعتبارات مادية .
وسوف يتحقق أى قارى من صدق قضيتي الراهنة ، بتذكر المصائب التاريخية
لهيلاس من أجل أن يقارنها بهذه الكارثة الأخيرة .

وكان غزو « كركيس » لأوروبا هو إحدى المناسبات التاريخية التي ألتي
الخط بفظائنها على رأس هيلاس . وكانت هيلاس بأسرها وقتئذ في ورطة إلا أنه
من الملحوظ أن قليلاً من أبنائها قد تدهور . وهي ملحوظة صحيحة على الأخص
عن الآثينيين ، الذين يمتاطون بما فيه الكفاية للجلاء عن بلادهم في الظروف الحسنة
ومعهم نساؤهم وأطفالهم . وبالطبع ، فإن الآثينيين ، لم يهربوا سالمين من الأزمة ، لأن
الشرقيين قد احتلوا عاصمتهم ودمروها بروح انتقامية ، إلا أن الضحايا في الوقت
نفسه ، هم أبعد ما يكون حتى يجلبوا لأنفسهم المار أو الفضحية ، أحرزوا مجداً عريضاً
واشتهروا لأنهم ضحوا عامدين بكل مالههم في سبيل أن يقاسموا زملاءهم الهلنيين حظهم .
ونتيجة لذلك ، فإنهم كوثقوا على قرارهم النبيل ، ليس من قبيل الاسترداد السريع
لبلادهم وأقاليمهم الوطنية ، بل بتطور مكثهم بعد فترة ليست طويلة أن ينازعوا
الإسبرطيين السيادة على سائر هيلاس . وى تاريخ متأخر ، عندما حطم الإسبرطيون

قوتهم الحربية مرة أخرى ، فقد اضطروا إلى الهبوط إلى ممر كهذا بحيث إنهم أجبروا على تخريب تحصينات مدينتهم ، إلا أن اللعة هنا لم تسقط على أثينا فحسب ، بل على إسبرطة أيضاً ، إلى الحد الذى استغلت فيه بنفس القوة التى وهبها الحظ لإياها. وقد هزم أهل طيبة بدورهم الإسبرطيين ، وقد الأخيرون سيطرتهم على هيلاس ، وبعد أن تنازلوا عن إمبراطوريتهم فى الخارج ، رتب على ذلك أن انحصروا داخل حدود لا كرونيا . ومع هذا ، فبالإضافة إلى ذلك كله ، فأى عار فى ذلك ، وفى مجال المناقصة على أعلى الجوائز الشرفية ، كان عليهم ببساطة أن يرغبوا على أن يشقوا طريقاً للتراجع داخل حدود مجالهم القديم . وهكذا فإن الأحداث التى ذكرتها يمكن أن يطلق عليها شرعاً (بلابيا) ولكن ليس من الممكن أن توصف بأنها (كوارث) . وقد اضطرت « الماتينيون » (كى يستروا) إلى أن يتأدبوا موطنهم ، عندما اقتحمها الإسبرطيون ، وأن يستروا فى قرى مجاورة ، إلا أن كل خزي هذه الحفافة وقع على إسبرطة لاعلى (ماتينيا) . وفى تاريخ متأخر نوعاً ، رأى أهل طيبة - موطنهم قد تهدم ، عندما كان الإسكندر الذى كان يفكر فى غزو آسيا ، يحسب أن الرعب الذى اقترع بفعل عقاب طيبة من شأنه أن يجعل هيلاس فى امتحان ، بينما كان قد انشغل من قبل بأطعمته الخاصة . إلا أنه عندما يرى أى أحد طيبة باعتبارها ضحية ظلم قاس ، لا يسمى أحد إلى تبرير هذا العمل من جانب الإسكندر . وبالتالي ، لم يمض وقت طويل حتى حصل أهل طيبة على تأييدكمهم من إعادة احتلال وطنهم بأمان . والحقيقة التى تقضى بأن تماطف الجانب الثالث مادة لأهمية لها لضحية سوء الحظ ، من زاوية الظاهرة العامة حتى إن الحظ نفسه دار فى تماطف مع انجاعات الرأى العام ، حتى ندم للتصورون تماماً وأسلحوا بأيديهم الكوارث التى أزلوها بشكل لا يمكن الدفاع عنه . وكذلك فقد قد على خالكيس وكورينثوسا وبلاد أخرى عديدة ، بسبب قيمتها الاستراتيجية لفترة من الخضوع تحت تاج مقدونيا ، والتى كانت الحمايات المقدونية قد احتلتها فى هذه الفترة ، إلا أن المجتمعات التى وقعت فى الرق كان عزاءها أن كل شخص كان يتطلع إلى أن يفعل ما فى وسعه لتحريرها ، بينما اثنين دمروا

حريتها كان ينظر إليهم بكرهية عامة وعداء كامل . . . وباختصار عند ما قالسى الهلينيون من الانهيار أو وقعوا في الحزن في الفترات السابقة، كانت مجتمعاتهم فيها هي الوحيدة التي تأثرت عموماً ، وكانت مناسبات المثرة إما مزاحة للسلطة السياسي وإما أعمالاً أخرى من أعمال الخيانة من جانب اللوك والحكام . ولهذا الأسباب، فإن الأمثلة قليلة بالثأ كيد ، التي يلحق فيها الخزي بالضحايا أو التي تصبح فيها كلمة (كارثة) مرتبطة بشكل دائم بمصائبهم . و (المصائب) اسم صحيح للكوارث التي لا يبرر لها في الحياة العامة كما هو الحال في الحياة الخاصة ؛ بينما اسم (كارثة) يجب أن يحفظ بشكل استثنائي لأعمال الخيانة التي تجلب العار على مؤلفيها .

وأيما ما كان الأمر، ففي الفترة موضع البحث ، فإن (الكوارث) التي وقعت في الوقت ذاته على البليونيزيين والبيوتيين والفوكيين . . . (١) واللوكيين وعديد من الجماعات الهلينية على الساحل الأدياتيكي ، كما هو الحال عند المقدونيين (٢)، لدرجة أن النكبة في هذه المناسبة كانت كبيرة من ناحية الكم والكيف عن أي كارثة سبقتها . وفي الحقيقة ، ففي هذه المناسبة قاست هيلاس ما لا تطلق عليه (مصيبة) على الإطلاق، إلا أن (المصيبة) الخزية جداً من المعقول أن تكون من نوع غير مشرف (٣) . لقد أظهرت مزيجاً من عدم الإخلاص والجبن وارتكبت أعمالاً (٤) مروعة تلوث اسمها (٥) . وعلى هذا ، فقد أضاعت كل شيء كان قد شرف قدرها، وأبناءها ساعة المصير هذه — وظهورهم إلى الحائطين لم تكن مجرد سلبية جبانة — قد سلموا باختيارهم الصولجان والفتوس في بلدانهم . لقد سيطر عليهم الرعب بسبب شناعة خطاياهم الفردية — إذا ما كان من العدل أن

(١) اسم ضائع في المخطوط (المحقق)

(٢) في هذه الفقرة ، حيث النس اليوناني مشوه بشكل سيء ، تثبت التجديد التي

التي قام به فردريش مولتش (المحقق)

(٣) التجديد التي اقترضه تيودور هيس (المحقق) .

نطلق عليهم (فردية). وأنا شخصياً، ينبغي أن أقول إن الأغلبية قد زاعبت عن الحق إلى الضلال ، وإن الخطيئة توجد عند السياسين الذين يقذهم جهل بهذا العمق .

وبهذا الصدد ، سوف لا أقدم أى عذر إزاء الخروج على عرف الرواية التاريخية وتقديم ما قد يبدو أنه أكثر خدلاً وحسداً شخصياً على عملي . ومن المحتمل أن أتمرض للنقد فى بعض أجزاء الكتابة بشكل حاد ، عندما يكون واجبي أولاً وقبل كل شيء ، هو أن أسدل ستاراً على خطايا الهلبيين . وأنا شخصياً أختلف فى هذا . وأعتقد أن الناس ذوى التفكير السليم ، لا ينظرون إلى الجبان الذى يتنصل كصديق أصيل ، من واجب الحديث الصريح ؛ وعلى السياق ذاته ، لا ينظرون إلى الجبان الآخر ، الذى حاد عن الصواب خوفاً من إيذاء مؤقت كان مرتبطاً ببعض أناس معينين ، كواطن حق ، وعندما نصل إلى مؤرخ السائل العامة ، فإن المهنة ينبغي أن تسد أبوابها فى وجه الكاتب الذى يقيم وزناً لأى شيء أكثر من الحق . ويصل السجل التاريخي إلى جمهور أكثر اتساعاً ولفترة أطول من الوقت أكثر من أى ملاحظات عابرة ؛ وهذا من شأنه أن يحدد القيمة التى يعطيها المؤلف للحق والذى ينبغي على قرائه أن يضموها فى مستوى عظيم . وفى فترة الأزمة فإن واجب كل هلىنى أن يساعد هيلاس بكافة ماله من وسائل — ليدافع عنها ، ويسدل ستاراً على الخطايا ، ويدافع مع البهليين الذين يرثون لها — وهذا ماقت به بكل إخلاص وقت الشدة . وأياً كان الأمر ، فإن واجب الهلىنى أيضاً ، عندما يكون فى موقف يحتم عليه أن يخلف للأجيال المقبلة سجلاً تاريخياً عن الماضى ، أن يتركه كاملاً دون مازيف . إن غرض التاريخ ليس إمتاع القارى على الطالمة ، وإنما إقامة روح القارى ، وإتقاده من التثر مرة واحدة من المرات العديدة

وما إن أعمت مهمتى ^(١) ، حتى غادرت روما إلى بلدى . وأكاد أشر

(١) ألحق بوليبيوس مستشاراً خيراً لهيئة المبعوثين التى كانت قد أرسلت لصفية الاتحاد الأخرى بعد الحرب الرومانية — الآخية عام ١٤٦ ق.م بعد الحصول على كل تهديته ممكنة من جانب البشة حتى يتم أعمالهم بد رحيلهم . ثم تبعهم إلى روماً نفسه ليقدم تقريره عنها .

إننى حققت على الأقل بعض هذه الأهداف السياسية التى تجاهدت فى سبيلها طوال حياتى ، وقد عادت على صداقتى لروما بالجزء السعى . والآن سوف أصلى إلى سائر الأرباب وأنوسل أن أقضى بقية أيامى بنفس النشاط وفى ظل الظروف نفسها. لقد لاحظت أعمال الخطو وأعرف طبيعة عقيرتها نحو الحاقده على الجنس البشرى ، وأعرف أيضاً أن سيطرتها مطلقة تماماً على هذه الواحات و الحياة الشرية التى تبدو فيها أوهام الضعية أكثر دقة وأكثر أمناً .

المحتويات

صفحة

تعريف	٥
مقدمة الطبعة الاولى	٧
مقدمة الطبعة الانجليزية الاولى	١٧
مقدمة الطبعة الانجليزية الثانية	٣٩

الجزء الاول

مقدمات	٤١
هيرودوت الهاليكارناسى	٤٢
ثوكوديدس الاثينى	٤٦
بوليبىوس الميجالوىلى	٦٢
ديودورس الاجريومى	٦٨
ديونيسيوس الهاليكارناسى	٧٤
إنجيل القديس لوقا	٨٢
فلاقيوس يوسيفوس الاورشليمى	٨٢
آريان النيقوميدي	٩٥
آبيان السكندرى	٩٦
ديوكاسيوس هوقيانوس التقاوى	١٠٢
هيروديان السورى	١٠٤
يونانيوس الصرديسى	١٠٦
ماركوس الشماس	١١٠
پروكوبيوس القيصرى	١١٢
أجاثياس الميرهينى	١١٧
ميناندر الديدبان	١٢٤
ثيوفيل كتوس سيموكاتا المصرى	١٢٥

الجزء الثاني

١٣١	فلسفة التاريخ
١٣٣	القسم الاول — القلب
١٣٣	أوراق ورجال
١٣٣	الفناء
١٣٤	الكارثة الاثينية في صقلية
١٤٥	عبء مقدونيا
١٤٦	عبء روما
١٤٧	مصدق الكتاب المقدس
١٥٠	الموت ينهى المشكلة
١٥٤	ختال الزمن
	القسم الثاني —
١٥٦	الكبرياء والقصاص والحسد عند الآلهة
١٥٦	الرواية المعتمدة
١٥٧	حكمة سولون
١٥٩	درس بوليقرات
١٦٣	الرواية المنقحة
١٦٥	يوم الدينونة
١٦٥	المهر في السرج
١٦٦	الاتجاه العقلي
١٦٧	القسم الثالث — التطور
١٦٧	الاضمحلال
١٧٠	عمل
١٧٢	عجلة الوجود
١٧٦	دورات الحضارة
١٧٨	تتابع التاريخ
١٨١	شعول التاريخ
١٨٢	وحدة التاريخ

١٨٤	القسم الرابع — القانون والتعليل
١٨٤	الحنمية
١٨٥	نذير
١٨٦	القانون القديم
١٨٧	القانون الطبيعي
١٨٨	البيئة والطبع
١٨٩	البيئة والسياسة
١٩٠	البيئة والعنصر
١٩٢	تعزية أنيكا
١٩٣	التعليل جوهر التاريخ
١٩٣	أسباب بعيدة وأسباب قريبة
١٩٥	سلوى الفلسفة
١٩٦	القسم الخامس — حجة وملاحظة
١٩٦	أصول العنصر الهليني
١٩٧	مصر مهد للحضارة
٢٠١	هل الكولجتيون مصريون ؟
٢٠٢	طوائف
٢٠٤	انتقال الأبجدية
٢٠٥	هل خان « بنو الكمايون » هيلاس ؟
٢٠٦	هل خان الأرجيقيون هيلاس ؟
٢٠٩	كيف أنقذت أثينا هيلاس
٢١٠	الآثار الاجتماعية للحرب الفارسية الكبرى
٢١١	تأثير قوة البحر على التاريخ
٢١٥	الطاعون في أثينا

الجزء الثالث

٢٢١	القسم الأول — مسائل فنية
٢٢١	الإشكال الزمني حول مرقل

٢٢٥	تقويم مصرى وتقويم هلىنى
٢٢٨	دليل كتابى
٢٢٩	مكان الجغرافيا فى التاريخ
٢٣٢	منهج الفصول المتعاقبة
٢٣٤	(انا) فى الرواية
٢٣٤	الخطب : مكانها الملائم وغير الملائم
٢٣٦	الحديث والرواية فى التاريخ
٢٣٨	ما الذى يصنع موضوعاً تاريخياً حقاً
٢٣٩	القسم الثانى — نقد
٢٣٩	نقد بوليبيوس لزينون الرودى
٢٤٢	نقد ديونيسيوس الهالكارناسى لهيرودوت وثوكوديدس وثيويومبس
٢٤٨	هل هيرودوت مغرض ؟
٢٥٤	نقد لوكيان الساموساطى لمعاصريه

الجزء الرابع

٢٥٩	ختاميات .. نهايات
٢٦١	كسينوفون
٢٦١	بوليبىوس

الفكر النازي عند الآخرين

بعد المؤرخ الفيلسوف ، آرسولد توينبي ، من المؤرخين
المفكرين الذين يؤمنون بدور الإنسان في الحضارة . وهو في هذا
يقف في مواجهة مؤرخ آخر هو ، إروالد شينجلر ، الذي قال في
عمله الشهير (انهيار الغرب) أن الحضارة الغربية قد ملكت
وانتهى أمرها ولم يأخذ ، توينبي بهذه الفكرة وقال بعدم
وجود حتمية في العمليات التاريخية . وقال بأن الأمر كله متروك
لدور الإنسان لأن الحضارة - عنده - ليست كائنا عضويا يولد
وينمو ويموت . وتنشأ الحضارة طبقا لقدرة الإنسان في الرد
على التحدي فالحضارة الصينية نشأت عندما نجح الصينيون
في الرد على فيضانات الأنهار هناك . وكذلك الحضارة المصرية
القديمة نشأت بنجاح المصريين القدماء في ضبط فيضانات النيل
ومواجهة زحف الصحراء على الشريط المائي الضيق - الإنسان
إن له دور في معالجة الحضارة الغربية من الانهيار والإفلاس من
التقدم العلمي والتكنولوجي والعسكري في تأخير هذا الانهيار .
وهذا الكتاب نموذج لنظرة توينبي إلى الحضارات المختلفة .